
أنيس منصور
هناك أمل

أنيس منصور

هناك أمل..

مقالات



كلمة أولى ..

العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى «دانتى» على باب جهنم تقول :
(أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة !)
بل هناك أمل فى النجاة يا سيدى ! .

* * *

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإغريقى «هراقليطس» :
لولا الصراع ما كان التقدم . .
فقد عرف الإنسان الحب والرحمة والسلام وإرادة الحياة ، والصبر على المرض والعذاب والظلم والقهر . .

* * *

والعبارة التى كان يكتبها الرومان على أبوابهم :
هنا تسكن السعادة ! .
لأنهم وضعوا إلى جانب هذه العبارة رمزا للجنس . أى أن السعادة جنسية فقط . .

* * *

والعبارة التى قالها عالم النفس الألمانى «فريتس برلز» ـ وهو أحد فلاسفة علم النفس الجشتالت ـ قال :
إننى أعمل ما يخصنى . وأنت تعمل ما يخصك . ولست فى هذه الدنيا لكى أعيش على هواك ، ولا أنت لتعيش على هواى .

أنت ما أنت عليه ، وأنا ما أنا عليه . فإذا التقينا أو تلاقينا أو توافقنا بالمصادفة ، فهذا شيء جميل . وأما إذا لم يحدث ذلك ، فما حيلتي؟ .

فليس الإنسان وحده في هذه الدنيا . وعلى الرغم من أن الإنسان قد استقام ظهره من مليون سنة . وله حياة عائلية من مائة ألف سنة . فلا تزال الأسرة هي (الخلايا الضامة) في نسيج التاريخ . .

* * *

قال الشاعر الألماني «برشت» :

يقولون لي : تناول طعامك واشرب ، وكن سعيدًا . . ولكن كيف أفعل ذلك وأنا قد خطفت طعامي من أفواه الجائعين ، وشرابي من شفاه الظامئين؟ ، ومع ذلك ما أزال آكل وأشرب ! .

لقد عاش الإنسان على جثث الإنسان وعلى استغلال الإنسان وابتزازه ومص دمه وهوائه أيضًا . لكي يتمرد على كل ذلك . . ومعناها .

وليس يكفي أن تتلاعب بالألفاظ فتقول : إن مقلوب كلمة Live ـ ومعناها الحياة ـ هو كلمة EVIL ومعناها الشر .

* * *

فلا تزال الحياة تساوي أن يعيشها الإنسان . وقد عاشها . وجملها لنفسه . وخدع نفسه . وأرضاه ذلك . . وتمرد ليعاود استئناف الحياة ضد الحياة ومعتمدًا عليها . . تمامًا كالطائرة ترتفع بالهواء ضد الهواء وفوق الهواء . وكالسفينة تقاوم الموج ولكنها تطفو عليه وضده وبه . .

وكان أجدادنا الفراعنة يضعون توابيت الموتى إلى جوارهم وهم يأكلون لعلهم يتذكرون أن الموت نهاية كل حي . وأن الحقيقة المؤكدة في حياتنا هي موتنا . .

وكما يقول الفيلسوف الوجودي «سارتر» : إذا وقفت إلى جوار طفل فلن تعرف هل سيعيش طويلا سليما ملكا خادما أو مجرما . . ولكن من المؤكد أنه سوف يموت . .

ولكن المؤكد أنه إذا عاش سوف يقاوم كل أشكال الموت الجسمي والنفسي والأخلاقي والروحي . .

صحيح أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرًا . ولكن أدوات الحياة هي التي تغيرت . .

فحواء تغطت بورقة توت . . وليست صناعة الأزياء إلا تطورًا مستمرا لورق التوت : طولها . . عرضها . . مكانها . . لونها . . شفافيتها . . أن تتغطى به المرأة وتتعرى في نفس الوقت . .

وكان الإنسان يقتل الحيوانات بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت مدافع وصواريخ وقنابل كيماوية . . وبقيت الرغبة في القتل والدفاع عن النفس والسيطرة والجشع كما هي .

وكانت كليوباترا قد جربت سم الأفاعي في خادماتها قبل أن تلف الأفعى حول عنقها . .

وجربت المخابرات في أمريكا وروسيا وألمانيا الشرقية كل الأسلحة النووية والعلمية والصدمات الكهربية وغسيل المخ في المرضى والأسرى والمجانين والمواطنين لتعرف مدى خطورتها إذا استخدمتها ضد العدو . .

وقد سجد سكان هاواي عندما رأوا «جيمس كوك» . . لأن أساطيرهم تقول : إنه إله طويل أبيض أزرق العينين سوف يجيء فوق جزيرة عائمة . وجاء الرجل ، وسجدوا له . . ولكن عندما قتل منهم الكثير ، قتلوه . فلا يزال الإنسان رافضًا للظلم والقهر والعدوان . .

والإنسان هو هذا الكائن الغامض الذى ينقل حضارته من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر ، وفى نفس الوقت قادر على أن يحتفظ بكل سلوكه الإنسانى الذى لا يتغير . . «فروبنسون كروزو» عاش فى جزيرة وحده . ولكن كانت معه كل ركائز الحضارة القديمة . .

والجندى اليابانى الذى عاش فى «جوما» بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يضع السلاح ٢٥ عاما . ظل يأكل الحشرات والأسماك ويسرق الدجاج ولا يعلم أن الحرب قد انتهت ، ولما قالوا له لم يصدق وانتظر أمرا من الإمبراطور . . وجاءوا له بالأمر فاستسلم . . فقد عاش وحده ، ولكن احتفظ فى أعماقه بكل التقاليد العسكرية اليابانية . .

و«نيل أرومسترونج» أول إنسان نزل على القمر ، والذى تحرسه ألوف العيون والعقول الإلكترونية ومحطات المتابعة فى القارات الخمس ، كان يلف حول عنقه إيشاربا هدية من أمه . فهو ابنها الوحيد . وهو يعتقد ـ وهى أيضا ـ أن هذا الإيشارب هو الذى سينجيه من الموت !

إن حـذاءه المكيف الألكترونى هو آخر ما وصل إليه العلم ، والإيشارب هو أول ما بلغه الإنسان من الإيمان بالخرافة ! .

(٢)

ولكن ما الذى أصاب الإنسان الآن ؟ من المؤكد أننا نريد الحياة لأنفسنا والموت لغيرنا . ولكن الحياة تنتصر مع إرادة البقاء والسيطرة على الإنسان وعلى البيئة . .

وإذا كان الإنسان يريد الآن أن يهاجر إلى الكواكب الأخرى . . فقد فعل ذلك من قبل عندما هاجر من قارة إلى قارة وبقى هو هو . فهذه الهجرة لم تغير طبيعة الإنسان . فمجرمو بريطانيا الذين سكنوا أستراليا تحولوا إلى مجرمين أيضا .

والأمريكان والروس قد نقلوا حروبهم من الأرض إلى الفضاء . فقد كانت هناك حرب النجوم . . وإذا كانت الحرب قد بردت والسلام قد أصبح ساخناً ، فذلك لبعض الوقت . وسوف تقوى روسيا لتكون خطراً جديدًا . فلديها كل عناصر القوة والسيطرة . . وسوف تستأنف الدول الصراع بأشكال وأساليب أخرى وفى أماكن أخرى . . ولكن سوف تنتصر الحياة دائمًا . .

وكما عاشت الإنسانية عصور عدم الإيمان وعدم اليقين أيضًا . . وهى قادرة على ذلك . .

فبعض الحشرات تستطيع أن تعيش أيامًا من غير رءوسها . . مثل الصرصار Cockroach . وكذلك بعض الشعوب دون أن تكون لها نظرية .

وإذا نحن فتحنا المقبرة بعد يومين أو ثلاثة من دفن أى إنسان فسوف نجد شعر لحيته وشاربه وأظافره قد طالت . . لأن الشعر والأظافر ليست فى حاجة إلى عقل وجهاز عصبى لكى تنمو . . وإنما تحتاج إلى طبقة رقيقة من الغذاء موجودة فى بشرة الإنسان . . فالشعر والأظافر قد نمت بعد أن مات صاحبها ! .

(٣)

هناك تقدم ـ ولا شك ـ فى أجهزة الحصول على المعلومات ونقلها . . وهى فى خدمة العلم والأدب والفن . . ولكن الجهاز الذى نستخدمه فى تشخيص المرض ، هو نفسه الذى نستخدمه فى الجريمة . . فكما أن هناك مؤسسات علاجية ، هناك مؤسسات إجرامية تستخدم عددًا كبيرًا من العلماء والأطباء والمحامين والمجرمين أيضًا . . ولكن هناك تقدم . .

كان الملك سليمان يندهش جداً لهذه الظاهرة : الأنهار تصب فى البحار ، لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت ! .

ولكن أى طفل صغير يعرف السبب . . إنها ظاهرة تبخر الماء الذى يتحول سحابًا فيسقط على الجبال ويتدفق فى الأنهار إلى البحار . وإلى الأبد ! .

فمعلومات الإنسان وتجاربه فى زيادة مستمرة . . والمؤرخ العظيم «توينبى» أعظم وأروع من «هيرودوت» ؛ لأنه يعرف أكثر ؛ ولأنه رأى طويلا وتأمل أطول . .

والفيلسوف الفرنسى «سارتر» أعظم من الفيلسوف «فولتير» و«شيكسبير» أعظم من «يوربيدس» . . و«نيوتن» أعظم من «فيثاغورس» . . و«العقاد» أعظم من «أبى حيان التوحيدى» و«طه حسين» أعظم من «ابن العميد» ، وكان المستشرق الإنجليزى «إدوارد لين» عندما جاء إلى مصر فى القرن الماضى قال : إن الموسيقى المصرية الشعبية الصافية أروع من كل الموسيقى الغربية ! .

وأذكر أننى فى بداية حياتى الصحفية ذهبت أزور أحد علماء النفس المصريين وجلست إليه طويلا . . ولكن شيئًا باهرًا قد حدث . . وقفت إلى جواره لكى أظهر فى صورة أنشرها مع مقالى . وكانت الصورة لفرن بوتاجاز . . ونشرنا الصورة . ومعنى ذلك . . أنى ورئيس التحرير وكل المحررين لم نر مثل هذا الاختراع العظيم . . ولكن عندما ذهبت بعد ذلك إلى قاعدة إطلاق الصواريخ فى أمريكا لم أحرص على أن تكون لى صورة إلى جوار الصواريخ . . فهى ليست شيئًا جديدًا . فالملايين قد رأوها ولم تعد تلفت نظر أحد . . والفرق بين البوتاجاز وقاعدة الصواريخ لا يزيد على عشرين عامًا ! .

(٤)

فما الذى حققه الإنسان فى العشرين سنة التى تلت ذلك فى المواصلات والمعلومات؟ إن الإنسان كما يقول فيلسوف التاريخ «اشبنجلر» هو الحيوان الذى يصنع أدواته . . بفضل أصابعه القادرة على تطوير كل شىء ! .

وقد رأيت فى «تايوان» كيف استخدموا الهندسة الوراثية فى تحويل ريش الأوز الأسود إلى ريش أبيض . . وزيادة حجم وطول وعرض الأسماك . . وتغيير سلوك الجمبرى الذى كان يخرج إلى المياه الدولية فيلتقطه الصيادون اليابانيون . فاستطاع علماء تايوان أن يجعلوا الجمبرى يلف ويدور فى داخل المياه الإقليمية ليدخل الشباك التى أعدوها له ! .

وعن طريق الهندسة الوراثية سوف يتغير سلوك الإنسان والحيوان والنبات . . وسوف نكتشف الجينات genes التى تؤدى إلى ألوف الأمراض الجسمية . . وأن ما فعله الفرنسيون أخيرًا من رسم خريطة لهذه الجينات وترتيبها داخل الخلية يعتبر من أعظم الإنجازات العلمية فى هذا العام . .

وسوف يعيش الإنسان أطول وأصح ، وسوف يقاوم المرض ويقاوم انعدام الوزن فى المدن الفضائية الجديدة . . التى ستقام قبل نهاية القرن حول الأرض . . وسوف يعيش الإنسان تحت قشرة القمر وقشرة المريخ . .

وسوف تبقى الطبيعة الإنسانية كما هى دون تغيير كبير . .

ومن منا لم يضحك عندما قرأ رحلة الرحالة النرويجى «ثورهايردال» (رع ٢) عندما التهبت جلود البحارة بسبب الشمس والملح . فأمر الطبيب الروسى بأن يتبول الجميع بعضهم على

بعض ، فهذا هو العلاج الوحيد . وكان العلاج . . وهى عادة لا تزال مستخدمة بين سكان الصحراء حتى اليوم ! .

من يدرى ربما استطاع الإنسان أن يتغلب على مشكلة الانتقال من مكان إلى مكان . . فلا تزال سفن الفضاء لكى تتغلب على جاذبية الأرض يجب أن تنطلق بسرعة ثمانية كيلو مترات فى الثانية . . ولا تزال السرعة المطلقة هى سرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل فى الثانية .

ولو استطاع أى إنسان ـ وهو احتمال بعيد جداً ـ أن تكون له سرعة الضوء ، إذن لاستطاع الإنسان أن يحقق المعجزة ، وهى أن تتحول الطاقة إلى مادة . . فنحن لا نعرف الآن إلا أن المادة تتحول إلى طاقة حرارية أو ضوئية . . ونحن نجرب ذلك فى كل لحظة . . عندما نشعل عود كبريت . . نحن نحول المادة إلى طاقة ، ولكن إذا حولنا نار الكبريت إلى عود كبريت ، فإننا نستطيع أن نحول جسم الإنسان إلى طاقة ننقلها فى الفضاء ثم نعيدها مادة فى مكان آخر من الكون !! .

وحتى لو نجحنا فى ذلك فالكون لايزال واسعًا شاسعًا عميقًا مجهولا . . فأقرب الكواكب إلى مجموعتنا يحتاج الوصول إليها إلى الوف السنين .

وعلى أيام «نيوتن» كنا نرى أن الكون هندسة صارمة . وأن الله هو أعظم مهندس . أو أنه هو الرياضى الأول . .

وفى عصر «أينشتين» ظهرت النسبية ، وكاد الناس يكفرون ـ أو كفروا ـ مع أن هذه النظرية لها علاقة فقط بالكون الذى له بعد رابع هو الزمان . . وأن الزمان مثل الضوء ينكسر وينحنى . . تمامًا كما تلقى بتفاحة فوق مخدة ، فترى التفاحة فوق تجويف ، هذا التجويف هو إحناء الزمان ! .

ومن الصعب أن نتصور ذلك ، ولكنها الحقيقة .

وظهرت نظرية أخرى هى عدم اليقين للفيزيائى الألمانى «هيرنبرج» . . ومعناها أن فى الكون قوانين أخرى لا نعرفها . وأن هناك قوانين ضد القوانين أو لا تخضع للقوانين . وأن هناك الكثير الذى لا نعلمه .

فما الذى سوف يحققه الإنسان فى مائة سنة مائة ألف . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة . . أى ٣٦٥ يومًا . . وأن الله خلق الكون فى الثانية الأولى من الدقيقة الأولى فى الساعة الأولى من اليوم الأول من يناير ، فإن ظهور الإنسان العاقل كان فى الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . ولكن الإنسان فى هذه الفترة القصيرة جداً قد حقق الكثير الرائع فى كل فروع المعرفة . .

فالكون عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان عمره أربعون ألف سنة . . وقد حقق المعجزات فى الأربعين عاما الماضية . .

(٥)

وكان الفيلسوف الفرنسى «أرنست رينان» يتمنى أن يولد عند نهاية العالم ليرى ما الذى حققته البشرية . . مع أنه لم تكن له إلا مشكلة واحدة ، هى : كيف يستطيع إنسان أن يحب زوجته عامين متواليين؟!

مع أن حلها بسيط ، هو ألا يتزوج . . أو يقتل نفسه أو زوجته من أول يوم أو أول عام !! .

ثم إن فى الأدب والفن فى كل الشعوب ما يدل على عمق وصدق هذه المشاعر . .

ورغم أننا نعرف صعوبات العلاقات الإنسانية إلا أننا لا نهرب منها ولا نهرب من أنفسنا . . تمامًا كما أننا أصبحنا نعرف أن القمر

جسم بارد ، ولكن من الذى لا يحب النظر إليه والتغنى به اليوم وغدًا . .

ومهما كبر الإنسان واتسعت الدنيا أمامه وزادت همومه ، فإن نظرة إلى زهرة أو عينى طفل قادرة على أن تعيده إلى صفائه ونقائه . . لحظة ، لحظتين . . هما كل ما فى الإنسان من عظمة . .

(٦)

أما البحث الآن عن سفينة نوح فوق جبل «أرارات» لدليل على أن الإنسان يحلم بالنجاة . . برسول عنده نظرية تنقذنا من أنفسنا على هذه الأرض أو على الكواكب الأخرى ! .

ولكن سوف تبقى مشكلة هامة : زيادة عدد السكان ، والهندسة الوراثية هى القادرة وحدها على الحل ، ما دام الإنسان عاجزًا عن ضبط نفسه .

. وكانت الأساطير الإغريقية ترى أن الحل الوحيد هو : أن يعيش الرجال فى جزيرة والنساء فى جزيرة . أو أن يقطع النساء أثداءهن حتى إذا اضطررن إلى الحمل والولادة لم يجد الأطفال لبنا يعيشون عليه .

وكانت عند الإغريق جزيرة اسمها «دبلوس» قد حرم فيها الموت والولادة . . فلا يولد فيها طفل ولا يموت فيها أحد . . فالذين يولدون كالذين يموتون ، يذهبون إلى جزيرة بعيدة والطريق إليها قاتل أيضًا . .

أو تلجأ الهندسة الوراثية إلى نقل صفات بعض الحشرات إلى الإنسان ، فأنثى العنكبوت - مثلا - تأكل الذكر أثناء اللقاح . . وتستطيع أن تفعل ذلك ٢٥ مرة كل يوم ؟! .

وهكذا تقضى على معظم الذكور . . ثم تنتقل هذه الصفات إلى الرجال ليأكلوا النساء . . وهكذا تختصر الإنسانية نفسها لبعض

الوقت لتعاود التكاثر فى كوكب والاختصار فى كوكب آخر . . وتستمر الحياة أفضل وأعلى وأسمى . . ولابد أن تستمر .

ويزداد يقين الإنسان وإيمانه وتواضعه أمام عظمة هذا الكون الذى هو صورة متواضعة جداً جداً لعظمة الله ! .

* * *

فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) رأينا صورة مفزعة لمطاردة الموت . . وإصرار الحياة على أن تستمر ، وإصرار الانتقام على أن يمضى حتى النهاية . . ثم هذه الثورة الكيميائية الهائلة عندما تتحول الأشياء والناس والحيوانات بعضها إلى بعض . . وهى تلك القدرة التى يحلم بها الإنسان . . فتكون المادة طيعة بين أصابعه . . تمامًا كما صورتها أساطير الأغريق . . فقد كان الآلهة يتحولون إلى حيوانات ونباتات كما يشاءون .

وكان آلهة الإغريق يفعلون ذلك بسبب الملل ، الحياة الأبدية الهادئة المستمرة التى ليس فيها تغيير ؛ لأن التغير من صفات البشر الذين يولدون ويموتون . . وكان آلهة الإغريق يحسدون البشر على هذه النعمة ، نعمة أن يولدوا وأن يموتوا . .

ففى هذه الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) نجد العفريت وقد اتخذ شكل الأسد يحاول أن يلتهم بنت الملك . . ولكن هذه الأميرة التى لها قدرات العفريت وأكثر ، تنزع شعرة من رأسها فتكون الشعرة سيفًا ضربت به الأسد فانقسم نصفين . وانقلب أحد النصفين عقربًا ، فتحولت الأميرة إلى أفعى تطارد العقرب . . فانقلب العقرب صقرا ، فانقلبت الأميرة نسرًا ، ثم صار الصقر قطًا أسود ، فانقلب النسر ذئبًا . وانقلب القط الأسود وصار رمانة حمراء فى بحيرة ماء ، فاقترب منها الذئب فطارت فى الهواء

ووقعت على الأرض فانفرطت ، وانقلب الذئب ديكًا يلتقط حب الرمان . . وراح الديك يصرخ ويقفز فى كل مكان حتى وجد الحبة فانقض عليها فسقطت الحبة فى الماء ، فتحول الديك حوتًا وانقض عليها وغابا تحت الماء ، ثم تحولت الحبة عفريتًا كما كان ثم شعلة من النار التى تخرج من فمه ومن عينيه ومن أنفه . . وتحولت الأميرة هى الأخرى إلى نار . . ثم صار العفريت كومة تراب . . وتحولت الفتاة هى الأخرى إلى كومة تراب ! .

ففى هذه القصة كل صور الدمار والخراب وأشكال الموت . .

والنهاية الواحدة لهذه الحرب أنه ليس هناك غالب ولا مغلوب . .

والقرآن الكريم أكد لنا أن العلماء أعظم قوة من العفاريت . . كما جاء فى حكاية الملك سليمان و«بلقيس» ملكة سبأ . عندما طلب الملك سليمان من العفريت أن يأتى له بعرشها . قال تعالى :

﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ .

وقال تعالى : ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ . فصاحب العلم أقوى من العفريت . والعلم الحديث - والذى يزداد قوة - أصبح يتجاوز بقدراته كل خيال للإنسان فى كل العصور . .

ومؤلفو (ألف ليلة وليلة) لم يدركوا روعة هذه القصة التى ألفوها ، وإنما انشغلوا بتلفيق دلالة أخلاقية من الشعر لها ، فالشعر ركيك المعنى ، أما الحكاية فتحفة فلسفية . أما الأبيات التى حشروها حشرا فتقول :

تحيرت والرحمن لا شك فى أمرى
وحلت بى الأحزان من حيث لا أدرى

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى
وأصبر حتى يقضى الله من أمرى
سأصبر مغلوبًا بغير توجع
كما يصبر الظمآن فى الزمن الحر
وما أحسن الصبر الجميل مع التقى
وما قدر المولى على خلقه يجرى
سرائر سرى ترجمان سريرتى
إذا كان سر السر سرك فى سرى
ومن قال إن الدهر فيه حلاوة
فلابد من يوم أمر من المر

ولكن المأساة أكبر من هذا التلاعب بالألفاظ ومن مجرد الحزن على ما كان والخوف مما سيكون . .

فالعلم هو وحده الذى يجدد أشكال الألم والمرض ، وهو وحده الذى يجدد أشكال العلاج والصحة . . والعلم هو الذى يجدد أسلحة الدمار ، وهو وحده الذى يجدد أسلحة الوقاية منها . . والذى يبذر الأرض بالألغام ، والذى يجعل الألغام تزهر وتثمر سلامًا وحبًا بين الناس . .

ولو خرج رفاعة الطهطاوى اليوم من قبره وسار فى شوارع باريس مرة أخرى لبهره الذى يرى . . وربما بهره شىء آخر غير المرايا التى بهرته عندما كان طالبًا فى باريس وغير فساتين السيدات . . فقد كان الطهطاوى يمر على المقاهى ويندهش كيف أن صور المشاة فى الشارع قد انعكست على المرايا . . فبدت المقاهى واسعة كأنها ميادين ، وكان الطهطاوى يضع يده إلى جوار المرايا فيجد أن صورة يده ولونها لا يختلف عن شكلها ولونها الحقيقى . . وكان يقارن

بينها وبين مرايا مصر التى تجعل الإنسان مرة مقعرًا ومرة محدبًا ، وتجعل لونه أصفر وأخضر ! . .

فماذا لو رأى التليفزيون وسفن الفضاء وسطح القمر وأجواء المريخ والهالات الغازية حول كوكب المشترى الذى هو أكبر من الأرض ألف مرة . . ثم رأى الإنسان يهبط على القمر ويصعد منه ثم يعود سالماً إلى الأرض ؟

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع أدواته . . الإنسان قد وجد لكل مشكلة حلا ، كما أنه وجد لكل حل مشكلة . . وكل خطوة نخطوها لها ثمن من دمنا ومن راحتنا . . ولا يتردد الإنسان لحظة واحدة فى أن يفعل ذلك . وسوف يفعل دائمًا حتى لو لم يكن هناك أمل فى الذى يفعله . .

الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لنا ـ ما معناه ـ : حتى لو قامت القيامة يجب أن تزرع شجرة .

المهم أن تزرع الحياة فى وجه الدمار . أن تزرع الحياة فى وجه الموت . . أن تغرس الدنيا فى يوم القيامة . . أن تزرع فى أى أرض . . المهم ألا تتوقف عن العمل وعن الأمل وعن إضافة شىء إلى شىء آخر . .

والإغريق عباقرة العذاب حدثونا عن أسطورة الفتى «سيزيف» . . فقد كان محكومًا عليه بأن يدفع أمامه حجرًا إلى أعلى الجبل ، ويتدحرج الحجر إلى السفح فيعود سيزيف يدفعه من جديد . . وإلى الأبد . . وكان يفعل ذلك بمنتهى الهمة والحماس . . كأن لهذا العذاب نهاية . . والحقيقة أنه عذاب بلا نهاية . .

وإذا كان آلهة الإغريق يريدون أن يعذبوا «سيزيف» بالتعب المستمر والملل الأبدى واليأس المطلق ، فإنه يعمل كأنه لا يمل ،

وكأن هناك نهاية . . وبعدها يجىء الخلاص من هذا العذاب . .

ولكن «سيزيف» كان يغيظ الآلهة . فلا هو قد تعب كما أرادوا ، ولا هو قد مل كما شاءوا ، ولا هو قد أحس بالعبث والضياع واللا معنى الذى فرضوه عليه . . فقد كان يعمل ، كان لكل شىء معنى وقيمة وهدف ونهاية ! .

والفلاح المصرى كان يبنى الجسور التى يهدمها الفيضان ثم يعود يقيمها ليهدمها . . لقد فعل ذلك ألوف السنين . .

وأهل بيروت رغم قنابل الحرب الأهلية والمدافع التى حطمت واجهات محلاتهم الزجاجية كانوا يصلحونها ويجعلونها من زجاج أيضًا . . إنهم أحفاد «سيزيف» ؛ لأنهم لم يعرفوا القرف والملل واليأس الذى هو درجة من درجات الموت ! .

وكذلك الإنسانية لم يدفعها ما صنعت يداها من دمار إلى أن تقطع يديها وذراعيها وساقيها ولسانها وتنسف عقلها . . وإنما الإنسانية بكامل قواها العقلية تحطم قواها العقلية . . تمامًا كالذى يدخل الخمارة ، حضر بكامل قواه العقلية ليفقدها ، ويعود ليفقدها كل يوم وبمنتهى الوعى والحرص على ذلك . .

فالإنسان المخمور بالحرب والدمار هو نفسه الذى يحرص على أن يكون مخمورًا بالسلام والحب . . فإذا كان الإنسان حريصًا على الانطلاق لكى تتسع الدنيا أمامه وتحت قدميه وفوق رأسه وتحت جلده وفى خلاياه ، فإن هذا الإنسان سيظل دائما سجينًا فى جلده ، حبيسًا بقيود طبيعية ، وسوف يجلس دائما كالكانجرو على ذيله . . وذيل الإنسان هو تاريخه . .

هات أعظم العلماء وأعظم الأبطال وحاول أن تغرس فى جلده دبوسًا ، سوف يصرخ كأنه طفل . . مع أنه هو الذى استوعب الدنيا فى دماغه . . وهو الذى احتوى الكون . . ولكنه رغم هذه العظمة العقلية ، فإنه ضعيف صغير . . محدود الأمل والأجل . . محدود الطاقة . . والإنسان إذا ألقى طوبة بكل قوته فسوف تبعد عنه عشرات الأمتار . . ولكن بعلمه بعث بسفن الفضاء ملايين الأميال . . وعن طريق مراصده الفضائية وصل إلى ألوف ملايين السنين الضوئية . .

هذا هو الإنسان ، كان وسوف يبقى صغيرًا بجسمه ، جبارًا بخياله وقدراته . .

وليست الأدوات التى صنعها الإنسان إلا تطويرا عبقريًا لأطرافه هو ، لعينيه ويديه وساقيه وعقله وأذنيه . . فكل تطبيقات علوم التكنولوجيا ليست إلا أطرافا صناعية للإنسان . وتطويرا لا نهائيا لها .

ولا تزال حكاية المفكر الأمريكى «أمرسون» درسا وموعظة ورمزا لكل ذلك . . فقد كانت له مزرعة . وفى المزرعة حظيرة للأبقار ، وحاول أن يرغم عجلا صغيرا على أن يخرج من الحظيرة ، وعاونه أولاده ، ولم يستطيعوا . فطلبوا من خادمة لهم أن تحاول لعلها تفلح فى الذى عجز عنه المفكر الكبير وأولاده . واستطاعت . . فقد دخلت الحظيرة ووضعت أصابعها فى فم العجل الصغير . . فأحس كأنها أثداء أمه ، وخرج طائعا ذلولا ذليلا . .

ووقف «أمرسون» مبهورا ، ونظر إلى مكتبته قائلا : لم تفلح هذه الكتب فى أن تعلمنى كيف أخرج عجلا صغيرا من حظيرته . . إننى أعجب للذين يجدون حلا ! .

فالكتب هى العلم العظيم ، وعدم خروج العجل هو التحدى لقدرة الإنسان . فما أصغر الإنسان أمام العجل ، وما أروعه وأعظمه أمام الميكروب والذرة وتحويل المعادن بعضها إلى بعض . وتوليد وتخليق ما لا نهاية له من الأدوات والمعلومات والطموحات من أجل الحياة . . الحياة الأصح والأقوى والأوسع والأعمق والأشمل على هذا الكوكب أو على الكواكب الأخرى .

وإذا كنا فى خمسين عاما قد وصلنا إلى «بلوتو» ـ أبعد كواكب المجموعة الشمسية ـ فما الذى نفعله عند نهاية القرن القادم وعشرة آلاف قرن آخر ؟ .

ذلك ما لا يستطيع عقل أن يتخيله أو يستوعبه ! .

ورغم أن الإنسانية لم تعرف السلام إلا سنوات قليلة ، والحروب معظم الوقت ، فإن الإنسان مازال حيا يتقدم ويتطور ويبنى الأرض ويهدمها ويصعد إلى الكواكب الأخرى بكل عيوبه على الأرض وبكل صفاته العبقرية . .

والمؤرخ الأمريكى «ول ديورانت» قال لنا فى سنة ١٩٥٨ : إنه فى الـ ٣٤٢١ عاما التى مضت لم نعرف فيها السلام إلا ٢٦٨ عاما فقط !! .

ولكننا عرفنا السلام وتذوقنا الحياة وحرصنا عليها . . وطورناها ، وسوف نحرص على كل خطوة إلى الأمام .

وسوف نمضى مهما كان الثمن للسيطرة على ما حولنا من القوى الطبيعية . . لا السيطرة التامة ، ولكن بعض السيطرة التى تجعلنا قادرين على أن نتقدم ونتوقف ثم نقفز مرة أخرى ، وهكذا . . فما أبعد الزمن الذى اكتشف فيه الإنسان النار . وكان ذلك الاكتشاف انقلابا عظيما . . لأن الإنسان خلق النار والنور معـا . . خلق الطاقة وأطال الليل . . وتطورت أشكال النار

وحجمها وقدراتها الهائلة . وفى نفس الوقت تطورت أدوات وأجهزة التحكم فى النار والنور . .

وآخر أشكال النور هى التى اخترعها الروس العام الماضى حين وضعوا مرايا فى سفن فضاء تدور حول الأرض وعكست ضوء الشمس على مدن أوروبا فأضاءتها ، وكان ذلك حدثا جليلا مضى دون حفاوة من أحد . .

فالروس الذين لا يجدون ما يأكلونه الآن قفزوا بهذا الاختراع إلى السماء ، إنها العقول العبقرية رغم البطون الخاوية . .

وربما كانت المسافة بين أول نار ونور اخترعه الإنسان وبين هذه المرايا العاكسة من مدار حول الأرض أربعين ألف سنة . . أو حتى مائة ألف . . ولكن هذه المسافة الزمنية ليست إلا لحظة صغيرة فى تاريخ الإنسان على الأرض ، التى عمرها أربعة آلاف مليون سنة ، وفى الكون الذى عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان الذى ظهر متأخرا جدا على سطح الأرض ! .

ولا نهاية لما سوف يحلم به ويحققه الإنسان ! .

أنيس منصور

لولا أنه . .
حيوان جنسى

الإنسان حيوان اجتماعى . . وليس هو الحيوان الوحيد الاجتماعى ، وإنما هناك حيوانات كثيرة تعيش معا . . وتأكل معا وتصيد معا . . فالأسود تعيش على شكل عائلات صغيرة . . الأب والأم والأشبال . . الأم هى التى تقوم بالصيد وإطعام أسرتها الصغيرة . . والأب هو الذى يحمى الصغار عندما تغيب الأم ساعات أو أياما لكى تأتى بالفريسة . . والأسد أول من يأكل ، والأم آخر من تأكل .

وقد تكون الأم وحدها مع صغارها . . أما الأب فقد مات أو تقدمت به السن . وقد يحدث أن تتولى الأم تربية صغارها وصغار أم أخرى . . وقد يجىء عدد من الأمهات يربين الصغار معا .

وكذلك الذئاب . .

ولكن الانسان لم يتطور اجتماعيا بدرجة كافية . . فمنذ عرف الإنسان تكوين الأسرة من مليون سنة ـ أو أكثر ـ فإنه لايزال على صورة واحدة . . الأب والأم والصغار . . ويوم بدأت الأسرة كان الإنسان يمسك حجرا يلقى به على الحيوانات الأخرى . . وكان يمسك عصا يضرب بها الثمار فوق الأشجار لكى تسقط على الأرض . .

ولكن هذا الحجر الذى كان يمسكه قد تطور . . أصبح الحجر هو المسدس وهو البندقية وهو الصاروخ ذا الرءوس النووية . . لقد تطور سلاح الإنسان ولم يتطور الإنسان نفسه ، فالتكنولوجيا - وهى علم صناعة أدوات الإنسان - قد قدمت له ما لا نهاية من أدوات الأكل والشرب والملابس والانتقالات بين السماء والأرض وتحت الأرض وتحت الماء . وكان الإنسان يصرخ ينادى زملاءه . . ولم يعد الإنسان يصرخ أنه يهمس فى التليفون السلكى واللاسلكى .

فهل الإنسان اجتماعى أولا ، وإنسان بعد ذلك ؟ . أو هو إنسان أولا واجتماعى بعد ذلك ؟ إنه اجتماعى أولا . . ولولا أنه كان اجتماعيا ما كان انسانا . . فهذا الترابط بين الأب والأم والطفل . . ولولا هذه العلاقات التى قامت على التماسك ومواجهة الأعداء بين الحيوانات وبين الآخرين . . ما اكتسب هذه القدرة على البقاء ومواجهة الأخطار وابتكار أساليب الاتصال والترابط والتفاهم . . كاللغة أو تبادل المصالح أو التكيف مع الظروف أو مواجهتها أو التغلب عليها . . لولا هذا ما كان الإنسان إنسانا . . ولو عاش وحده لانقرض . . ولو رفض أن يكون أبا أو يكون زوجا - أى يحمى الزوجة والولد - وأن يكون له كهف . . بيت . . أرض مستقلة يدافع عنها ليعيش هو وتعيش ذريته ما كان قادرا على أن يظل إنسانا عاقلا ويزداد عقلا وقدرة على الفهم والإصرار على الحياة وابتكار أساليب الدفاع عن نفسه وعن الذى يملكه .

حتى عندما يثور الإنسان ضد الأسرة وضد القيم الاجتماعية فإنه يبنى أسرة من نوع آخر ويرتبط بعلاقات من نوع آخر . . ولكن يظل اجتماعيا . . فالشباب المعاصر الساخط الذى يرفض الأب والأم ماذا يفعل؟ أن يساعد بأن يكون أبا وأما من نوع آخر . .

فتكون له أسرة صغيرة . . تعيش على الرصيف أو على أطراف الغابات أو فى الاصطبلات كما يحدث فى أمريكا . . وقد يرفض قيود الزواج . . وتكون له حياة بلا وثيقة . . ولكنه يظل أبا ويظل زوجا . .

فحتى عندما يثور على الأسرة يختار لنفسه أسرة ، وحتى عندما يثور على البنوة والأبوة معا يكون أبا وله أبناء . . ولا يزال المجتمع أقوى من الأفراد . .

ولذلك فمن الصعب تغييره . .

ولكن من السهل تغيير الأدوات التى يعيش بها المجتمع . . فالسكين التى كانت مصنوعة من الحجر أصبحت صواريخ . .

وكان الأنسان يمشى على قدميه . . أو يركب حصانا . . وأصبح الحصان سيارة وطيارة وسفن فضاء . . وبقى الإنسان كما هو .

بل من العجب أن تجد أن أول إنسان نزل على سطح القمر قد علق فى رقبته (خرزة زرقاء) خوفا من الحسد . . وأعطته أمه (إيشارب) يضعه تحت البدلة الفضائية المكيفة الهواء والضغط حتى يعود إليها سالما . . أما هذا الإيشارب فقد ذهبت به أمه إلى عدد من الكنائس وباركت الإيشارب . . بينما هذا الرائد قد تسلطت عليه ألوف العقول الإلكترونية ترصد دقات قلبه . . وأية قطرة عرق على وجهه . . فكل العلم الحديث مسخر لحماية حياة هذا الإنسان ذهابا إلى القمر وعودة منه . . وقد تكلفت هذه الرحلة ألوف الملايين من الدولارات من أجل سلامته . . بل من أجل تراب جزمته . . تراب القمر . . ومع ذلك اعتقد هو وأمه أن الإيشارب هو الذى سوف ينقذ حياته من الموت .

فهو قد ركب أحدث ما اخترع العقل الانسانى ، ووضع فى رقبته أول ما عرف الإنسان . . من الإيمان بالخرافة . . والعلم

والخرافة فى سفينة واحدة . . والخرافة تدل على أن الإنسان نفسه لم يتطور ، وعلى أن أدوات الحياة والانتقال والاتصال هى التى تطورت وسوف تتطور إلى ما لا نهاية .

ونحن كيف ندير المجتمع . . وكيف نتحكم فى العلاقات الاجتماعية ؟ .

إن السياسة هى علم وفن إدارة العلاقات بين الناس .

وهناك إدارة مباشرة . . كما يحدث فى الريف . . إنها الديمقراطية البدائية . . يجىء العمدة ويجمع الناس ويتفاهم معهم . . ويناقش ويأخذ الرأى ويحكم .

وهذا ما يحدث فى المجتمعات الصغيرة . . ولكن المجتمعات الكبرى فى الدول لا يمكن للحاكم أن يجمع الملايين ويناقش ويستمع إلى الرأى والرأى الآخر . . وإنما لابد من أن ينيب الناس عنهم من يتحدث باسمهم فى البرلمان . . فالمئات ينوبون عن الملايين .

وهناك ديمقراطيات متعددة ومذاهب سياسية كثيرة . . ولكن هذه الديمقراطيات محدودة وكذلك فلسفات الحكم . . و الدساتير أيضا محدودة .

وهذا يدل على أن التطور الاجتماعى محدود الأفق ضيق الرقعة . . أما التطور العلمى فلا حدود له . إنه كل يوم يضيف جديدا . . فلا يزال الإنسان اليوم كما كان من ألوف السنين .

والعلم قد ساعد على قوة الإنسان وعلى وفرة الطعام والشراب والملابس والخدمات . ولكن لم يكن يتصور أن العلم سوف يجعل الإنسان متوحشا مدمرا . . فقد كنا نحلم بالحب والرحمة والعدل والصداقة والمودة والسلام .

ولكن أصبحت الحروب هى القاعدة والسلام هو الاستثناء .

وأصبح السلاح المميت فى كل بيت وفى كل سيارة . . وفى الليل والنهار ينطلق الرصاص على الأبرياء . . ولم يعد القتلة رجالا فقط ، وإنما الشبان والأطفال يقتلون أيضا ، بل إن الإنسان يرتضى الظلم ليشترى به الأمان والحياة . . فالناس يختارون من يحميهم مهما كان الثمن . . وقد رأينا فى أمريكا وفى مصر نماذج لذلك . . فرأينا فى مصر من يخيف الناس ثم يفرض عليهم نفسه لحمايتهم . . فهو الذى أخاف الناس وهو الذى روعهم ثم هو الذى فرض الحماية عليهم . . حدث ذلك فى مدينة إمبابة . . عندما قام أحد الإرهابيين وادعى لنفسه دورا دينيا وأخاف الناس بعيدا عن عيون الأمن . . وكتم أنفاسهم وفرض عليهم أن يدفعوا له فلوسا وإلا . .

وكثير من الجماعات الإرهابية التى اتخذت شعارا دينيا . . استولوا على عقول الشبان السذج القادمين من الريف . . وأعطوهم المال والمسكن والزوجة وفرضوا عليهم حكما طاغيا .

شىء عجيب ، فهؤلاء الشبان الصغار الذين رفضوا سيطرة الأب والأم والمدرس ، عندما جاءوا إلى القاهرة ارتضوا ما هو أكثر تسلطا من الأب والأم والمدرس . . رفضوا السلطة الأبوية وخضعوا للسلطة الإرهابية .

وحدث فى أمريكا أيضا أن ظهر نصابون أذكياء . . اعتمدوا على ضيق الشباب بسلطة الدولة والأسرة والمدرسة والكنيسة والمؤسسة وقدموا لهم نموذجا من الحياة بلا قيود . . نموذجا للحياة بلا فلوس . . قدموا لهم طعاما مسروقا وشجعوهم على السرقة . . وحتى لا يفكروا فى شىء قدموا لهم المخدرات دخانا ومسحوقا

وحقنا . . وغاب الشباب عن الوعى وعن الفهم . . ثم قدموا لهم جنات تجرى من تحتها الانهار . . لا فى مدن أمريكا ، ولكن فى غاباتها ، ولا فى غاباتها وإنما فى حاناتها . . وانتقلوا من أمريكا الشمالية إلى الجنوبية فى زوارق ودخلوا غابات «الأمازون» لا لكى يبنوا دنيا جديدة . . وإنما ليقيموا لأنفسهم قبورا تخفى انتحارهم الجماعى . .

ولكى يظهر طاغية سياسى ـ أو نصاب دينى ـ أى باسم الدين -أى دين- لا بد من نظرية . . هذه النظرية يؤمن بها كثيرون . . ثم يقفز هذا الطاغية لحماية النظرية والمؤمنين بها . . وحماية نفسه وتأكيد ذاته على جثث الآخرين .

فالشيوعية أفرزت لينين وستالين .

والفاشية قدمت موسولينى .

والنازية قدمت هتلر .

والنظرية التى تقول : إن المجتمع أقوى . . معناها أن المجتمع هو الذى يخلق تطور الإنسان أو يتحكم فى سرعة التطور . . وأن المجتمع هو القوة المحركة لكل ما هو إنسانى . . فهو سبب القوة وسبب المرض . . والإنسان يحاول أن يغير ظروفه ويتغير هو أيضا . . فالإنسان الذى اخترع السيارة قد رصف لها الشوارع ووضع لها علامات المرور وجعل لها الورش والمصانع .

ولكن هناك نظرية أخرى تقول : ليس المجتمع قادرا على كل شىء . . فالإنسان يولد فيكتب بيده اليسرى . . وليس السبب اجتماعيا ولا عائليا ولا تربويا ، وإنما هى مسألة خلقية ـ بكسر الخاء ـ أى أن هناك شيئا فى المخ هو الذى يجعل الإنسان يكتب باليمنى أو باليسرى .

والنظرية تقول أيضا : إن الشذوذ الجنسى ليس سببه التربية الممزقة أو العلاقات الشاذة فى الطفولة . . وإنما الإنسان يولد شاذا أو يولد سويا . . فالسبب موجود فى المخ وليس خارج الإنسان .

فالمجتمع ليس هو صانع الإنسان ، مزاياه وعيوبه .

والتعليم والتربية والثقافة ما فائدتها ؟ .

إنها تعطى الإنسان حرية الاختيار ، فالمتعلم هو الذى يختار والجاهل هو الذى لا يختار .

والمتعلم هو الذى يمارس إرادته الحرة فى الاختيار .

والطغيان معناه أن شخصا واحدا يختار لك ويختار للمجتمع أيضا . . فهو قد استولى على إرادة الجميع ، وبالنيابة عنهم ، وعلى الرغم منهم هو الذى يقرر وهو الذى يختار . . وعندما يفعل ذلك يكون قد ألغى التعليم وألغى التربية . فأصبح الناس جميعا وكأنهم جهلة مجانين لا يختارون . . أو أصبحوا الآن بلا عقل ولا إرادة .

ونحن لا نقول عن الأم التى تفرض على صغيرها كل شىء : إنها أم طاغية ؛ لأن الطاغية هو الذى تقوم إرادته بدور عصا موسى ، تأكل الأفاعى التى أطلقها الآخرون . . تلتهم حريات الآخرين . . ولكن الطفل لا إرادة له ولا حرية . . ولذلك تتولى الأم كل شىء لصالح الطفل . . وعندما ينمو الطفل تكبر شخصيته وإرادته . . . ويختار لنفسه . . ويؤكد ذاته فيرفض ما تختاره الأم والأب . . وتدفعه حرية الاختيار إلى المعارضة والرفض والعناد ، ويقف ضد الأب والأم ، لا لأنه على صواب والآباء على خطأ . . ولكن لأن الصواب عنده هو أن يختار وأن يتمسك بقراره حتى لو كان خاطئا فالصواب هو ما يراه ، والخطأ هو ما يراه الآخرون .

والإنسان بتكوينه متمرد . . رافض للقيود .

ولكن لابد من الانضباط واحترام القانون ولولا ذلك ما كانت حياة اجتماعية ، ولا كانت زراعة أو صناعة أو رخاء ، وكل الحضارات القديمة التى ازدهرت كان السبب هو الانضباط وهو الاحترام الذى يبلغ درجة التقديس لكل ما هو قانون ، وكان القانون هو الدين . .

حدث ذلك فى حضارة العراق وفى حضارة مصر الفرعونية . .

وهذا الحرص على النظام هو الذى حتم وجود رجال للأمن ، هؤلاء الرجال قد دربناهم على مواجهة مواطنيهم وضربهم وقتلهم ، لا عن عداء شخصى . . ولكن باسم حماية الدستور والقانون .

والإنسان إلى جانب أنه اجتماعى فهو حيوان جنسى أيضا ، ومن غير جنس لا تكون حياة ، فلابد أن تكون هناك علاقات جنسية ليتكاثر الإنسان . . بينما «الأميبا» ـ وهى أحادية الخلية ـ تتكاثر تلقائيا دون جنس . . وهى لا تموت وإنما تنقسم وتنقسم إلى ما لا نهاية . ولو قدر لهذه الخلية أن تفكر وأن تقارن بينها وبين الإنسان لظنت أنها أعظم من الإنسان لأنها خالدة ، والإنسان ولد ليموت . .

ولكى يتحقق الجنس لابد أن تكون هناك جاذبية جنسية ، أى لابد من (نداء) الجنس . . وفى عالم الحيوان أيضا نجد الذكر أكثر فخامة وأبهة : انظر إلى الأسد وإلى الديك . .

وهناك وسائل كثيرة لجذب الجنس ، بالألوان والعضلات وبالعطور وبالاستعراضات الراقصة أو الغنائية .

ولكى يصلح الإنسان من الأوضاع الاجتماعية فلابد من تعديل دور المرأة . . أى المساواة بينها وبين الرجل ، فلا تظل مقهورة ولا تكون عبدا فى خدمة (سى السيد) الرجل . .

ولذلك فكل المشروعات الإصلاحية تبدأ بالمرأة . . وتبدأ بتحقيق المساواة والعدل وتكافؤ الفرص .

ولكن ظل الرجل هو الأقوى عضليا وهو الأقوى عقليا . . إما لأن تكوين الرجل هو الذى جعله أقوى . . أو هى وظيفة الرجل فى الحياة وحماية الأسرة والعمل ، وربما كان الحمل والولادة والرضاعة كلها قد جعلت المرأة أضعف . .

ولأنه الأقوى كان الأكثر تفوقا وإبداعا وبقاء فى القمة .

ولكن العلم الحديث قد جرد الرجل من هذا السلطان فالعضلات لم تعد ميزة من مزاياه . . فالأجهزة الحديثة أصبحت تقوم بكل العمل . . وأصبحت فى خدمة المرأة فأعطتها القوة التى سلبها الرجل منها . .

وفى الأساطير الإغريقية نجد أن نوعا من النساء يطلق عليهن : «بنات الأمازون» . . أو «الأمازونيات» أى اللاتى ليست لهن أثداء . . والمرأة لكى تكون قوية وحتى لا تكون أما تحمل وترضع فقد قطعت ثدييها . . لتكون لها قوة الرجل ولكى تجرد نفسها من ضعف الأم الحامل والأم والوالدة والمرضعة .

ومن عشر سنوات تظاهرت النساء فى «نيويورك» يطالبن بالمساواة بالرجل فكشفن عن صدورهن . . والمعنى : إذا كان الرجل يرى أن المرأة ليست إلا صدرا ناهدا . . فهى لا تهتم بذلك . . وتكشف عنه ، فإذا كانت هذه هى نقطة ضعفها فهى فى غنى عنها . . ولا يهمها كثيرا إن كان ذلك يثير الرجل . . يثير رغبته أو يثير احتقاره . . إن الأثداء ليست من اختيارها وإنما هى مفروضة عليها وهى ترفض ذلك . . وفى نفس الوقت تعرضها مجانا لكل الناس . . فهى ـ أولا وقبل كل شىء ـ إنسان له حقوق الرجل . .

وليست إنسانا لمجرد متعة الرجل . . فقد وضعها الرجل فى هذا الإطار ألوف السنين ، لقد جعلها (شيئا) لذيذا . .

لمجرد أن لها نهدين بارزين .

والأمازونيات كائنات أسطورية لا وجود لها ، ولكن المعنى الذى قصده الإغريق هو الذى يهم . . إن المرأة كانت مشكلتها دائما أنها أضعف من الرجل ، وأن الرجل يريدها كذلك ، وهى ترفض هذا الذل والهوان .

والمرأة هى التى اخترعت الزراعة وهى التى أقامت البيت . . فعندما كان الرجل يصيد الوحوش فى الغابات كان الوقت متسعا أمام المرأة . . فهى التى سوت الأرض وزرعتها . . ولأنها الأم . . ولأنها تخاف على وليدها ، فهى التى أحاطت نفسها بالأحجار وفروع الشجر . . وكان ذلك أول بيت فى التاريخ . . وفى غفلة من المرأة صنع الرجل للباب ترباسا وقفلا وحبسها وراء الباب ألوف السنين . . فتأخرت ـ أو توقفت ـ وتقدم الرجل وانطلق إلى قمة كل علم وفن . . ولم يصل إلى القمة من النساء إلا القليلات .

سؤال : هل سبب تخلف المرأة أنها أنثى ؟ . . أنها أم تحمل وتلد وترضع ؟ هل هذا هو السبب ؟ هل لو وجدنا وسيلة أخرى لأن تحمل المرأة صناعيا دون حاجة إلى الرجل ، أو هل لو استطعنا أن نربى الأطفال فى الأنابيب دون حاجة إلى المرأة ، هل يؤدى ذلك إلى تقدم المرأة وتفوقها ؟ .

إن الرجل يرفض إلغاء دوره نهائيا . . يرفض أن يجرد نفسه من الإنسانية . من الحب والحنان والإعجاب . . والمرأة أيضا ترفض ألا تشعر بالأمومة . . وألا تشعر بالأنوثة . .

وإذا كانت علوم الهندسة الوراثية قد تمكنت عن طريق التعديل والتبديل فى تكوين الخلايا ، ونجحت فى تخليق نباتات وحيوانات جديدة ، فإن الإنسان يخاف من تخليق كائنات متوحشة . . أو يخلق سلوكيات لا إنسانية . . إن هذه المغامرات العلمية تجعل الإنسان يشعر بالعار والخزى والخجل من نفسه . . بالخوف على إنسانيته التاريخية .

لقد حاولت إسرائيل عن طريق بناء المستوطنات أن تجرد الأطفال الصغار من التعلق بالأم ، وذلك بأن يعتاد كل منهم على وجود أطفال آخرين بلا أمهات وأن يجد مربيات . . وأن تراه الأم مرة كل أسبوع . . وألا تحمل له هدايا حتى لا يمتاز عن غيره من الأطفال . . وحتى يتحرر الطفل تماما من الارتباط بالأم وتتحرر الأم تماما من الارتباط بابنها .

ولكن هذه التجربة فشلت . . فقد خلقت أطفالا فى غاية التعاسة . . وآباء أيضا ، فالذى يربط الطفل بأمه ، والأم بطفلها هو أعمق مشاعر الإنسانية . . هذه المشاعر العميقة هى التى أبقت على الأسرة نفسها . . أما تجفيف عواطف الطفل والأبوين ، فهو تجريد للإنسان من إنسانيته ومن أنبل وأروع مشاعره . .

وفى اليابان تجربة مريرة ، فهم فى اليابان يدفعون بالطفل الصغير إلى الرجولة المبكرة . . فهم بسرعة يحولونه إلى رجل صغير يعمل ، ولم تكن اليابان تعرف ـ إلا أخيرا ـ أن اختصار طفولة الطفل تضاعف حزنه وخشونته وتعاسته أيضا . . فاليابان التى تسعد أطفال العالم بما لا نهاية له من اللعب الإلكترونية ليس عندها أطفال يلعبون . . أو إنها الدولة التى تضم أتعس أطفال العالم . . ولذلك استدركت اليابان بسرعة هذه الغلطة

وأسعدت أطفالها حتى يكون نموهم طبيعيا من أطفال إلى شبان صغار إلى شبان إلى رجال ورجال ناضجين . . والذى لم يلعب صغيرا سوف يلعب كبيرا . .

ولا يزال العلم الحديث المتطور يلقى المسافات بين القارات وبين الكواكب ، وبين الرجل والمرأة أيضا . . ويلاحق الجميع بتعديلات جديدة مثلا : عندما أصبحت الكتابة على الآلة وعلى الكمبيوتر من احتكار المرأة ، كان لابد للمرأة أن تقص أظافرها ، ولكنها تحب أن تكون أظافرها طويلة فاخترعنا لها أظافر صناعية ورموشا صناعية وشعرا صناعيا حتى تقوم بعملها دون خوف على ملامح المرأة التى تعجب الرجل . . ومن المهم عندها أن يعجب بها الرجل ، وأن تعجب به هى أيضا . . وأن يكون من نتيجة الإعجاب المتبادل حب عميق يسفر عن طفل واثنين وثلاثة .

وهكذا يكون الحب شرط بناء الأسرة ، ويكون الاحترام المتبادل هو سور وأبواب ونوافذ الأسرة التى عمرها مئات الألوف من السنين ، لتعيش مئات الملايين ما دام الإنسان حيوانا جنسيا .

لا هم مجانين ولا نحن عقلاء

الإنسان يحاول دائما أن يتوافق مع الدنيا حوله . . مع الكون . . مع نفسه وغيره من الناس . . بين القديم والجديد . . بين الأمل واليأس . . الصحة والمرض . .

يحاول الإنسان أن يواجه العواصف والزلازل والمحيطات ، ويحاول أن يتوافق وأن يتغلب . . وأن يسيطر . أن يسيطر على البيئة وعلى الكواكب الأخرى . . وقد وصل الإنسان إلى القمر وإلى كواكب المجموعة الشمسية . هذه السفن تحمل رسائل إلى أية كائنات أخرى عاقلة تبلغها بعد ألوف السنين ، لعل أحدا أن يدرى بنا وأن يحدثنا وأن يساعدنا على معرفة الكون وحل مشاكلنا . . أى أننا نريد أن نستفيد من تجاربه هو . .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الذى اخترع العقول الإلكترونية ونقل إليها كل المعلومات والعمليات الحسابية المعقدة ، فإن العقل الإنسانى يعتمد تماما على هذه العقول . . فهو أسير لها مربوط بها . . مع أنه الذى أبدعها . . ولا يوجد مكان ليس به عقل إلكترونى . . ولا سفينة ولا مكوك ليس به عشرات العقول الإلكترونية . . وكل هذه العقول تعتمد على مئات العقول التى تتابعها وتوجهها من سطح الأرض .

وهذه الحيرة التى تصيب الإنسان سببها الصعوبات الجديدة فى مواجهة الدنيا . . والمجتمع والكون . . وهذا القلق وهذا الخوف من

الموت النووى قد أصاب الناس جميعا . . والشباب أكثر الناس إحساسا بالحاضر وقلقا على المستقبل . . كل الشباب فى كل الدنيا . . والعالم لأنه أصبح قريبا بعضه من بعض . . فالذى يحدث فى أمريكا يخيف الذين فى الصين ، والذين فى الصين يهزون الذين فى أوروبا . . وأوروبا تزعزع الشرق .

وقد عايشت الشباب طوال عمرى . .

فعندما كنت مدرسا فى الجامعة كان الطلبة فى مثل سنى . . وبعضهم كان أكبر . . بل تصادف أن من تلامذتى واحدا من أقاربى هو الذى علمنى حروف الهجاء وأنا طفل .

وعندما اشتغلت بالصحافة كنت شابا . . وعندما رأست تحرير مجلة (الجيل) كان المحررون صغارا فى مثل سنى . . فكانوا مادتى العلمية . . فمنهم وعنهم أكتب وإليهم أيضا . .

وكنت دائما وسط الشباب . . وما زلت ، فهم مداد قلمى وألوان فرشاتى . . وهم رؤيتى الفلسفية ، وهم عناصرى السياسية وجذورى الأدبية . . وعندما كنت رئيسا لتحرير (آخر ساعة) سنة ١٩٧٠ كان من بين المحررين تلامذتى فى الجامعة . . وكانوا شبابا أيضا . . وعندما أنشأت مجلة (أكتوبر) كان أكثر المحررين شبابا لم يعملوا بالصحافة من قبل . . فكانوا زهورا يانعة لامعة شبابا يريد ويحاول ويصر على أن يصل وأن ينجح . . ونجحت مجلة (أكتوبر) بحيوية شبابها وطموحهم . . وأحلامهم وعنادهم . .

وأصدرت عددا كبيرا من الكتب عن الشباب وإليه . .

ولحسن حظ مصر فإن أكثر من نصف أبنائنا من الشباب الكبار والصغار . . تصور أن بلدنا بها ثلاثون مليونا من الشباب . . أعظم ثروة بشرية . . أروع قوة دافعة .

والشباب من أهم صفاته : النزاهة والطموح . .

فهو على خلق . . ويريد أن ينجح . . أن تنجح بلاده . . وليس شباب مصر وحدها الذى يريد أن يفعل شيئا وأن يحقق الكثير وأن يلحق بالدول الأخرى . . وإنما هذه هى أحلام الشباب فى كل الدنيا . . ولأنه شباب فهو يتعجل . . ولأنه يتعجل فهو يغلط . . ولأنه يغلط فإنه يقع تحت ظلم الكبار . . فهم يرون أنه ما دام قد أخطأ فى الحساب ، فهو لا يعرف الصواب . . فالخطأ احتكار للشباب ، والصواب احتكار للكبار . وهذا ظلم . فالذى يعمل لابد أن يخطئ وأن يصيب . . وأن يتعلم من خطئه ، والتاريخ الإنسانى كله أخطاء للشعوب وهى تحاول أن تكون ثابتة الخطوات . . وإذا لم يقع الطفل وهو يحاول أن ينتقل من مرحلة الزحف على أربع إلى السير على ساقين ، فلن يتعلم المشى والجرى والرقص . لن تقوى عضلاته ، لن ينضج جهازه العصبى . . لن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة . . من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة . . وهذا حال الأطفال والرجال فى كل الدنيا ، سواء كانوا يعيشون فى مجتمع زراعى أو صناعى . . أو مجتمع زراعى يتحول إلى مجتمع صناعى . . فالطفل ينمو وفقا لبرنامج فى داخله ويتحرك وفقا لبرنامج فى خارجه . . ينمو من الداخل لكى يواجه النمو فى الخارج . . ويتوافق أو يتفوق عليه . . وهذا هو التاريخ الإنسانى كله . .

فمن أجل أى شىء يعيش الإنسان . . الإنسان الشاب والإنسان الرجل ؟ .

إن هناك أهدافا كثيرة تختلف من شخص إلى شخص . . وفقا لثقافته وتقاليد بلاده وقدرته وسيطرة دولته عليه . .

ولكن من الممكن أن تقول : إن هناك ثلاثة عوامل تتحكم فى حياة الإنسان . . أى إنسان . . هى : الحب والفهم والإبداع . .

ومن أجل هذه الأهداف أو بسببها يعمل الإنسان من مولده حتى مماته . . بهذا الترتيب أو أى ترتيب آخر . . ولكنها لا تنفصل بعضها عن بعض .

فكل شىء له قيمة يستحق من الإنسان أن يعيش من أجله وأن يضحى فى سبيله ، وتاريخ الإنسان طريق وهدف وتضحية من أجل الذى يقدس . . وتكون التضحية بأغلى ما عند الإنسان ، أو بحياة الإنسان نفسه . .

والحب هو الذى يجعل لحياة الإنسان قيمة . حتى حبه للحيوان والنبات . .

والحب يأتى بالحب أيضا . .

فأنت تحب فتاة وحبك لها يجعلها هى أيضا تحبك . . فالحب استثمار ، أنت تستثمره عندها . . ويكون لهذا الحب مردود . . حب آخر . . أو حب أكثر . . أو علاقة قوية تربط بينكما . . وقد يؤدى حبك للفتاة أو حبها لك ، أن تتولد عداوة لك . . أو حقد عليك . وهذا هو الذى يجعلك تتمسك وتصر وتضحى . .

والحب هو القوة الوحيدة التى تتغلب على أنانية الإنسان . . أى تتغلب على إنشغالك بنفسك والعمل من أجل كل ما يجعلك أكبر وأغنى وأقوى . . لأن الأنانى هو الذى امتلأ بنفسه حتى لم يعد فى نفسه مكان لشىء آخر . . أو لإنسان آخر . . لكن الحب هو القوة الوحيدة التى تفتح قلبك أكثر ، وعقلك أوسع ، وتفسح مكانا فى قلبك لإنسان آخر . . وتنظر إلى مستقبلك بأربع عيون . .

إن الحب قد حطم أنانيتك وهزم غرورك وانغلاقك على طموحك وعدائك للآخرين . .

والحب : رغبة . .

وهناك نوعان من الرغبات : رغبة أن تعطى للآخرين .

ورغبة أن تأخذ من الآخرين . .

أما أن تعطى للآخرين ، أو تبذل من أجلهم ، فهى أن تشعر أنك أسمى ، أنبل . . وأن العطاء واجب وأن تعطى بلا مقابل . . لأنك تعطى لواحد من الناس . . أو لكل الناس . . هذا هو الحب الحقيقى ؛ لأنه يجردك من أن تكون أنت وحدك مركز الدنيا . .

الحب الحقيقى هو الذى يدفعك إلى معانقة الآخرين والانشغال بهم . . وأن تجد فى ذلك سعادة غامرة . .

وأن تضحى أيضا من أجل الآخرين . .

وهذه هى الصفة الكبرى عند الأنبياء والمصلحين . . وأساس التضحية هو الارتباط بالآخرين . . لصالح الآخرين . . مهما كان العذاب بهم والشقاء معهم .

فالحب هكذا علاقة شاملة . . حب الناس جميعا . . حب الدنيا . . حب كل ما خلق الله . . حب الكون . . حب الله .

أما الرغبة الأخرى فهى أن يكون كل شىء من أجلى أنا . . وفى سبيلى أنا . . وفى مصلحتى وفى خدمتى . . فأنا أحب نفسى . . وأرى أن حب النفس هو أهم ألوان الحب . . وأن كل شىء يجب أن يكون مسخرا لمتعتى . وراحتى . . وأن الناس جميعا أدوات . . أدواتى . . كأنهم أصابعى . . كأنهم أسنانى . . أتناول بهم الأشياء . .

فهذا الحب يجعل من الإنسان أداة للإنسان . .

وهو أدنى درجات الحب . . بل إنه أقرب إلى الكراهية . . كراهية الناس إلا إذا كانوا فى خدمتى . . فى مصلحتى . . إلا إذا كانوا متعتى . .

وهذه الرغبة تجعل كل شىء طعاما وشرابا أتناوله . . فإذا أحب الواحد منا فتاة ، هذه الفتاة (شىء) . . أداة . . وسيلة وليست بشرا مثله . . فإنه يقدرها كشىء جميل . . تمثال . . لوحة . . ولكن ليست بشرا ! .

وهناك جنس بين المحبين . . وهذا طبيعى ، ولكن هناك فارقا كبيرا جدا بين أن يكون جنسى فقط . . وأن يكون حب يكمله الجنس . . أو حب الجنس ؛ لأنه حب للشخص الآخر .

وهناك حب بلا جنس أيضا . . كحب جمال الطبيعة والأعمال الفنية من شعر وموسيقى . . وحب لجمال الكون . .

ولكن الحب المتبادل بين رجل وامرأة يلهم الإنسان القوة والشجاعة والتضحية والتقدم والبناء والإبداع .

بل إن الإنسان من الممكن أن يعمل ويعيش ويموت من أجل أناس لا وجود لهم . . كالذى يعمل من أجل أن يكون أطفال المستقبل سعداء . . إنه يكد ويدرس ويتعب من أجل أناس لا وجود لهم ولا يعرفهم ، ولكنه يعمل ويجىء عمله كأنه يراهم . .

وهذا النوع من الحب هو : فائض الحب . . أى إنه حب كثير . . أكثر من احتياجه . . فهو أحب ثم فاض الحب من أعماقه فشمل الآخرين الذين لا نهاية لعددهم .

ومن الممكن أن يحب الإنسان شخصا ليس موجودا . . كان يحب أحد العلماء القدامى ، أو الشعراء . . أو رجال الدين . . أو الخلفاء أو القديسين . . فقد رأينا عددا كبيرا من الباحثين يفنون أعمارهم بحثا

ودراسة لشخصيات ماتت منذ مئات السنين . . لقد أضاع هؤلاء الباحثون أعمارهم وأفنوها حبا لأناس لا وجود لهم . . ووجد هؤلاء الباحثون أنهم حققوا دواءهم بهذا الحب . . وأن حبهم قد تحقق بالبحث عن حياة وأفكار أناس عشقوهم . . كأنهم لا يزالون أحياء . .

فما أكثر القصائد واللوحات الفنية التى بقيت لنا بسبب أن رجالا أحبوا وماتت المحبوبة . . إنها ماتت لكل الناس ، ولكنها لم تمت للمحب العاشق . . فكتبوا وبكوا ونظموا ورسموا دموعا بالألوان والنغمات . . وماتت المحبوبة ، وعاش حب العاشق الفنان . .

الشاعر العظيم الإيطالى «دانتى» أحب اثنتين : الفتاة «بياترينشه» وأحب مدينة «فلورنسه» التى طردوه منها . . ومن أجل «بياترينشه» وفى سبيلها كتب الشاعر (الكوميديا المقدسة) وجعل الفتاة «بياترينشه» هى التى تقوده من النار إلى الجنة . .

وعندما كان يبعث بخطاباته إلى أصدقائه كان يوقع خطاباته بهذه العبارة ، دانتى ابن مدينة فلورنسه . .

وما قاله قيس ليلى فى ليلى وكذلك جميل وبثينة والشاعر كثير وعزة . .

وما قاله الشاعر الألمانى «نوفلتس» فى محبوبته «صوفيا» . .

وما قاله الشاعر الألمانى «ريلكه» ومحبوبته «نعمت علوى» . .

وما قاله الفيلسوف الدانمركى «كيركجور» فى محبوبته «رجينا» .

وما قاله الفيلسوف الألمانى «نيتشه» وعالم النفس «فرويد» والشاعر «ريلكه» عندما احب الثلاثة واحدة هى : «سالومى» .

وماذا قال «العقاد» فى «سارة» .

و«مصطفى صادق الرافعى» فى «مى» . .

و«محمود حسن اسماعيل» فى «نانا» . .

إنهم الأنبياء والقديسون هم الذين يحبون الناس ويعتزلون الحياة ويتألمون ويتعذبون من أجل الجميع . . كذلك فعل بوذا وفعل المسيح عليه السلام . .

ومن أروع الصور الإنسانية للحب الشامل لكل ما خلق الله حب القديس الإيطالى «فرانشيسكو» ابن مدينة «أسيزى» . . إنه أحب الحيوان ورسمه على جدران الكنيسة . . ودخلت الطيور والحيوانات الكنيسة أيضا . . لأنها مخلوقات الله . . وأحب الشمس والقمر والهواء والماء ؛ لأنه يشعر بأخوة نحوها . . ومعها . . يشعر بأنه عضو فى أسرة لا نهائية . والقديس «فرانشيسكو» من أعظم وأروع مخلوقات الله .

والفيلسوف الصوفى «محيى الدين بن عربى» يتحدث عن (وحدة الوجود) . . أن الوجود واحد . . أن الله فى كل شىء . . وأن كل شىء هو مظهر من مظاهر الله . . فالكون بكل ما فيه هو صورة الله ، وقد رأيناها ولمسناها . .

ولكن فلسفة ابن عربى لا تجعل للإنسان دورا عظيما هاما . . وإنما هو كالأحجار والأنهار والأزهار لا فرق . . فكلها تفيض من الله لتكون بهذه الأشكال والألوان . . ولكن القديس «فرانشيسكو» يرى أن الإنسان هو كل الكون . . فالكون عيناه ويداه وقلبه وعقله . . فالإنسان عن طريق الحب قد اتسع قلبه لكل الكون . . فهو الذى يحب وهو الذى يذوب . . وهو الذى باختياره لا يكون شيئا ؛ لأنه قد ذاب فى المحبوب . . والكون كله هو المحبوب . .

ومن الممكن أن انشغل كثيرا جدا بهذا القديس . . أى : أفنى عمرى فى عمره . . مع أنه مات من ٧٥٠ عاما . . فهذا الحب منزه عن الغرض . . وهو فائض حبى . . أى ما فاض من حبى عن

احتياجى . . بل إن هذا الحب من الممكن أن يطغى على كل حب فى حياتى . . فتصبح الحياة كلها من أجل شخص لا وجود له . . ولكنى أنا الذى أحببته فى حياتى . . فكان حياتى ! .

* * *

ومن أمنياتى ـ فليساعدنى الله عليها ـ أن أؤلف كتابا عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكننى فى حالة من الخوف والفزع . . فالشخص عظيم جدا . . والإحاطة به صعبة جدا . . وما أكثر الذين كتبوا وأبدعوا . . ولكننى مصمم . والرغبة قوية جدا وأنا أحاول أن أوضح ما أحسست به وما فهمته . . ولن يكون أحسن من كل ما كتبه الآخرون . . ولكنه سوف يكون أحسن وأعمق ما درست وأصدق ما عايشت ، وأحب من عرفت . . فقد هزلنى حياته . . وهزتنى صفاته . . والله يعلم كم أرتعد وارتجف كلما أقترب من مسجده ومن قبره . . ومن مجرد الحديث عنه . . وتخيلى جاثيا أحيط به أو أحاول أن ألمس شخصه الكريم ، وأن أحاول .

وقد سألت الأستاذ العقاد مرة : هل حدث له ذلك ؟ .

فكان جوابه : إننى جربت قدرتى العقلية فألفت كتابا عن الله . وعرفت قدراتى الفلسفية . . وبعد ذلك كان من السهل أن أؤلف كتابا عن (عبقرية محمد) أى عبقريته كإنسان . . وعن غيره من العباقرة ، وعن (عبقرية المسيح) الإنسان أيضا .

فقلت له ـ ولم يكن قد خطر على بالى أن أؤلف كتابا عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد كنت مشغولا بنفسى وبالفلسفة الوجودية التى كنت أدعو إليها ـ : إذن لا بد أن يؤلف الإنسان عن الله أولا . . وبعد ذلك عن الرسول . . وهل ترى أن الكتابة عن الله أسهل من الكتابة عن الرسول ؟ .

فأجاب العقاد بسرعة : نعم ، فأنت عندما تكتب عن الله تكتب عن الخلق والخلود ، وأمامك الكون من أوله لآخره . . فأنت ترسم شكلا هندسيا . . ولكن عندما تكتب عن الرسول فأنت تصنع تمثالا لإنسان . . ولكنه إنسان رفيع المستوى . . فالجوانب التى ستتحدث عنها فى شخصية الرسول متعددة . . والذى قاله والذى قيل عنه كثير جدا . . فأنت ترسم الهرم بقلم رصاص ويكون رفيعا جدا . . ولكن لا تستطيع أن تصنع تمثالا للملك خوفو بقلم رصاص .

فقلت : لم أفهم يا أستاذ .

فأجاب : إن كان الله فكرا هندسيا . . فالكون تحكمه قوانين صارمة ، والله وراء كل ذلك ، اليوم والأمس وغدا . . ولكن عندما تتحدث عن الرسول . . فأنت أمام شخص كان طفلا وكان شابا وكان رجلا . . زوجا وأبا ورسولا وقائدا ومشرعا ، وكان هدفا لأعدائه . . وهاجر من بلده إلى بلد آخر . . وعاد وكل ما فعله وما قاله هو تشريع للآخرين . . ففى حياته وبعد حياته الكثير جدا من الفوارق اللونية الهادئة والصارمة . . وكل ذلك مادة لا أول لها ولا آخر . . وهى دراسة صعبة . . ولكن تستأهل ما تبذله فيها من جهد . .

ولم أستوعب بعض الذى قاله العقاد ، ولكن بعد ذلك بعشرات السنين بدأت أستوعب وأفكر وأقلق وأخاف وأرهب وأتهيب . . وأتهرب أيضا .

ونحن فى الشرق أكثر إحساسا بالحب الصافى ، أو فائض الحب بين الناس ، من إحساس الغرب بذلك . . ففى الشرق شعوب لا تقتل الحيوان . . أى حيوان حتى لو كان ضارا . . فى

الهند لا يقتلون الأفاعى ولا الفئران ولا النمل . . بل إن بعض الديانات الهندية تدعو إلى وضع السكر للنمل فى أركان البيت . . بل إنهم يضعون الكمامات على أنوفهم وأفواههم حتى لا يؤدى التنفس إلى قتل الميكروبات . .

* * *

ولأن حب الاستطلاع عند الإنسان غريزة ـ وهذا هو الهدف الثانى ـ فهو يريد أن يعرف وأن يحلل وأن ينظر . . أى : يضع نظرية لما لاحظ وفكر .

فالعلم هو أداة فى يد الإنسان يغير به ما حوله ويطوره . .

فالعلم قال لنا : إن الشمس هى مصدر النور والنار . . ولذلك يجب أن يتقيها الإنسان بالهروب إلى الكهف . . ثم بناء البيت . . ثم بصناعة التهوية . . وعندما تغيب الشمس يكون ظلام ، فاخترع الإنسان المصباح المضىء لكى يصبح النهار أطول . .

ولما كانت الأرض واسعة ووعرة ، والمساحات بعيدة اخترع الإنسان وسائل المواصلات برا وبحرا وجوا . . والاتصالات السلكية واللاسلكية . .

وبدلا من أن يعيش الإنسان على الحيوانات والنباتات . . عاش على بعض الحيوانات وبعض النباتات ، وراح يصنع الطعام أشكالا وألوانا .

فهذا هو الإبداع ـ وهو الهدف الثالث ـ أى : إنه من أشياء موجودة صنع لنفسه أشياء لم تكن موجودة ، أى : من المواد الموجودة حوله صنع أشكالا وأحجاما وألوانا من أدوات الحياة . . أما المادة كلها فموجودة ، وأما الشكل فهو الذى لم

يكن موجودا . . ومن أجل أن تكون هناك طائرة . . كان لا بد أن يبدع مالا نهاية له من المعادن والزجاج والجلد والخشب والأسلاك والعقول الإلكترونية .

والعقل هو سيد حياة الإنسان . . ولا بد أن يكون العقل يقظا لتكون عندنا قدرة على الاختيار . . اختيار النافع وترك الضار . . اختيار الجميل وترك القبيح . . اختيار السهل وترك الوعر . .

ومهما كان العقل مسيطرا ، فليست كل سلوكيات الإنسان عاقلة ، أو اللاشعور هو الذى يجعلنا أقرب إلى الحيوان . .

والإنسان فى حالة صراع دائم بين شعوره ولا شعوره . . بين عقله وغرائزه . . بين المنطق والأهواء .

والأكبر سنا وثقافة وتجربة أكثر قدرة على التحكم فى غرائزهم . .

فالحضارة الإنسانية هى عبارة عن وضع (فرامل) على كل هذه القوة اللاشعورية . . فالطفل الصغير يضع كل شىء فى فمه . . ونحن نتركه أول الأمر . . وبعد ذلك نحذره ونعلمه خوفا عليه . . فهو لا يعرف إلا الطعام ، وإلا الرضاعة . . وإلا البكاء وإلا التبول لا شعوريا . . ونظل نضع له الضوابط على سلوكياته . . حتى ينتقل من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية . .

والإنسان هو صاحب أطول طفولة بين كل الحيوانات . . وفى عالم الحيوان نجد الصغير لا يكاد يولد حتى يقف على رجليه . . ويبدأ فى الجرى . . وفى الرضاعة . . بينما الإنسان يعتمد طويلا على والديه . .

ولا يزال الشباب أكثر إحساسا وحساسية بكل هذه الفوارق والتناقضات فى حياتنا . . وأكثر تعرضا للصراع . . وأكثر استجابة

لها . . ولذلك كانت ردود الفعل سريعة . . والقبول والرفض سريعا . . والوقوف مع أو ضد أى شىء أو رأى أو نظرية سريعا . .

ولذلك كانت الفوارق بين الأجيال أكثر حدة وشدة . .

وهذا يغرينا من أن نقترب وأن نفهم وأن نتفاهم وأن نحاور ونعلم ونستمع فى نفس الوقت . . وألا نعرف الملل ، فمستقبل بلادنا وأبنائها يستأهل الكثير من الصبر والعناء والتضحية والتسديد والتصويب وتعديل المسار . .

شىء واحد يهون علينا كل شىء : الحب . . حب الحياة . . حب السلام بين الأجيال . . حب الرخاء والرفاهية للأجيال القادمة التى لا نعرفها ولم نرها . . ولكن هذا هو الهدف الأسمى من أجل الانسجام الاجتماعى والتوافق النفسى والأبهة المطبقة . . وكلها شروط الانطلاق إلى المستقبل .

وليس بين شبابنا عموما ما يجعلنا نشعر لحظة واحدة ، أنهم شواذ أخلاقيا وعقليا . . فكل ما عندنا موجود فى كل المجتمعات الأخرى فى العالم الأول والثانى والثالث . . والرابع ـ إن كان موجودا ـ . .

فلا الشبان مرضى دائما .

ولا نحن العقلاء أبدا . .

وإنما نحن الكبار كنا شبابا ونسينا ، وهؤلاء الشبان سوف يكونون شيوخا وسخرية لشباب آخر . . وهم ينسون أيضا ! .

كيف تلقى طه ..
وأنت لاتعرفه ؟!

سألت توفيق الحكيم : ما هو الفرق بين إسماعيل ابنك وبينك؟ فأجاب الحكيم : إسماعيل ابنى عاش فى زمن غير زمنى . . لا هو أحسن ولا أنا أسوأ . . نحن مختلفان . . عندما كانوا يسألون الواحد منا : ما هو الشىء أو الحيوان الذى إذا عبر البحر فإنه لايبتل ؟ . . كان جيلى يجيب : إنه العجل فى بطن أمه . . ولكن جيل إسماعيل ابنى يقول : إنها الطائرة ! .

والإجابتان صحيحتان . . فلا راكب الطائرة ولا الطائرة تبتل إذا عبرت المحيط . . وكذلك العجل فى بطن أمه لايبتل إذا أمه خاضت إحدى الترع أو أحد المصارف . .

ولا الحوت فى بطن أمه وهو يعبر به المحيطات . .

المعنى واحد . . ولكن الأسلوب مختلف . . والاختلاف جاء من تطور الصورة أمام الانسان . .

وقد حدث أن عقد لنا طه حسين اجتماعا فى مؤسسة «فرانكلين» عندما قرر طه حسين أن يصدر كتابا عن الأدب الأمريكى ، فكان من نصيبى أن أكتب الفصل الخاص بالمسرح الأمريكى . . وأن يوزع بقية الفصول على أدباء ومفكرين آخرين .

فقد قرر طه حسين أن يترجم مسرحيات «شكسبير» إلى اللغة العربية الحديثة . ووزع علينا المسرحيات . . وكان من نصيبى مسرحية «روميو وجولييت» وكان من نصيب ابنه د . مؤنس طه حسين أن يترجم مسرحية «هاملت» . . ولم يجرؤ أحد أن يسأل طه حسين إن كانت لغة ابنه مؤنس تساعده على الترجمة إلى العربية . . وأدرك طه حسين أن أحدا يريد أن يسأله عن ذلك . . وكان لابد أن يجيب . . فقال طه حسين : مؤنس ابنى لن تكون لغته مثل لغة خليل مطران ولا لغة أنيس منصور . . ولكن حساسيته الشديدة للغة الفرنسية والمسرح وحركات الأدب العالمى فى فرنسا تؤهله لأن يساعد من يتصدى للترجمة الحديثة لهذا الأدب القديم . . وأنا أرى فى مؤنس ما يراه الحكيم فى ولده إسماعيل . . أننا مختلفان متعايشان وأنا أقرب إلى الماضى فى لغته ، وهو أقرب إلى الحاضر فى فكره . . فأنا أستطيع ما لايستطيع ، وهو يقدر على ما لا أقدر عليه . . ولكننا نعيش معا تحت سقف واحد وفى زمن واحد ، ونتعايش مختلفين لا متعارضين ونتقاسم كل شىء دون استخدام السيف أو السكين . .

بالضبط ما قاله طه حسين هو ما يحدث فى كل جيل . . أو بين جيل وجيل . .

هناك فجوة . . مسافة . . ولكنها ليست هوة نزاع ولا هاوية صراع . . ويحدث دائما أن ينسى الآباء أنهم كانوا صغارا . . وينسى الصغار أنهم سوف يكونون كبارا يستنكرهم أبناؤهم . .

مثل موج البحر . . هذه الموجة تطغى وتكتسح الأمواج الصغيرة التى سبقتها إلى الشاطىء ، وفى نفس الوقت تطاردها موجة أكبر ،

وهكذا إلى ما لا نهاية . . وهذا هو الزمن . . هو التاريخ . . موجات بعد موجات . . تضرب الشاطئ ولاتزحزحه . . فلا الشاطئ تحرك ، ولا الموج سكن . .

وكان الملك سليمان ـ عليه السلام ـ يندهش . . كيف أن الأنهار تصب فى البحار . . لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . .؟ وكان يعجب لذلك . . فلم يكن قد عرف أن هناك قانونا لتبخر المياه . . الشمس تبخر مياه البحر ، والبخار يتحول إلى سحاب يسقط مطرا . . والمطر يملأ الأنهار التى تتجه إلى البحار . . وهى دائرة لها أول وآخر . . ولكن هذه الحركة الدائرية لاتنتهى . .

وإن كان هناك خلاف بين الأجيال . . فلأن كل جيل يرى أنه على صواب . . ومادام هو على صواب ، فهو وحده . . أما الجيل الآخير فهو خاطئ . . الصغار يقولون : إن الكبار خاطئون . . وإنهم لايفهمون . . والكبار يرون أن الصغار لم يدركوا ولم يفهموا بعد . .

وبدلا من أن يقول الصغار : إن تجاربهم أقل ومعارفهم لاترقى إلى مستوى اليقين العلمى ، فهم يفسرون ذلك بشىء آخر . . وهو أن الكبار يكرهون الصغار . . ويحقدون على شبابهم وعلى أن المستقبل لهم . . أما الكبار فقد راحت عليهم . . وهم حريصون على ذلك ولايطيقون أن يروا الذين لهم مستقبل . . الذين هم قادمون . . بينما هم ذاهبون . .

ولذلك يصبح التفاهم صعبا بين جيلين . . أى جيلين . . أى أب وابن وأية أم وابنة . . فى كل بيت وفى كل زمن . . وقصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده هى قصة الأجيال الأزلية الأبدية . . الخلاف بين نوح وبين ابنه . . الأب يطلب منه أن يركب السفينة معه . .

لأن نوح قد علم من الله لماذا صنع السفينة . . وأنها لنجاة نوح وأولاده . . ولأن الله يريد خلقا جديدا . . وأن نوح هو «آدم الثانى» . . أى : أبو البشرية الجديدة . . ولكن ابن نوح لايعلم . . وإنما هو مخالف لوالده . . عنيد ولايصدقه . . لأن الأب ـ أى الجيل القديم ـ يكره الجيل الجديد . . فسوء الظن والشك والغرور دفع الابن إلى أن يلقى بنفسه فى الماء ، وأن يسبح إلى جبل يحميه من الطوفان . . ولم يصدق والده عندما قال له : إنه لاتوجد جبال . . ولن يعصمه شىء من الغرق إلا سفينة نوح . . ولكن الابن فضل أن يموت غرقا باختياره على أن يعيش بفضل والده . . على أن يعيش ويمتن لوالده على ذلك . . فغرق ابن نوح . . ويغرق كل يوم ألوف الأبناء ؛ لأنهم لايريدون اعتمادا على آبائهم ، ولا يريدون الامتنان لهم أيضًا . .

حتى الذين لاينفصلون عن آبائهم ويعيشون على أموال آبائهم وفى بيوت آبائهم ، يؤكدون لأنفسهم : أنه رغم اعتمادهم ماديا على آبائهم ، فإن لهم أفكارا مستقلة . . ولهم حرية رأى . .

أى إنه يجلس على حجر والديه وفى نفس الوقت يقول : وإيه يعنى؟! فمن الواجب على والدى أن يقدم لى الطعام والشراب والمسكن . . وإلا ما معنى أن أتى بى إلى هذه الدنيا . . هل يكون سببا فى وجودى ثم يلقى بى فى الشارع . . إننى لم أطلب إلى أبى وأمى أن يأتيا بى إلى هذه الحياة . . ثم إنه ليس معنى ذلك أن يشترينى بفلوسه . . وأن يحكم ويتحكم . . فأنا حر . . وفى نفس الوقت فإننى على خلاف مع أبى وأمى . . لسبب لا دخل لى فيه . . فالأم لاتريد أن تكف عن (الأمومة) . . والأب لايريد أن

ينهى دوره كأب . . ولذلك فهما يتدخلان فى حياتى . . ويوصيان ما لا أحب ولا أطيق . . وأنا لا أحب ذلك .

ومعنى ذلك أن الأبناء يرون أن الأب والأم مرغمان على أن يقدما كل شىء . . بشرط ألا يتدخلا فى حياة الابن . . يعنى : يقدمان له الفلوس ويجب ألا يسألاه : أين ينفق هذه الأموال؟ . . فهذا تدخل . . وهذا التدخل اعتداء على الحرية . . ومعناه أن الطعام والشراب والمسكن والفلوس ليست إلا رشوة يقدمها الأب والأم لكى يتحكما فى الابن . . ولكى يسكت . .

والأب والأم يقولان : إن الأبناء يبتزونهم . . فالأبناء يستغلون ضعف الأب والأم وحبهما للأولاد أسوأ استغلال ، ويرون فى هذا الحب ضعفا ، وإذا أراد الأب والأم أن يمارسا الحب والعطف وأن يقبل الأبناء ذلك ، فليدفعوا الثمن . .

كان الشاعر كامل الشناوى يقول :

اشـــتـــرى الحب بالعـــذاب

اشـــتـــريه فـــمـن يبـــيع ؟!

فالآباء والأمهات على استعداد دائم أن يشتروا الحب بالعذاب ، وبالطعام والشراب والمسكن والاستسلام لعناد الأبناء . .

ثم يستغل الأبناء الخلاف بين الأب والأم . .

والمثل يقول : إن الأم تعشش والأب يطفش . .

أى أن الأم تحتضن الأطفال مهما فعلوا لكى يبقوا فى البيت أو فى حضانة الأم . . أما الأب فلا صبر له وليس ضعيفا كالأم . . إنه قوى باطش . . ولذلك فالأبناء يهربون منه . . والأم هى التى تجمعهم . .

ولكن هذا الرأى ليس صحيحا . . ربما كان الأب متطقيا ويريد أن يربى أولاده بشدة وصلابة . . ولكن الأم لأنها رقيقة القلب ، ولأنها لاتقوى على غياب الأبناء أو هربهم أو على مجرد زعلهم ، فإن الذى يرفضه الآباء علنا ، تنفذه الأم سرا . . فالأب إذا أعطى قرشا علنا ، فإن الأم تعطى قرشين سرا . . وهكذا تبدو الأم أرحم ، بينما يبدو الأب أعنف . .

ويختلف الأب والأم على تربية الأولاد . . وعلى المبادئ التى يجب التمسك بها . .

وتوفيق الحكيم له حكاية . . فقد طلب منه ابنه إسماعيل أن يشترى له جيتارا بدلا من الذى تحطم . . وكان ثمن الجيتار فى ذلك الوقت خمسة آلاف جنيه . . دفعها توفيق الحكيم ، وكانت له شروط ، وهو أن يدفعها إسماعيل على شهور ، كل شهر مائتى جنيه . . واشترط الحكيم أن يأخذ على ابنه كمبيالات . . إذا دفع المبلغ أعطاه الكمبيالة . وكان يجلس فى مقعد عند أول كل شهر أمام غرفة إسماعيل . . ولايذهب الحكيم إلى مكتبه ، إلا إذا دفع إسماعيل المبلغ وتسلم الكمبيالة . . كل شهر . وفى يوم سألت الحكيم فقال : إن إسماعيل يدفع بانتظام ، ولابد أن يفعل ذلك . . أن يعتمد على نفسه . . ويأخذ ويعطى . . ولم يحدث أن تهرب من ذلك .

وكان الحكيم سعيدا بهذا الانضباط والحق والواجب . . وكان يروى ذلك على أن هذه هى التربية وإلا فلا . .

وسألت إسماعيل فقال ضاحكا : إن والدى ينتظرنى حتى أدفع . . ولكن لو نظر والدى إلى الفلوس التى أعيدها إليه بشىء

من العناية لوجد أن هذه الفلوس هى هى لم تتغير من شهور . . فأنا أعطى الفلوس لأبى ، وهو يعطيها لأمى ، وأمى تضعها فى جيبى . . إنه نفس المبلغ . . هاها . . هاها .

ومات إسماعيل ـ يرحمه الله ـ . .

وفى جنازته سألت الحكيم : كيف حالك ؟ .

ـ حالى . . إن الواحد أصيب بعاهة لا علاج لها ، وسوف أعيش بها !! .

ولكن توفيق الحكيم أراد أن يرسى قواعد الواجب والحق . . الابن له حقوق وعليه واجبات . . ولكن المسافات بين ضعف الأم وقوة الأب ينفذ منها الأبناء ويوسعونها حتى تكون فجوة . . وجفوة . . وقد يؤدى كل ذلك إلى طلاق . . إلى انهيار الأسرة فوق رءوس الأبناء . . وتتفرق بهم الطرق إلى الحاضر والمستقبل . .

وإذا كانت الأم لاتعمل فهى وحدها التى تنفرد بالأولاد وتأمر وتنهى : فهى المدرس والطبيب ورجل الدين ، وهؤلاء الثلاثة ليست لهم شعبية عند الأطفال صغارا وكبارا . . فهؤلاء الثلاثة تقوم الأم بوظيفتهم ليلا ونهارا . . وهكذا تصبح الأم مكروهة . . عند كل الأطفال . .

أما الأب الذى يعمل . . فهو يجىء إلى البيت بعد العمل ، وكلها ساعة أو ساعتين يأكل فيهما ويشرب ويتحدث إلى أولاده خفيفا لطيفا . . لا يأمر ولاينهى ولايعاقب . . فيحب الأبناء الأب ولايحبون الأم . . لأن الأب ليس عنده وقت . . والأم لاتتوقف عن النصائح والتحذير والوعيد . . فهم يرون فى الأم كل السلطات التى تمسك العصا . . بينما الأب هو رسول السلام والرحمة ، يعطى ولايعاقب ولا يهدد ولايحذر ولاينذر . .

حتى جاء دور المرأة فعملت . . فأصبحت هى والأب بعيدين عن الأولاد . . لا وقت عند أحدهما للأبناء . . مع زيادة فى إرهاق الأم العاملة . . فهى تعمل كالرجل خارج البيت . . فإذا جاءت إلى البيت استأنفت كل العمل : تطبخ وتغسل وتكنس وتربى وتعلم وتعالج وتنصح . . بينما الأب يتمدد فى فراشه . . وإلى جواره وحوله الأبناء الذين لايسهمون فى أى عمل . . تماما كالأب . .

وعندما دخلت المرأة دنيا العمل إلى جوار الرجل أصبح الأبناء أبناء شوارع أو سلالم . . أو أبناء الخدم . . أو أبناء الحتة . . فلا وقت عند الأب ولا وقت عند الأم . . ولن تعود المرأة إلى البيت . . ولذلك سوف يبقى الابن بلا رعاية ولا حماية ولا وقاية . . إنه يعيش على هامش حب الأم ورعاية الأب . . وكل الأطفال كذلك . . قال لى طفل فى إحدى دور الحضانة : إن الأطفال معى فى الفصل كل أمهاتهم مطلقة . . وكل واحد يقول لى : إنه لايرى أباه إلا نادرا ؟!

وأصبح مألوفا جدا أن تعيش الأم مع أطفالها ـ أو بعض أطفالها ـ وبقية الأطفال مع الأب . .

ورأينا شيئا جديدا الآن ، وهو أن الأم لاتريد جميع أطفالها وتتركهم للأب عقابا له . . وفى نفس الوقت لأن الأم قررت أن تتزوج رجلا آخر ، ولامعنى لأن تعاقب الرجل الثانى بأولاد الرجل الأول . . وهى دوخة للأب الذى لايفهم فى التربية . . والعقوبة لاتصيب الأب وحده ، وإنما الأولاد . .

ولم يعد قلب الأم يتفتت على غياب أولادها . . ولم يعد قلب الأب حديدا ، وإنما هو قلب يتمزق ويذوب دما على أولاده الذين هجرتهم الأم من أجل رجل آخر وأولاد آخرين . .

والضحية : الأطفال . . الشبان الذين سوف يكونون آباء جددا . . والذين سوف يحلمون بحياة عائلية أفضل . . ولذلك يتعجلون الزواج . . ثم يجدون أنفسهم غير قادرين على الحياة الزوجية والأبوة . . وهى مشكلة جديدة تصيب الأطفال بسبب عذاب آبائهم عندما كانوا أطفالا . . فالأجيال تصب عذابها على نفسها . . جيلا بعد جيل بعد جيل ! .

فأنت لاتكره ابنك . . وابنك لايكره ابنه . .

وأنت لاتكره حفيدك الذى لاتعرفه . .

وإنما هى أجيال تضغط على بعضها البعض . . وكل جيل له ظروفه الضاغطة والقاهرة أيضا . .

وكما يحدث فى سباق التتابع . . أن تعطى الشعلة للذى بعدك . . والذى بعدك يعطيها للذى بعده . . فإذا تعثرت أنت فى البداية ، وأدى ذلك إلى أن تأخر ابنك ، وفشل حفيدك . . فأنت لاتقصد ذلك . . وإذا قال حفيدك : إنك إنسان فاشل وأنت الذى فرضت عليه العذاب والهوان ، فهو معذور إذا قال . . ولكنه ليس محقا . . وهو ليس على استعداد لأن يجد لك عذرا . . إنه يرى الذى بين يديه . . والذى بين يديه . . أنه لم يصل . . بينما وصل الآخرون . . ولذلك فهو غاضب على حظه الأسود . . وأنت الأسود فى هذا الحظ . .

ولكن الأجيال يجب أن تعرف العدل . . وإذا عرفت العدل عرفت الرحمة . . وإذا عرفت الرحمة عرفت الامتنان . . امتنان جيل إلى جيل . . وهذا ما لايحدث عادة . . ومن هنا كانت كلمة الكراهية هى أكثر الكلمات شعبية . . والكراهية تولد الحقد . . والحقد أبو الحروب ، والحرب أم الخراب والدمار فى هذه الدنيا . . والحرب أم لحروب أخرى وبأشكال أخرى وبأسلحة أخرى . .

لماذا يكرهوننا ؟!

العالم كله يتفرج على عجائب الصناعات اليابانية ويريد أن يفهم . . أو أن يعرف سر هذه العظمة العلمية والصناعية . . ولكن اليابانيين يضحكون دائما ولايقولون شيئا . ويكون هذا السكوت دافعا قويا لأن يحاول العالم أن يفك طلاسم التقدم العلمى الباهر لشعب فى المائة سنة الماضية . .

فما هى المعجزة اليابانية ؟ .

بالضبط : ما هذا الذى حققته اليابان أو ألمانيا الأسيوية ؟

كيف أن شعبا بدأ تطوره وحركة تنويره معنا ـ نحن المصريين ـ ثم هو يتقدمنا وغيرنا من شعوب العالم مئات السنين . . كيف فعلها ؟ ولايزال يتقدم الشعوب الأوروبية والأمريكية . . إن اليابانيين لايقولون شيئا ، ولايعترضون على أى شىء يقال عنهم . .

يقال : إن المعجزة اليابانية : هى الصبر . .

ويقال : إنها التماسك العائلى . . فالشركة أو المصنع هو عائلة يعيش فيها كل واحد ويموت ولايخرج منها ولايخرج عنها . . فالعامل الذى يعمل فى إحدى الشركات ، لم يحدث أن تركها أو فصلوه منها . . وإذا حدث فإنه لايذهب مطلقا إلى شركة منافسة . . ولم يحدث أيضا أن قبلت شركة منافسة عاملا أو مهندسا كان يعمل فى شركة أخرى . . فهو ـ إذن ـ

يولد ويعيش ويموت فى شركة واحدة ، هى التى تعلمه وتزوجه وتعالجه وتزوج أولاده وأحفاده . .

ولايستطيع أى إنسان فى العالم أن يكون له مثل هذا السلوك اليابانى . ولايطيق أحد هذه (التبعية) المطلقة لشركة أو لمصنع . ولكنهم فى اليابان يقبلون ذلك ولايرون غيره . فهل هذا هو سر العظمة اليابانية ؟ . . ما سر الشعب الذى مسح به الحلفاء الأرض وما تحت الأرض فقام جبارا قويا عنيفا . . أعظم وأروع من الروس والأمريكان والإنجليز والفرنسيين الذين احتلوه وأهانوه وأذلوه ! .

لقد اجتمع أربعة آلاف أستاذ فى علم النفس الاجتماعى والصناعى فى العام الماضى . والتفتوا إلى الدنيا من حولهم ، واتخذوا قرارا . . القرار : أن العالم كله يكره الشعب اليابانى . . هذه حقيقة ، يعجب بهم ولكن لايحبهم . . السؤال : لماذا يكرهنا العالم كله ؟ .

هذه هى القضية التى التف حولها كل أساتذة علم النفس والاجتماع وخبراء الصناعة والزراعة والتجارة والإعلام . . والمطلوب هو معرفة : لماذا ؟!

يتساءلون هل لهذه الكراهية ما يبررها ؟ . . وإذا كانت الكراهية لأسباب خسرناه . . وهل يستطيع الشعب اليابانى الذى أكد عبقريته فى إبهار الناس وغزو الأسواق وخراب بيوت كثير من المصانع المنافسة لليابان . . هل هذا الشعب يستطيع أن يكون عبقريا فى محبة الناس - أى فى جعل الناس يحبونه -؟ هل تستطيع اليابان أن تخلق الحب لها فى العالم؟ . . هل يمكن (تخليق) الحب؟ . . هل يمكن تصنيع الحب لكل ما هو يابانى؟ . . وكم يتكلف الحب ؟

أما الكراهية فقد كلفت الشعب اليابانى عرقا ودموعا ودما وموتا مائة عام وزيادة . . فهل اليابان فى حاجة إلى مائة سنة أخرى لكى يكون حبها عالميا ، كما أن الإعجاب بها عالميا أيضا ؟! .

* * *

فاليابان أرضه ضيقة وأهله كثيرون . . وليست فى بلاد اليابان موارد طبيعية . . ربما كان ماء المحيطات ، وقد استخرجوا منه السمك واللؤلؤ . . أما اللؤلؤ فقد اخترعوا له حلا سريعا لنموه . . فبدلا من أن ينتظروا قواقع اللؤلؤ تنمو فيها حبات اللؤلؤ سنة بعد سنة . . إلى خمس سنوات . . فإنهم وضعوا فى داخل محارة اللؤلؤ نوعا من الكرات الصغيرة المصنوعة من محارات أسماك أمريكية ، هذه الحبات الصغيرة تؤلم حيوان اللؤلؤ فيفرز حولها المادة الفضية فى سنة . . أو أقل . . وهذا هو اللؤلؤ المزروع . . وقد كنت أول عربى يرى مزارع ومصانع اللؤلؤ سنة ١٩٥٩ فى مدينة تويا . . وقد تطورت زراعة اللؤلؤ . . فهم الآن يتحكمون فى حجمه وفى لونه . . ودرجة شفافيته . . ولايملك حيوان اللؤلؤ إلا أن يطيع . . وقد ابتكر هذه الطريقة البسيطة العبقرية رجل اسمه «ميكو موتو» . . وهو اسم أكبر محلات ومزارع اللؤلؤ فى العالم . .

أذكر أننى قابلت أحد أحفاده فى طوكيو وأبديت إعجابا ساذجا بزراعة اللؤلؤ ، فكان الحفيد ينحنى ويتراجع ويشير بيده إلى الوراء . . ولم أفهم معنى الانحناء مع الإشارة . أما الإنحناء فهو الأدب اليابانى التقليدى . . فى الشارع وفى البيت وأنت تتناول العشاء مع أى أحد . . أما الإشارة باليد فهى إلى تمثال مصنوع من حبات اللؤلؤ لجده السيد «ميكو موتو» . .

وقد برع اليابانيون فى كل شىء كما برعوا فى زراعة اللؤلؤ . . أخذوا من أوروبا وأمريكا وطوروا وأضافوا وأبدعوا . . ونافسوا كل الدول التى سبقت اليابان فى كل هذه الصناعات . .

فالأمريكان ـ مثلا ـ اخترعوا الترانزستور ، واليابانيون طوروه وجعلوا سعره أرخص ولا نهاية لأشكاله وألوانه . . وقاموا بغزو شامل كاسح لكل أمريكا وأوروبا . . وكذلك التليفزيون والمسجلات والساعات والكاميرات والعدسات والسيارات . . والآن سفن الفضاء والصواريخ . . وأدوات التجميل والموضات وكل الأجهزة الطبية والإلكترونية . . إلخ .

ولايزال علماء النفس يبحثون ويتساءلون : إن كان هذا هو السبب فى كراهية الناس لهم . . أى كراهية الناس لمن يعيش معهم تحت نفس السماء وفى نفس المحيط وفجأة يسبق الجميع سرا ودون أن يدرى أحد : كيف حدث ذلك ؟! .

فكيف كانت البداية ؟ .

البداية كانت معنا . . فعندما كان رفاعة الطهطاوى ومن بعده على مبارك يدرسان فى فرنسا ويترجمان الدستور الفرنسى والنظريات الاجتماعية والسياسية ، ويقارنان بين حضارة الإسلام وحضارة المسيحية ، وينقلان كل ذلك إلى مصر ، وفى حالة انبهار أدبى وفكرى ، كان اليابانيون يرتادون أوروبا وأمريكا بحثا عن سر تقدم الغرب لكى يتقدموا مثل الغرب ويتقدموا على الغرب أيضا . . لقد كانت ثورة .

والثورة اليابانية هى الثورة الوحيدة فى تاريخ الإنسان فى كل العصور التى قامت وتحققت دون إراقة دماء . . الثورة الفرنسية كان

فيها إعدام وإحراق ودم . . والثورة الأمريكية عرفت الدماء والنار والدخان . . والثورة الروسية أعدمت عشرات الملايين ، إلا ثورة اليابان ، فلا قطرة دم واحدة . . ثم إنها ثورة بمعنى الكلمة : تغيير جذرى للنظر إلى الحياة ، وأدوات الحياة . . وتعديل نهائى فى مسار علاقات الإنتاج وشكل الإنتاج ، وقفزة بعيدة جدا باليابان إلى بداية خط السباق مع الغرب وبمنتهى الجدية والتركيز الشديد والتضحية اللانهائية . . كثير من العرق والدموع ولا نقطة دم واحدة !

وقد بدأ كل شىء يتغير فى اليابان من حادثة واحدة ، فوجىء أبناء طوكيو بسفينة حربية كبيرة . . السفينة نزل منها رجل طويل أبيض أحمر . . يرفع العلم الأمريكى ويريد أن يتحدث مع أى أحد مسئول . . فلم يتحدث إليه أحد . . فهم لايفهمون كيف جرؤ هذا الأجنبى على أن يلوث المياه المقدسة لليابان . ولما لم يجد القائد الأمريكى أحدا غادر المياه اليابانية ليعود إليها بعد عام ـ أى سنة ١٨٥٤ ـ ولم تكن سفينة واحدة ، وإنما أربع سفن وعلى ظهرها ٥٦٠ بحارا . . يريد مسئولا يتحدث إليه ويقدم إليه هذه الهدايا الكثيرة من فساتين السيدات والجوهرات والأحذية والأطعمة الأمريكية ، ويريد أن تسمح اليابان للأسطول الأمريكى بأن يتزود بالماء . . وإذا مرض أحد من البحارة ، فلتسمح له اليابان بالعلاج . . وهو فى نفس الوقت يطلب التبادل التجارى بين البلدين . . يبيع سلع أمريكا ويشترى سلع اليابان ، ومن حق الأسطول اليابانى ـ إن كان هناك ـ أن يذهب إلى الشواطئ الأمريكية ويتمتع بنفس المزايا . ووجد أحدا ، واتفق معه . وغادر المياه المقدسة .

ولكن دهشة الشعب الياباني لم تنته : السفينة وحجم السفينة .. وأجهزة السفينة وملابس الجنود والضباط وطعامهم .. وأدوات الأكل والشرب .. كل ذلك لم يكن قد رآه الشعب الياباني .. ولايعرف كيف الحصول عليه .. ولا كيف يصنعه لو تخيل لحظة أنه قادر على ذلك .. ولم تنته الدهشة .. ولم تنته الصدمة الحضارية .. كأن السفينة الأمريكية مليون لغم عائم انفجر فانفتحت رءوس الناس وعيونهم وانطلق خيالهم إلى بعيد .. ما هذا ؟ .. كيف هذا ؟ .. لماذا ؟ .. أين نحن وأين هم ؟ .. وكيف السبيل إلى هذه الحضارة الجديدة ؟ .

ودخل الأمريكان والأوروبيون إلى بلاد اليابان وطلبوا معاملات ممتازة ، وذاق اليابانيون المر أشكالا وألوانا بسبب هذه الامتيازات التي تجرعناها نحن أيضا في مصر وفي نفس الوقت ..

وبسرعة أوفدت اليابان عددا من المثقفين إلى أوروبا وأمريكا .. ليروا ، ويفهموا ، ويعودوا لكي يعلموا الشعب الياباني .. ذهبوا إلى أوروبا وعاشوا . ورأوا وكتبوا وفهموا وناقشوا وقرروا .. أما الذين ذهبوا إلى أمريكا فلم يبهرهم شيء هناك . فقط عندما حضروا إحدى الحفلات وجدوا الرجال يقفون أمام النساء .. ثم تنهض المرأة والرجل يلف يده حول خصرها ، وترقص هي وهو على أطراف الأصابع مع الموسيقى .. ساعة وراء ساعة . كان ذلك أعجب ما شاهدوا في الدنيا .. كيف يتقارب الرجل والمرأة هكذا علنا ؟! كيف يعانقها علنا ويراقصها علنا ويتلامسان أثناء الرقص ؟! .. هذا مالا يمكن أن يحدث في اليابان . فالمسافة بين الرجل والمرأة كبيرة جدا . والكلفة لايمكن أن تزول هكذا ، ولا المسافات .. أما كل

الذي رآه في أمريكا فيمكن تقليده وتنفيذه .. إلا هذا الرقص فيحتاج إلى عشرات السنين لتغيير سلوكيات وتقاليد اليابان ..

ولم يشغلهم الرقص كثيرا ..

ولكنهم عادوا ببرنامج عمل بسيط جدا .. هو الثورة الحقيقية .. بل الثورة الوحيدة البيضاء الباهرة في تاريخ الإنسان .. لأنها غيرت كل شيء حتى وصلت باليابان إلى ما هي عليه الآن ..

فماذا فعل هؤلاء المثقفون ؟

أولا : استدعوا عددا من الإنجليز لكي يعلموهم صناعة السكك الحديدية والتليفونات .

ثانيا : وعددا من الفرنسيين ليضعوا لهم دستورا جديدا .

ثالثا : طلبوا من الألمان أن يعلموهم بناء المستشفيات وصناعة الدواء .

رابعا : ومن الأمريكان أن يقيموا لهم المدارس ويضعوا لهم البرامج التعليمية .

خامسا : طلبوا من الإيطاليين أن يعلموهم الرسم والنحت والموسيقى .

وجاء هؤلاء الخبراء إلى اليابان وأقاموا سنة وسنة أخرى .. وعلموا مئات اليابانيين وودعهم اليابانيون بانحناءة عميقة وامتنان عظيم .. ثم أقفلوا على أنفسهم المصانع والورش والمدارس .. وبدأت اليابان تغير حياتها وأسلوبها وموقعها على خريطة الدنيا .. ويكفي أن نعلم أن اليابان هي أول دولة استخدمت اللاسلكي في الحرب سنة ١٩٠٤ ـ اللاسلكي الذي تعلمته من بريطانيا ـ فقد

رصدت اليابان حركات الأسطول الروسى الذى اتجه يضرب اليابان فى مياهها . . فرصدوا تحركات الأسطول اليابانى والتقوا به حيث لم يكن يتوقع أحد . . وذلك بمتابعة الأسطول الروسى باللاسلكى . . وأحرقوا ٢٧ سفينة روسية . وكان ذلك أعظم إعلان عن اليابان الجديدة . .

هذه هى كل أسرار النهضة اليابانية . . التنوير اليابانى . . لا أسرار ولا ألغاز . . وإنما هم أناس رأوا الغرب . . ودرسوا وحللوا وقرروا ، وصمموا ، فكانت ثورتهم على أنفسهم فى كل شىء ! .

فهل هذا معقول ؟! .

نعم هذا هو المعقول فى الفكر اليابانى ، والثورة الجبارة الهادئة التى دفعت اليابان إلى الأمام فى كل المجالات . فى السلام وفى الحرب . . وفى الأرض وفى الفضاء . . فغزوا كل الأسواق بلا منافس . . ولم ينافسها أحد إلا تغلبت عليه . . أليس من الطبيعى أن يكرهها العالم ؟! .

فكيف يكون طبيعيا أن يحبها العالم . هذا ما يبحثه منذ العام الماضى ألوف علماء النفس والصناعة والزراعة والطب فى كل الجامعات اليابانية . لعلهم يخرجون بوصفة جديدة للحب . . يمكن تطبيقها وتشريعها . . أى المطلوب هو أن يصنعوا (حجاب المحبة والقبول) للشعب اليابانى عند العالم كله . فهل هذا ممكن ؟ اليابانيون يقولون : إنه ممكن ، ولابد أن نصدقهم . . فالذى فعلوه فى كل المجالات يقنعنا بقدرتهم الفذة على صنع المعجزات . . وإذا كانوا قد صنعوا المعجزات التى أوغرت عليهم قلوب الدنيا ، فليس بعيدا أن يصنعوا ما يجعل القلوب تحبهم . .

ممكن ؟ . . أنهم يؤكدون أن هذا ممكن ! .

الفضاء : فوق
الفراغ : تحت

فما الذى نعلمه للصغار والشباب ؟ .

نعلمهم دينهم . . نعلمهم تجارب الشعوب وحرصها على أن يكون كل شىء أفضل . . على أن يتمسك بما هو أبقى وأقوى وأسمى . فالدين يجب أن يكون تاريخ المؤمنين . . وبطولاتهم . . وليس الدين وحده هو المادة الأولى والأخيرة فى كل برامج التربية والتعليم . . فلم يكن تاريخ الشعوب أن نصلى ونصوم . . وإنما أن نصلى ونصوم ونعمل ونبدع ونغير ونكافح ، ونجعل للحياة معنى وطعما .

وقد تطور الإنسان فى الماديات أضعاف أضعاف تطوره فى الروحانيات . . وفى الأخلاقيات . .

شىء غريب حدث فى أعقاب الهزات الكبرى أو الصدمات الثقافية . . فبعد الصدمات الثقافية . . تفيق الشعوب على شىء جديد . . هذا الشىء هو أن تشعر فجأة ومرة واحدة أن هناك مسافة . . أن هناك فجوة . . وأن هذه الفجوة لم تكن تشعر بها . . وهذه الفجوة يجب أن نعرفها . . أن نملأها . .

فعندما أطلق الروس أول قمر صناعى إلى الفضاء وأول كلبة وأول إنسان أحس العالم الغربى كله بأن هناك خطأ خطيرا فى

التربية والتعليم . . وأن روسيا سبقت الغرب وسوف تسبقه ؛ لأنها تنبهت إلى هذا الخطأ وعالجته سرا . وكانت نتائج هذا الإصلاح تفوقها فى عالم الفضاء . .

فذهب العلماء الأمريكان يدرسون برامج التعليم فى روسيا ، وكل واحد اهتدى إلى سبب . ولكن أهم ما اهتدى إليه الأمريكان هو أن الروس تقدموا جدا فى الرياضيات . . فغير الأمريكان برامجهم . .

ولكننا عرفنا فيما بعد أن السبب الحقيقى غير ذلك . . فالعلماء الألمان الذين استولى عليهم الأمريكان وشحنوهم إلى أمريكا . . قد اخترعوا صواريخ لنقل الأقمار الصناعية من سنوات . . وأن هذه المشاريع جاهزة . ولكن الكونجرس الأمريكى لم يعتمد الأموال الضرورية لذلك . . فلقد رأوا فى سفن الفضاء لعب أطفال يتسلى بها العلماء . . لعب دقيقة معقدة لا فائدة لها . .

ثم إنهم - أى الألمان - هم الذين اخترعوها وليسوا أمريكانا . .

والحقيقة أن الألمان فى روسيا والألمان فى أمريكا قد وصلوا إلى هذه الاختراعات فى وقت واحد . وكان الروس أسبق فى إطلاقها إلى الفضاء حول الأرض ؛ وبعد ذلك حول القمر وفوق الكواكب الأخرى . .

ولكن الأمريكان أعادوا النظر إلى برامجهم فى التربية والتعليم ، وقد أيقظتهم هذه الصدمة العنيفة . . وانطلق الأمريكان إلى الفضاء بسفن أكثر تطورا وأسرع من الروس . .

والصدمة الثانية : عندما اكتشف الأمريكان أنه ليس الروس وحدهم الأسبق فى مجال الفضاء . . ولكن اليابانيين والألمان أسبق فى تطور كل وسائل الحياة . .

والصدمة الثالثة : أن أمريكا ذهبت تحارب فى «فيتنام» ولم تخرج منها إلا مهزومة لأول مرة فى تاريخها . . ويكون ضحاياها سبعين أو ثمانين ألفا . . وأثر هذه الهزيمة كان عميقًا على الشباب الأمريكى الذى وقف ضد حكومته وقرارها المزيف حين ادعت أنها ذهبت تحارب من أجل الديمقراطية والحرية . . فأهلكت الإنسان والحيوان ولم تحقق الديمقراطية ، وإنما الكراهية لكل ما هو أمريكى . .

حتى أن الرئيس كلينتون عندما كان طالبا فى بريطانيا ، فإنه اشترك فى مظاهرة ضد الحرب فى «فيتنام» . . وحاول خصومه السياسيون أن يصوروا أنه هرب من الجندية . . وأنه تظاهر ضد الاشتراك فى الحرب . . ولكن ثبت أنه لم يكن ضد بلاده ، ولكن ضد قرار الحرب فى «فيتنام» . . وأنه لم يشترك فى الحرب ؛ لأنه كان يدرس فى الخارج والدستور يعفيه من الخدمة العسكرية لهذا السبب .

ولكن الشباب الأمريكى تمزق وتزلزل بسبب حرب «فيتنام» وهرب من الحياة الاجتماعية ومن البيت ومن المدرسة . وأدمن المخدرات والخمور . . وتكوم فى الإسطبلات وفى الخرائب ، ووجد أنها خير من البيوت والمؤسسات . . بل إن ألوف الشبان آمنوا بديانات مزيفة هربا من دينهم . . ثم إن عددا منهم سار وراء نبى كاذب . . وانتحروا جماعيا حتى لايعيشوا فى أمريكا المنافقة الكاذبة . .

إن أثر «فيتنام» على معنويات الشباب فى أمريكا شىء فظيع !

وظهرت اتجاهات منحرفة فى الأدب والفن وسلوكيات الشباب . .

ولذلك قرر عدد من رؤساء أمريكا ـ الواحد بعد الآخر ـ أن يواجهوا الكارثة . والكارثة هى التمزق الأخلاقى والانهيار الروحى والتخلف العلمى . .

وعكف عدد من العلماء على دراسة التربية والتعليم فى أمريكا .

وظهر بحث عظيم رائع اسمه «أمة فى خطر» . . ولقد حملت هذا التقرير البديع إلى الرئيس حسنى مبارك فى بيته . وسمعت من الرئيس أنه قرأه . وأنه كلف د . مصطفى كمال حلمى ـ وزير التعليم فى ذلك الوقت ـ بالدراسة والبحث والاستفادة منه . وكتب د . مصطفى كمال حلمى عن التقرير عدة مقالات نشرتها مجلة «أكتوبر» . . والمقالات جميلة . . والاستفادة من التقرير ضرورية . وعندما تقدم د . فتحى سرور بمشروع لإصلاح التعليم أشار إلى أنه قرأ هذا التقرير الأمريكى واستفاد منه . .

ولكن أهم من التقرير وقراءته هو : لماذا صدر ؟ .

صدر فى أمريكا بعد دراسة دقيقة عميقة لحال الشباب هناك . .

وقد لاحظ الباحثون الأمريكان أن الشبان فى أمريكا يرون «السندوتش» هو المثل الأعلى لكل غذاء . . وأن يكون كل شىء مثل السندوتش . . فالكتب يجب أن تكون مختصرة . . معلومات من هنا ومن هناك . . وبسرعة تقرأ وبسرعة يلقى بها . .

ومثل هذه المعلومات السريعة ليست هى التى تؤدى إلى التفكير والتأمل والمعايشة والإبداع بعد ذلك . .

ولاحظ الباحثون الأمريكان أن «الكافيتريا» قد غلبت على سلوك الشبان . . فهم يفضلونها على قاعات البحث والمعامل . .

ولاحظوا أيضا أن الرياضة تستولى على وقت كثير فى حياتهم . .

وسيطرة الجنس عليهم جعلتهم يهربون من الرياضة ومن القراءة ومن الدراسة . . ولاحظ الباحثون أن المدرس لايلقى احتراما عظيما فى أمريكا . . فلا هو قد درس وتدرب ، ولا هو يتقاضى أجرا يجعله يعيش حياة كريمة . . فكيف يحمل المدرس مشاعل النور للطلبة وهو كاره لما يقوم به . . حاقد على الطلبة الذين هم أحسن حظا منه ؟! . فالمدرس وعلمه وتجاربه وحياته يجب أن يتناولها البحث بالتعديل والتصحيح . . وكذلك فعلت ألمانيا وبريطانيا وفرنسا . . كلها اتجهت إلى إصلاح التعليم . . أى وضع البرامج التى تشجع الطالب على أن يتفرغ للدراسة والبحث أملا فى إصلاح كل الناس ، وإتاحة لظهور المواهب الفريدة بين الشبان . .

فما الذى يجب أن يتعلمه أو يدرسه الطفل والشاب ؟! .

يجب أن ندرس لهم تجارب الشعوب . . والأمل فى أن تكون هذه المعلومات أو هذه التجارب مفيدة . . أو تكون عبرة لنا . . فليس المهم نشر المعلومات . . وإنما المعلومات مهمة ، والعبرة مهمة أكثر . .

والشعوب النامية تعتمد على الصورة أكثر من اعتمادها على الحروف . . أى على التليفزيون أكثر من اعتمادها على الإذاعة والكتب . . ولذلك فالصورة أقوى وأعمق . .

ولكن التليفزيون خطير ، وإن كان ضرورة لا مفر منها . لأنه لغة العصر . . إننا فى الريف المصرى نجد الفلاح يسكن بيتا من الطين ، ومن شبابيك هذا البيت تطل أبقاره وجواميسه ، ولكن أمام الباب واحد تليفزيون ملون قد استقر فوق ثلاجة ! .

والتليفزيون خطير ؛ لأن المتفرج عليه لايستطيع أن يفرق بين أفلام عن الحرب وأفلام حربية . . ففى الحالتين ضرب وقتل ودماء . . والخطورة هى أن الطفل إذا نظر إلى الحرب ، فهو لا يعرف أيها التمثيل وأيها الحقيقى . .

ومشاهدة التليفزيون عمل سلبى . . فأنت جالس والمعلومات تدخل دماغك بلا مقاومة منك . بل إن التليفزيون ساحر بالألوان والموسيقى ، ولذلك فأنت لاتستطيع أن تقاومه . . إنه «شهر زاد» التى تحكى فى اليوم الواحد (ألف ليلة وليلة) وأنت «شهريار» النائم على السرير يأكل ويقزقز ، والتليفزيون يأتى لك بالدنيا كلها عند قدميك . .

أما الكتب فشىء آخر . . فأنت تذهب إلى حيث تباع الكتب . . وترى وتقلب وتقرأ وتختار . . فالقراءة عمل إيجابى ؛ لأنه عمل إرادى . وبإرادتك تشترى أو لا تشترى وتقلب وتختار وتعود لتكمل ما بدأت . . ثم إن القراءة فى حاجة إلى جهد . وأنت على استعداد لهذا الجهد وسعيد به . . والمعلومات التى تدخل دماغك بسهولة ، بنفس السهولة تذهب وتتلاشى . . أما التى تحصل عليها من الكتب بجهود ، فإنها تبقى طويلا . ولاشىء يضيع من الذاكرة قد اكتسبته بجهد وإرادة ولذة .

وربما يكون قد ورثنا من الإغريق أن يقف واحد من الناس يحاضرهم ويناقشهم ويناقشونه . . فهذا النوع من التعليم نموذجى . . فليس الطلبة فى حالة سلبية يبتعلون العلم دون تفكير أو دون مناقشة . . وهذا هو المثل الأعلى للتربية الصحيحة . . وما دمنا نعلم الناس أن يستفيدوا من تجاربهم ، فهل الإنسان فعلا يستفيد ؟ . . هل الشعوب أيضا ؟ .

وهل التاريخ يعيد نفسه ؟ . . أى : هل نحن نقع فى نفس الأخطاء وكأننا لم نعايشها ؟ . . وهل التاريخ يعيد نفسه بالضبط؟ . . أو أن هناك تحويرا وتغيرا فى الظروف وفى حجم التجربة ووقوعها وإيقاعها ؟ .

ففى مصر بسبب فشل (تجربة الوحدة) مع سوريا . . لم يوافق السادات وحسنى مبارك على أى نوع من أنواع الوحدة مع ليبيا أو السودان . . فتجربة الوحدة كانت مفروضة على الشعبين المصرى والسورى ، وقررت سوريا الانفصال . . ومضت الأيام وإذا بالشعب المصرى يرى أن الوحدة لامعنى لها ، والسوريون كانوا أول من كفر بها وبرياسة مصر ووجودها فى سوريا . . والحكايات كثيرة والفضائح أكثر . .

وغير ذلك من التجارب الأليمة فى تاريخ مصر وتاريخ كل دولة . . والإنجليز - مثلا - عندهم ثلاثة دروس مؤلمة لايمكن نسيانها . .

١ - فقد استطاعت الفتاة الفرنسية القديسة «جان دارك» عذراء «اللورين» أن تشفى بريطانيا من مرضها . . فقد كانت منطقة «نورماندى» الفرنسية تابعة لانجلترا وغيرها من المدن . . ولكن الفتاة «جان دارك» استجابت لنداء السماء وقادت جيوشا ضد الإنجليز . . فأفلحت فى تحرير مدن كثيرة . . واستطاع الإنجليز أن يستردوها وأن يدفعوا بالفتاة إلى الإعدام حرقا . .

ومنذ ذلك الحين لم تعد بريطانيا تحاول القيام بأى غزو عسكرى لأوروبا !

٢ - بريطانيا كانت أول دولة غربية فى العصر الحديث تقوم بثورة ضد النظام الملكى ، ففى القرن السابع عشر أشعلت حربا

أهليـة وقطعـوا رأس الملك ، وأدى ذلك إلى قيـام ديكتـاتورية عسكرية بزعامة «كرومويل» . وبعد وفاة «كرومويل» عادت الملكية ، ولكن بسلطات قليلة للملك . ولما حاول الملك «جيمس الثانى» أن يعيد الملكية المطلقة أسقطه الإنجليز : وهرب ، وقد استطاع أحد الصيـادين إلقاء القبض على الملك ، وانتظر أن يمنحوه مكافأة على ذلك . . ولكنهم وبخوه وتركوا الملك يهرب فى هدوء ، واستوعب الإنجليز هذا الدرس .

٣ - فقد الإنجليز مستعمراتهم فى أمريكا الشمالية ؛ لأنهم رفضوا أن يمنحوا شعوبها الحكم الذاتى . بينما أعطوا الاستقلال لدول أخرى فى الإمبراطورية البريطانية : كندا وأستراليا والهند وباكستان والملايو ، وذلك قبل حصولهم على الاستقلال بالقوة .

وطرد الإنجليز من قبرص وعدن يدل على أنهم استوعبوا الدرس تماما . ولما لم تستوعب بريطانيا الدرس بوضوح ، فقد منيت بهزيمة شنيعة فى أمريكا الشمالية فى القرن الثامن عشر . .

أما فرنسا فقد استوعبت درسا أليما فى سنوات ١٨١٣ و١٨١٤ و١٨١٥ وفى سنة ١٨٧١ . هذه النكبات العسكرية جعلت فرنسا لاتفكر مطلقا فى السيطرة العسكرية على أوروبا . .

وكذلك هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ والحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، جعلت ألمانيا تخاف من الحرب . . وتخاف من أن تتصور إحدى جيرانها أنها تستعد لذلك . . وعندما استعادت ألمانيا نصفها الشيوعى ، شعر الناس بالفزع والرعب من عودة ألمانيا إلى قوتها ، فأكدت ألمانيا أنها لا تريد أية قوة عسكرية ! .

أما اليابان فقد كانت مصيبتها أكبر وأفدح . . فقد ضربتها أمريكا بالقنابل الذرية . ولكن أفدح من ذلك أن أمريكا قد احتلت

اليـابان ، وهذا مـالم يحـدث لهـا فى كل تاريخـهـا . . حـتى الإمبراطورية المغولية - أكبر إمبراطورية فى التاريخ - لم تفلح فى أن تضع قدما واحدة على الأرض المقدسة لليابان .

وهزيمة اليابان قد جاءت بعد انتصارات ساحقة فى آسيا وجنوبها . بدأت بانتصارها على الصين سنة ١٨٩٤ ، وعلى روسيا سنة ١٩٠٤ . . وسلسلة من الانتصارات الساحقة فى جنوب شرقى آسيا . . وبعد ذلك توالت هزائمها ، وكان لهذه الهزائم أعمق الأثر فى الشعب اليابانى . .

وهزيمة مصر سنة ١٩٦٧ قد هدمت معنويات الجيش والشعب . وأسباب الهزيمة قد استوعبتها مصر ، فانتصرت سنة ١٩٧٣ . . أما انتصار إسرائيل علينا سنة ١٩٦٧ فجعلها تستهين بقدرة مصر وجيشها وقيادتها على خوض أية حرب . . لدرجة أن «موشى ديان» - وزير الدفاع - عندما سمع أن مصر سوف تهاجم إسرائيل أو هاجمتها ، أمر ببضعة الاف من الجنود . . لأن مصر الضعيفة الهزيلة يمكن مقاتلتها بأى عدد ضئيل . . فغرور إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ هزمها فى سنة ١٩٧٣ ، وهزيمة مصر فى سنة ١٩٦٧ دفعتها إلى النصر فى ١٩٧٣ . .

ومن الصدمات العميقة فى العصر الحديث ما أصاب تركيا . . ففى القرنين ١٨ و١٩ استقبلت تركيا الحضارة الغربية . . التى زلزلت دينها وثقافتها وعاداتها الراسخة ، حتى جاء الزعيم «أتاتورك» وفرض التطور والعلمانية على الشعب التركى بمنتهى القوة والقسوة . .

وآسيا قد صدمتها القوات الإغريقية بقيادة «الإسكندر الأكبر» . . فترك الإغريق آثارا عميقة فى آسيا غربا وجنوبا . .

كما أن الإغريق تركوا آثارهم فى مصر الفرعونية أيضا بعد فتوحات «الإسكندر الأكبر» . .

وإن كانت الدويلات الإغريقية قد تفككت . . تآكلت حتى ذابت فى امبراطورية جديدة هى الإمبراطورية الرومانية . . ودفعت الاستقلال والحرية ثمنا لأمنها واستقرارها . . فى هذا الوقت ظهرت (المدن الفاضلة) أو الجمهوريات المثالية . . التى يعيش فيها الناس فى أمان وسلام . .

وكانت (جمهورية أفلاطون) أولى هذه الدول النموذجية المثالية . وهى جمهورية ديكتاتورية رجعية صارمة . وعندما أعطيت لأفلاطون فرصة أن ينشئ هذه الدولة كما يريد فشل . وبذلك ثبت لدينا : أن الأفكار الجميلة ليست دائمة هى السهلة التنفيذ . .

فهناك مسافة كبيرة جدا بين الجمال والواقع .

فصاحب النظرية ليس دائما هو أصلح الناس لتطبيقها . وظهرت جمهورية «توماس مور» . وقد أقام هذه الجمهورية فى القرن السادس عشر فى أمريكا التى اكتشفت أخيرا . . وكذلك ظهرت دولة مثالية «جورج أورديل» أسسها سنة ١٩٨٤ .

وكذلك «هكسلى» أقام دولة جديدة اسمها «عالم جديد شجاع» . . والمعنى هو أن الواقع لايرضى المفكرين ولايرضى الناس . . ولذلك حاول تحطيمه واجتيازه إلى ما وراءه . . أو أنهم حاولوا إعادة العصور الذهبية للشعوب . . ولكن المحاولات كلها فشلت ! .

ولذلك ازداد الشك عند الناس . . الشك والخوف . . الشك فى صحة النظريات الإصلاحية ، والخوف من التطور العلمى الذى

يريد الإنسان تعاسة ، وفى نفس الوقت يجعله يعيش فى قنبلة موقوتة . . القنبلة من صنعه . . وعندما تتكدس الأسلحة فى كل مكان يكون الخوف من الدمار هو الذى يدعو إلى السلام . .

أى أن توازن قوى الرعب فى العالم ، هو الذى جعل الحرب أمرا صعبا . . فكانت الحرب الباردة . . أى : الخوف والشك دون إطلاق رصاصة واحدة ! .

ونحن الآن نعيش فى عصر ما بعد الحرب الباردة . . ولكن لايزال فى العالم كله مساحات من النار والدخان بين الشعوب . .

شىء جديد قد ظهر فى دنيا التربية والتعليم ، هذا الشىء هو : (فجوة التخصص) . . فالمعلومات والمعارف الإنسانية زادت زيادة هائلة ، حتى أصبح من الصعب على أى واحد أن يلم بكل شىء فى علم من العلوم . . ولذلك كان لابد من التخصص . . وتقسيم التخصص إلى أجزاء كثيرة لابد من التخصص فى جزء منها . .

ففى الطب ألف فرع . .

وكان الناس قديما يطلقون على الطبيب والفيلسوف معا : (الحكيم) أى : الرجل الذى يتسع عقله وخياله لمعرفة كل شىء . . فهو طبيب وهو أديب وهو فيلسوف وهو فلكى وهو قائد عسكرى ! .

وعندما كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة كان لابد أن أستعين بالأدب والشعر والرسم وقصص التاريخ ومعالم الجغرافيا لكى أشرح الأفكار المجردة الصعبة . . فلو عرضتها كما جاءت فى الكتب الفلسفية لكان الأمر صعبا ، ولظلت غامضة . . فالتخصص الفلسفى الضيق يجعل الطالب والمدرس فى عزلة عن بقية المعلومات الأخرى . .

وكنت اختار النكت والنوادر والأغانى . . لماذا ؟ إننى أريد أن أكون مفهوما . وأريد ألا أبعث على الملل . وألا يهرب الطالب من الأفكار الفلسفية الغامضة المجردة . .

وفى الفلسفة الوجودية اثنان من الفلاسفة هما نموذجان لذلك :

الفيلسوف الألمانى «مارتن هيدجر» : جاف ، منطقى ، غامض ، صعب جدا أن تفهمه . وإذا فهمته أن تترجمه إلى أية لغة أخرى .

أما الفيلسوف الفرنسى «سارتر» . . فهو أديب وفنان وعباراته جميلة ، وصوره الأدبية والأمثلة من الحياة اليومية تسعفه وبسهولة . . ثم كانت له قصص قصيرة وروايات ومسرحيات . . ولذلك كان بارعا بليغا ممتعا ومقنعا أيضا . . مع أنه لم يفعل أكثر من أن ترجم الفلسفة الوجودية الألمانية إلى لغة فرنسية أدبية سائغة ! .

وعندى تجربة أخرى . .

فقد عكفت أدرس كيف نشأ الكون . لا أعرف ، وتمنيت أن أعرف . ومعلوماتى مهما كانت فهى ليست مؤكدة ، ولا أحد عنده معلومات نهائية . . وإنما العقل والخيال والتكنولوجيا تحاول أن تشهد لحظة خلق الكون .

هناك نظرية تقول : إن الكون نشأ من ١٥ ألف مليون سنة ـ أرضنا هذه من أربعة آلاف مليون سنة .

ولكن لانعرف إن كان قبل هذا الكون كون آخر . . واحد أو ألف مليون كون . ونظرية تقول : إن الكون بدأ بانفجار كبير . . أى أن مادة شديدة الكثافة كانت موجودة ، وفجأة انفجرت فتطايرت

أجزاء الكون على شكل تراب وغازات . . واندفعت ساخنة تبرد . . وباردة تتجمد وتتعلق بعضا ببعض ، وتتكون فيها كتل جبارة تدور حول نفسها وحول بعضها البعض فتكونت الأجسام السماوية . . ملايين ملايين ملايين النجوم . . مجموعات على شكل مجرات . . والمجرة الواحدة بألوف ملايين النجوم فى حجم الشمس . . ومعظم هذه النجوم تدور حولها كواكب كالقمر حول الشمس . . وفى المجموعة الشمسية وحدها أكثر من خمسين قمرا . .

ومن هذه الغازات واتحادها مع التراب ومع المعادن والشحنات الكهربية والمغناطيسية تكونت كل هذه الكتل الجبارة تدور حول نفسها ، وتدور حول مركزها . . فالأرض تدور حول الشمس . . والشمس تدور حول نفسها أيضا . . وفى نفس الوقت حول مركز فى داخل المجرة التى نحن جزء منها . . والمجرة كلها تدور حول نفسها ، وحول مركز فى المجرات الأخرى . . وبين كل هذه الكتل الهائلة غازات خفيفة . . وتراب . . فمن التراب جاء كل شىء . . وليس الإنسان إلا مرحلة من مراحل تطور التراب إلى خلايا عضوية . . وخلايا أحادية وخلايا مركبة . . معقدة متطورة . . وإلى حياة النبات والحيوان والإنسان . .

فوجدت أننى عندما قررت أن أدرس كيف نشأت الحياة من التراب ، لابد أن أقرأ فى الجيولوجيا والفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات . . وتاريخ كل هذه العلوم . . لأن تاريخ أى علم هو جزء منه . . كما أن تاريخك أنت جزء منك . . بل هو أنت فى مرحلة من مراحل العمر . . وبسبب هذه المجالات الهائلة الواسعة من مئات النظريات كان لابد من التخصص . .

ولايوجد فى الكون فراغ . . ولا فضاء . . وإنما الكون ملاء . . امتلأ . . وفى الكون مادة سوداء . . هذه المادة السوداء مكونة من جزيئات أصغر من الذرة ألوف ألوف المرات . . هذه المادة السوداء هى اللحاف الذى يتغطى به الكون . . وهى فى نفس الوقت الحائط اللانهائى الذى يصد الكون عن الامتداد والتطوح بعيدا . .

تماما كما ترى النيل يصب فى البحر الأبيض . . النيل يدفع مياه البحر بعيدا . . ولكن البحر بقوته يوقف زحف النيل . . ويوقف تدفقه . . وكذلك المادة السوداء تستسلم لاندفاع المجرات والسدم . . ولكنها فى نفس الوقت توقف اندفاعها . . وسوف يحدث ذلك بعد ألوف ملايين السنين . . حتى تهدأ اندفاعات الكون أو تسكن ، وحيث يقع فريسة لجاذبية أكبر ، فيتكفئ الكون ويتقلص ويتكيف ويصبح بقعا سوداء لا نهاية لها . .

فكم مرة يا ترى انطلق الكون ممزقا . . وكم مرة التأم الكون مجمدا . . وكيف ؟!

العلماء يستبعدون كلمة «الله» ويرون أن الله كلمة غير علمية . . لأنهم ماداموا لايرونه ولايجرون حوارا معه ، فلا مكان له فى هذا الكون !! .

ولكن كيف بدأ الكون ؟ . . ومن الذى بدأ البداية ؟ . . ومن الذى أصدر القرار بالبداية ؟ . . ومن الذى أودع فى الأشياء قوتها . . من الذى جعله مادة وغازا وخلية . . ومن الذى أعطى الخلية حياتها . . ومن الذى نقل الخلية الواحدة إلى ألوف ملايين ملايين الخلايا فى ذبابة . . من الذى جعل للكون كله قوانين ونظريات ؟ .

لابد أن نقول : الله . .

لا مفر . . لايمكن للتراب أن يتحول من تلقاء نفسه إلى إنسان . . فنحن جميعا من تراب النجوم . . ونحن التراب الوحيد الذى يعرف هذه الحقيقة . . يعرف أنه من تراب وأنه إلى التراب يعود . . وأن الكون لكى يعرف نفسه ، كان لابد أن يخرج من بين ذراته كائن عاقل هو الإنسان . .

وهكذا أجد نفسى مضطرا لأن أقرأ كثيرا جدا لكى أتحدث عن التراب فقط . . ولكن هذه معلومات عامة . . أما العلماء فلابد أن يتخصصوا فى أضيق نطاق . . وهذا النطاق الضيق ملىء بالنظريات والاجتهادات . .

ومن التخصص الضيق عزل العلماء بعضهم عن بعض . .

وأصبح لدى الناس فراغ . .

وأصبح من مشاكلنا أن نتعلم ما الذى نفعله فى هذا الفراغ . .

الإنسان قبل عصر الزراعة كان عنده وقت طويل . . لأنه يعتمد على ثمار الغابات . . وعلى الطيور . . فكان لابد أن ينتظر ظهور الثمار وعودة الطيور . .

ولكن عندما وصلنا إلى عصر الزراعة امتلأ وقت الإنسان بالعمل . . ولم يعد لديه وقت لأى شىء آخر . .

وعندما ظهرت الآلات الحديثة ، احتلت مكان الإنسان . . فأصبح هناك فراغ كثير . . وعاطلون أكثر . .

وفى عهد التطور الصناعى الهائل الآن سوف يحل الإنسان الآلى محل الإنسان . . ولابد أن يواجه البطالة بسبب ما اخترع الإنسان من أجهزة يقوم الواحد منها بما يقوم به ألوف الناس معا . . فالعقول الإلكترونية تقوم بمعظم أعمال الإنسان ، وفى لحظات . . فالإنسان اخترعها لكى تختصره هو !

ولم يعد الإنسان ينتظر انطباق قوانين الطبيعة على الأشياء ، إنه يتعجلها . . وقد ظهر ذلك عندما اخترع الرجل اليابانى «ميكوموتو» طريقة للتعجيل بنمو حباب اللؤلؤ . . فحيوان اللؤلؤ يحتاج ثلاث سنوات لكى يقدم لنا حبة كاملة ، ومن لون واحد .

وقام هذا الرجل باختصار هذه العملية . . فحيوان اللؤلؤ عندما يأكل فإنه يفتح المحارة التى يعيش فيها ليدخل القليل من الغذاء ومن الماء . . ويحدث أن تدخل ذرة صغيرة إلى جسمه الناعم الرقيق جدا لتؤلمه . . ويظل يفرز مادة فضية لكى تعزل هذا الجسم الغريب عن جسمه . . سنة وثلاثا . . فما كان من هذا الرجل إلا أن وضع كرة صغيرة من الصدف فى جسم هذا الحيوان وتركه معلقا فى المياه الهادئة الدافئة ـ التى أعدها خصيصا لذلك . . ولمئات الألوف من حيوانات اللؤلؤ . .

وكان ذلك نقطة تحول فى الصناعة ، عندما تدخل الإنسان فى وظيفة الحيوان . .

وجاءت الهندسة الوراثية فتدخل الإنسان فى تركيبات الخلايا النباتية والحيوانية أيضا . . وقد رأيت فى جزيرة تايوان أنهم نجحوا فى تعظيم وتضخيم «السمك البلطى المصرى» . . فجعلوه أطول وأعرض وأكثر وزنا وشحما ولحما . .

ومنذ الثورة الصناعية والإنسان عنده متسع من الوقت . . وجاءت ثورات العمال تحتم الإجازة الأسبوعية . . يوما أو يومين .

ويقول عميد المؤرخين «أرنولد توينبى» : إن أعظم حادث وقع فى أمريكا فى نصف هذا القرن أن السكرتيرات فى نيويورك رفضن العمل بأجر فى الإجازة الأسبوعية . وكان الرفض دليلا على أن الإجازة أهم

من الفلوس . . وأن الراحة ضرورة . أو أنها حق قانونى وضرورة اجتماعية . . وأن الواحدة منهن لاتبيع حريتها بأى ثمن ، وكان معنى ذلك أيضا أن أصحاب العمل يريدون شراء العامل بأى ثمن ! .

وهناك فرق كبير بين أن تكون فى إجازة فعندك فراغ . . وبين أن تكون عاطلا وعندك فراغ . . فالفراغ الأول مكافأة لك . . والفراغ الثانى عقوبة لك . .

ومهمة التعليم والتربية الآن هى : ما الذى يجب أن تفعله فى الفراغ ، حتى لاتترك الفراغ يفعل ما يشاء؟ . .

وإذا كان الفراغ طويلا فإن قوى أخرى تملأ الفراغ . . لأن العقل لايقوى على البطالة . . ولايقوى على البلادة . . فطبيعة العقل أن يفكر . . فإذا لم يجد ما يفكر فيه ، اخترع ما يفكر فيه ، أو يسلط عليه من يدفع عقله للتفكير . . وبدلا من أن يكون هو الذى اختار مادة التفكير ، يختار له آخرون ، والثمن أن يكون عبدا لهم ، فقد أنقذوه من الضياع . . ولابد أن يدفع ثمنا لذلك !

فقد حدث فى أمريكا عندما هرب الشباب من الجيش أو من الأسرة أو من المؤسسات ، أن سقط هؤلاء الشباب ضحايا لأفكار سابقة التجهيز لتخريب الشباب ، أو تخريب الدولة . .

وهذا ما يحدث بالضبط عندما يجىء الشباب من الريف إلى القاهرة . . العاصمة كبيرة مخيفة . . فيشعرون بضآلتهم وضياعهم فيتلقفهم شبان آخرون عندهم حلول سريعة وجاهزة لمشاكلهم . . ويتمدن الريفيون الوافدون إلى العاصمة . . وفى ذلك إهدار لحاضرهم ومستقبلهم ! . .

أطول مسافة :
بيني وبينك !

فى الحيرة والقلق والخوف يولد الإنسان ! .

وفى داخله رغبة قوية فى أن يعرف لماذا هذا الذى حدث ؟ لماذا هو على الأرض ؟ لماذا هو لايعرف هذا الكون ؟ وكيف يعرفه ؟ . . إن أحدا لم يسأله : إن كان يحب أن يعيش على هذه الأرض . .

إنه وقع . . سقط . . ألقى به من مكان إلى هذه الأرض . . كأنه ألقى بمظلة واقية دون أن تكون لديه خريطة ليعرف أين هو . . وكيف الخروج والدخول والحياة . .

ومعنى ذلك أنه سجن فى هذا الكون . . وأنه محاط بما لايفهم وما لا يقدر على زحزحته ، فلا كان قادرا على أن يسبح كالسمك فى الماء أو أن ينطلق كالصقر فى الهواء . . إنه على الأرض مشدود لها .

إن خمسة آلاف سنة قد مرت فى حياة الإنسان لم يتطور تطورا كبيرا . . فلم يستطع الإنسان أن يجعل الحياة أسهل والحركة أقل تكلفة للطاقة . . ولكنه فى عشرات السنين الماضية استطاع أن يحقق المعجزات فى كل المجالات . . فى المواصلات بين القارات وبين الكواكب وأن يحقق المعجزات فى الطب . . وفى الجراحة . . واستطاع أن يحقق المعجزات فى المعلومات ، وكيف تنقلها بالأقمار الصناعية وبالعقول الإلكترونية . . وكيف

أصبح العالم كله جزيرة صغيرة . . أو سفينة فضاء . . أو سفينة نوح الفضائية . . أو أصبح العالم كله طبقا طائرا . . فكل شىء أصبح قريبا فى متناول كل الناس . .

تتفرج على مباريات كرة القدم فى البرازيل ، وترى أعشاب الملعب واحدة واحدة ، والشعر فى سيقان اللاعبين . . والدموع فى عيونهم .

وأحس الإنسان بشىء كثير من الغرور . . فالعلم أعطانا شيئين : القوة والوفرة . . فبدلا من أن تمشى فإنك تركب طائرة ، وبدلا من أن تصرخ تهمس بالتليفون المتحرك . . وبدلا من أن تقرقش الطعام بأسنانك ومخالبك جعله مسحوقا غنيا بالفيتامينات .

وكان الإنسان يعتقد أن الأرض مركز الكون ، وأنه سيد الأرض ، إذن هو سيد الكون .

وظهرت النظريات تقول : إن الانسان : (ولا مركز الكون ولا حاجة) . . وإنما الأرض تدور حول الشمس . . وكذلك كل الكواكب . . فالشمس هى مركز الكون . .

أى أن المجموعة الشمسية التى نعيش فى جانب منها هى مركز الكون . .

وجاءت نظريات تقول : إن المجموعة الشمسية ليست مركز الكون . . وإنما هى مجموعة ضئيلة جدا ضمن مجموعة بها ألف مليون نجم مثل الشمس . . هذه المجموعة اسمها «الطريق اللبنى» . .

وجاءت نظرية تقول : إن هذه المجموعة ليست إلا واحدة من ألف مليون مجموعة أخرى .

وجـــاءت نظرية تقــول : إن هذا الكون كله ليس هو الكون الوحيد . . فهناك أكوان أخرى بألوف الملايين ولا نعرفها . .

وجاءت نظرية تقول : بل إن هذا الكون كله لم يكن موجودا قبل ١٥ ألف مليون سنة . . وإنه ليس إلا واحدا مما لا نهاية له من الأكوان التى ظهرت ثم اختفت . .

يعنى : أن الإنسان (ولا حاجة) فى هذا الكون . . ولاشىء .

أو هو شىء متواضع جدا .

ولكن جاءت نظرية تقول : صح إن الانسان ليس شيئا ماديا هاما . . ولكنه الشىء المادى الوحيد الذى يعرف نفسه ويعرف هذا الكون . . إن الشمس لا تعرف . . وكل النجوم لاتعرف أن لها بداية وأن لها نهاية . . ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يعرف أنه ولد ليموت . . وأنه شديد القلق والحزن على ذلك . . وأنه فى نفس الوقت يحاول أن يسخر البيئة والظروف لصالحه . . أى أنه يحاول أن يجعل نفسه مركزا للاهتمام فى هذا الكون .

ورغم أن الإنسان قد حقق الكثير جدا فإنه لايزال يشعر بأن الذى يحلم به أكثر من ذلك . .

ورغم أن أمامه الكثير من الوقت لكى يحل مشاكل الحياة ومشاكل العلوم فإنه فى نفس الوقت يشعر بالاعتزاز بنفسه ، فقد استطاع فى نصف القرن الماضى أن يحقق المعجزات التى لم يستطعها فى ألوف السنين قبل ذلك .

فالإنسان كائن غير متوازن ؛ لأن العلم لم يحقق له صلحا مع نفسه . . لم يحقق له علاقة قوية مع جاره . . مع زملائه فى البيت ، فى الدولة ، فى

الكرة الأرضية . . إن المواصلات ربطت بينه وبين الكواكب الأخرى . . ولكن هذا العلم لم يحقق له الأمان والوئام مع غيره من البشر . .

إن الأجهزة الحديثة لم تمكن الإنسان من أن يقضى على الحقد والكراهية والحسد والانتقام . . والحرب التى يموت فيها الملايين والملايين تموت بأسلحة فتاكة اخترعها الإنسان بعقله العبقرى .

ومعنى ذلك أن العقل الإنسانى يعمل فى القضاء على الإنسان نفسه . . والعلم يقوم بتطوير أسلحة الموت .

ثم إنه يرتفع بمستوى المعارك . . فبدلا من أن كانت المعارك فى البر والبحر والجو . . أصبحت الآن (حرب النجوم) . . أى : الحرب التى تستخدم فيها سفن الفضاء على أعلى المستويات ، فالإنسان قد ارتفع بأسلحته ومعاركه وميادين القتل ، ولكنه انحط بأسباب هذه الحرب . فأسباب الحرب هى الطمع والجشع والسيطرة والقهر .

وهذا هو موقف أخلاقى . . أو موقف روحى . .

وهناك فجوة هائلة بين ما حققه العلم وما عجزت القيم الروحية عن تحقيقه .

العلم ساعدنا على قتل الملايين فى كل العصور . . ولم يساعدنا على حب الآخرين .

وفى الخمسة آلاف سنة الماضية لم تعرف الإنسانية السلام إلا ١٢٣ سنة . . فمن الذى نلوم ؟

لا نلوم التقدم العلمى ، فما دام هناك عدد كبير جدا من العلماء يعملون معا وكل واحد منهم يكمل ما قام به الآخرون فلا نهاية لتقدم العلم والأدوات المتطورة التى يبتدعها . . .

ولو حدث أن عكف ألوف المصلحين ـ تماما كالعلماء فى كل مكان ـ على تطور القيم الروحية والحب والرحمة بين الناس لتغيرت الدنيا .

ولكن (القوة) لا هى خير ولا هى شر . إنها محايدة ، ولكن الإنسان هو الذى يجعلها للخير ويجعلها للشر . . فالسكين مثلا لا هى خير ولا هى شر . . ولكن الإنسان هو الذى يقشر بها خيارة وهو الذى يقتل بها بريئا .

والإنسان فى الخمسة عشر قرنا (من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد) حاول كل أشكال التنظير الأخلاقى والروحى والدينى والفلسفى . . ففى القرن السادس قبل الميلاد كان المصلح الهندى «بوذا» والصينى «كونفوشيوس» والياباني «لاوتسى» والفارسى «زرادشت» . . وكان الفيلسوف «سقراط» وكان الفيلسوف «زينون» .

وكان النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى القرن السابع الميلادى .

وهم جميعا قد دعوا لسيطرة الروح على المادة ، لسيطرة القيم الأخلاقية والروحية على الرغبات المادية الفانية .

ومهما اختلفت الأديان فى مبادئها ، فإن بينها شيئا واحدا مشتركا هو : الدعوة إلى الحب .

ولاشىء يجعل الإنسان يخرج من أنانيته الشديدة إلا الحب . . أن تحب غيرك من الناس وأن تضحى من أجله . فالحب هو العاطفة الوحيدة العظيمة التى تشغلك عن نفسك وعن أن تكون مركز الكون . . وأن تحب شخصا وأن تحب فكرة وأن تحب رمزا . . وأن يكون هذا الحب بلا مقابل . .

ولاشىء قد أدى إلى ظهور الدين وحاجة الإنسان إليه إلا الحب والاحترام والخوف . . والإنسان بطبعه كائن روحانى . . كائن مؤمن . . فى كل العصور كان الإنسان مؤمنا بشىء ما . . بقوة ما . . ولايزال .

فأنت تنحنى إجلالا أمام قطعة قماش ؛ هى علم الدولة .

وتقف احتراما لعلامات المرور ؛ لأنها رمز القانون . .

واللاعبون يتحركون بين العلامات البيضاء . . التى هى القواعد والأصول . .

والإنسان كائن يكن احتراما وتوقيرا وتقديسا لما هو أكبر ، ولمن هو أعظم . . ومن ألوف السنين . . ونحن من الواجب أن نذكر دائما أستاذنا العظيم «سقراط» . . أنه لم يشغل باله بالبحث فى الطبيعة ولا فى الفلك ، وإنما شغل نفسه بالإنسان . . والذى شغله فى الإنسان هو أن هذا الإنسان يعرف الخير ، ومع ذلك لايفعل إلا الشر كيف ؟ ولماذا ؟

وكان هدف سقراط هو إيقاظ الإنسان ليفعل الخير مادام يعرفه . . وهو بذلك يصلح الإنسانية كلها . .

وهذا ما يحتاج إليه اليوم .

وكلما تقدم العلم زادت الفجوة بين الدين والعلم ، أو بين القيم الروحية والفوائد المادية للتطور العلمى . .

فالإنسان اخترع الآلة ثم صار عبدا لها . . اخترع الآلة وراح يقلدها . . فيكون منضبطا مثلها . . ويكون لا إنسانيا . . فالناس جميعا مسامير فى جهاز واحد . . ويجب أن يكونوا . . والإنسان مادام مسمارا فى جهاز فيبقى فى الجهاز مابقى صالحا ، فإذا انكسر كان لابد من الإتيان بقطعة غيار أخرى . . لا أكثر ولا أقل .

فـالإنسـان يطور المادة التى فى يديه . . ويجـعل منهـا أشـيـاء جديدة ، والحياة المادية هى التى صنعها الإنسان وطورها وانحنى ساجدا لها .

واستطاع العلم أن يجيب عن تساؤلات كثيرة للإنسان ، وكانت إجابات الأديان القديمة عنها غير دقيقة ، وهناك خطأ وقعنا فيه ، وهو أننا نطلب من العلم ما نطلبه من الدين . . فنطلب من الدين أن يقول لنا : كم طول الكون وكم عرضه . . والعلم يقول بالتقريب ، والدين لايقول ؛ لأن الدين ليس كتاباً علميا ، والعلوم يغير بعضها بعضا فهى لاتثبت على حال ، بينما القيم الأخلاقية قد اكتسبت طابع الخلود ؛ لأن أساسها الصدق والحب والرحمة والسلام . .

وإذا أحس الإنسان بكارثة رفع رأسه إلى السماء وقال : يارب .

وقد يضحك أحد العلماء لهذا المنظر ويقول : ولماذا ينظر إلى فوق . . يمكنك أن تنظر إلى تحت ، فالأرض معلقة فى الفضاء . . فلا فوق ولا تحت .

علميـا صـحيح ، ولكن هذا الإحسـاس الذى تحس به هو العجز . . ونتطلع إلى فوق ويريحنا ذلك ، وليس له تفسير علمى . . إنه شىء فى القلب لا نعرف ما هو ، ولا ما طوله ولا عرضه ولا وزنه . . يارب . . ولا يهمنا كثيراً أن يضحك العلماء على هذا المنظر .

وكان يقال : إن بين آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ ٤٠٠٤ سنوات . . وقيل : بين آدم ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشرة آلاف سنة .

وجاء البحث التاريخى يؤكد غير ذلك ؛ فالإنسان على هذه الأرض من مليـون سنة . . أى الإنسان الذى يمشى على قدميه مستقيم الظهر . . ولكن مرت على الإنسان ملايين أخرى لم يكن مستقيم الظهر .

وقد كانت على الأرض حياة بأشكال مختلفة قبل ظهور الإنسان بمائة مليون سنة . الديناصور كان يعيش على هذه الأرض حوالى أربعين مليون سنة . . ولكنه انقرض من خمسين مليون سنة لأن أحد الأجرام السماوية قد سقط على الأرض ـ أو مر بالقرب منها ـ فارتفعت درجة الحرارة وانعدمت الحياة الحيوانية والنباتية ، وفى مقدمتها الديناصور .

بعبارة أخرى نحن تطورنا على هذه الأرض علميا ولم نتطور اجتماعيا . . فإذا كان الإنسان حيوانا اجتماعيا لابد أن يعيش فى أسرة وأن يكون له أولاد وأقارب وقبائل وعائلات ، فليس الإنسان هو الحيوان الوحيد الاجتماعى . . هناك الذئاب حيوانات اجتماعية . . تغزو وتصيد معا وتأكل معا وتثأر لبعضها بعضا ، فالإنسان تطور علميا ماديا ، ولم يتطور كثيرا اجتماعيا أو روحيا . .

والإنسان لايستطيع أن يحقق المعانى الروحية إلا عن طريق المادة ، فالإنسان يجب أن يكون حيا يأكل ويشرب لكى يكون قادرا على أن يحقق القيم الروحية ، وأن ينشرها وأن يتمسك بها ويدعو إليها . . ونحن نلمس عالم الروح بأصابع مادية . . فلا قيم روحية إلا لأننا موجودون . . وإذا لم يكن هناك إنسان فلا قيم روحية . .

والشمس والقمر والكواكب الأخرى ـ لا فيها حياة ولا إنسانية ولا موت .

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف أنه سوف يموت . . وكانت آلهة الإغريق يحسدون الإنسان على أنه يولد ويموت . . أما هم فقد ملوا حياة الخلود . . روتين الأبدية . .

ولو استطاع الطب أن يجعل الإنسان يعيش إلى مائتى سنة لكان من أدم أمال الانسان أن يموت ، أى لأصبح الموت أملا . . لأن الشيخوخة وكثرة الأمراض واليأس من العلاج تجعل الحياة عذابا . . ويكون الموت هو الأمل ، أما الانتحار فقد حرمته كل الأديان ؛ لأن معنى الانتحار أن الإنسان يرفض الحياة التى وهبها الله له ، فالله وحده هو الذى يعطى وهو الذى يأخذ .

وإذا كان قد حدث فى عصور الرومانسية والوجدانية والمثالية أن انتحر كثيرون ، فتلك حالة نفسية مرضية . . فلسفة أزمة . . وقد اتخذ العصر الرومانسى عبارة لمؤلف إغريقى كتبها على باب بيته :

إذا كنا لم نستطع أن نرفض الحياة ونحن صغار فلنرفضها ونحن كبار .

ولكن أحدا لم يفعل ذلك كثيرا . . وإن كانت الحروب هى الموت الجماعى الذى تفرضه الشعوب على نفسها وعلى الشعوب الأخرى . . وتسمى الانتحار الجماعى (بطولة) . . وتسمى الأهداف المعلنة القائمة على السيطرة والجشع (مبادئ مقدسة) .

* * *

ومن علامات هذا الزمان ما قاله أول إنسان صعد إلى سفينة الفضاء ودار بها حول الأرض : ففى سنة ١٩٦١ أطلق الروس الرائد «جاجارين» ليرتفع عن الأرض مائتى كيلو متر ولينطلق بسرعة ٢٨ ألف كيلو متر فى الساعة ليدور حول الأرض كل ٨٩ دقيقة . . هذا

السائق البسيط لسفينة فضاء كل أجهزة إدارتها على الأرض . . ليس إلا سائق تاكسى بلا «دركسيون» . . هذا السائق البسيط قال ـ ثم منعوه بعد ذلك أن يردد هذه العبارة ـ : إنه صعد إلى السماء فلم يجد الله .

الغرور والجهل هو معنى هذه العبارة : فما الذى حققه حتى ينطق بمثل هذه العبارة الكبيرة جدا . . إنه ارتفع فى سيارة صغيرة إلى مسافة صغيرة . . تماما مثل ذبابة تدور حول كوب . . إنه إنجاز علمى كبير . . ولكن هذا الإنجاز لا يجعل أحدا يقول مثل هذه العبارة إلا إذا كان جاهلا جدا .

ولذلك فى مثل هذه الذروة من الغرور والجهل يتدخل الدين . . ويقول لنا : قليلا من التواضع ، فما أوتيتم من العلم إلا قليلا . . والذى صنعتموه مهما بلغ من عظمته فهو أقل فى الإعجاز من جناح ذبابة . . بل إن جناح ذبابة شىء كثير جدا جدا . . بل إنه أقل إعجازا من شكل خلية تحت الميكروسكوب . . ففى هذه الخلية ما لانهاية له من الجسيمات البسيطة كهربيا ومغناطيسيا .

فقط الدين هو الذى يستطيع أن يسد هذه (الفجوة الروحية) ، التى يقفز منها الغرور كما تقفز الضفادع من أحد المستنقعات ، وهى تحلم بأن تصدم برأسها النجوم .

من آدم إلى حرب النجوم

فى البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بالفضيحة . . فقد كانت فى الجنة شجرة محرمة ، ولكن الشيطان ضحك على حواء التى ضحكت على آدم ، فأكل الاثنان منها . . وفجأة اكتشفا أنهما عاريان تماما . . فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر . .

وبسبب هذه المصيبة نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افتضح أمرهما . . وبعد أن ظهرا عاريين تماما كان لابد أن يخرجا من الجنة ويكفرا عن هذه الغلطة . . هذه الخطيئة . . وكانت حياتهما . . وحياتنا . . على هذه الأرض تكفيرا وتطهيرا واستمرارا فى الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك ؟

قال - ما معناه - : وهل أنا حارس لأخى ؟ . .

يعنى : لا أعرف من الذى قتله . ولم يكن غيرهما فى هذه الدنيا . فهو القاتل . .

وترك جثمان أخيه مكشوفا . . فجاء غراب ودفن غرابا قد مات . . وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقل فهما من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا . . إلا إبليس ، وكان كبير الملائكة ، رفض لأنه مصنوع من النار أشرف من التراب . ولكن فوجئ بأن آدم أهم عند الله من إبليس . . وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . . فالحياة بلا موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت ؛ لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا يموتون . . فحياتهم مملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرا ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس خالدا . والخلود حياة واحدة مملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم قد مسح به التراب الذى خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله .

وقد رأيت فى فيلم (الكتاب المقدس) الذى كتبه الشاعر الإنجليزى «كريستوفر فراى» وقامت ببطولته «صوفيا لورين» . . قرأت أن دم هابيل ابن آدم قد تسلل إلى مياه الأنهار ليشربه كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون الخطيئة فى دمهم . فالإنسان مخطئ ، وحياته خطيئة ، ومحاولة هروبه من الخطيئة التى لها أول وليس لها آخر . . ولولا فضيحتك أنت شخصيا لكانت حياة جارك له . . فأنت متعته التى لاتنتهى .

وقد تكون الفضيحة خطة . . كأن يسقط منك بنطلونك فى حفلة عامة ! .

وقد تكون الفضيحة عشرات السنين ، كأن يسقط البنطلون والجاكتة ، الشيوعية عن كل الدول التى كانت جزءا من الإمبراطورية السوفيتية . . فقد جاء الزعيم «جورباتشوف» وفضح الانحلال والانتهازية والمخدرات والفساد الشيوعى . . فسقطت الشيوعية بعد سبعين سنة من الممارسة العنيفة . . وتفككت الدول التى كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . . فكان الاتحاد السوفيتى مثل الطائر «إيكاروس» ، الذى ألصقوا الريش فى جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم «إيكاروس» ، كذلك كل الدول الشيوعية ! .

فهى أكبر فضيحة مذهبية سياسية اجتماعية فى التاريخ . .

أذكر أننى عندما كنت فى «إندونيسيا» سنة ١٩٥٩ قرأت فى الصحف أن الدولة قد أبطلت الأوراق المالية من فئة المائة والخمسين روبية . فى تلك اللحظة قفزت من المقعد إلى الجلوس على الأرض ، فهذا هو المكان المناسب لواحد خسر كل ما لديه من مال . . تماما مثل «إيكاروس» الذى سقط . . فقد سقطت . . وأحسست أننى عريان وبلا غطاء . . ولا أمل فى غطاء . . واكتشفت أننى غلطان ، فقد نصحونى أن أحتفظ بأوراق ذات فئات صغيرة . ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكوم ويتكدس الورق فى جيبى . . ولكن ماذا كان يحدث لو تكدس الورق أو تكوم ؟ إنها غلطة وفضيحة ذكاء ، فقد توهمت أننى أذكى وأننى أقدر وأبعد نظرا من الآخرين ، فكانت هذه النتيجة . .

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية . . فوزير الدفاع البريطانى «بروفومو» ، الذى يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات ، هذا

الرجل كان عشيقا لواحدة جميلة . . هذه العشيقة ، كانت عشيقة للملحق العسكرى الروسى . . فكانت أسرار بريطانيا فى جيب الملحق العسكرى . فضيحة ما بعدها فضيحة . وانكشف ضعف الرجل أمام الجنس ، وضاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك !

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير ؛ ولكن عار دولة من أولها لآخرها . . وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وائتمنه على سر وجوده !

وغير «بروفومو» كثيرون ، مثل الرئيس «كيندى» والرئيس «نيكسون» وولى عهد بريطانيا ، والرئيس «كلينتون» وزوجته أيضا . .

* * *

وهناك فضيحة عصر . .

فشاعرنا العظيم «المتنبى» كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء . . إن أعطوه مدحهم ، وإن منعوه شتمهم . . ثم يذهب إلى آخرين يمدح ويقدح . .

وكان المتنبى - وهو أعظم شعراء العرب - عاطلا . . صناعته الشعر . . وسلعته المدح والهجاء . .

وحياة المتنبى فضيحة لزمانه كله . . فالشعر لا ثمن له ؛ والشاعر العظيم لا قدر له . . وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء . . أما الشاعر نفسه فلا شىء . . لا هو قادر على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان لا يساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين . وليس العيب فيهم . ولكن العيب فى زمانهم . . وليس نظم الشعر فى أى غرض فضيحة لهم . . ولكنها فضيحة العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات «بديع الزمان الهمزانى» ومقامات «الحريرى» . . نجد البطل رجلا يتظاهر بالفقر ، ويبهر الناس بعلمه ، ويضحكهم لكى يعطوه . . وهو يرتزق بعد أن يجعل نفسه أرجوزا بليغا فصيحا . . ثم يكتشف الناس أنه «أبو زيد السروجى» . . أو« أبو الفتح السكندرى» ، الذى يصف نفسه قائلا :

تعارجت لا رغبة فى العرج
ولكن لأقرع باب الفرج
وأحمل حبلى على غاربى
وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لامنى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج

فالرجل ليس أعرج ، ولكنه يتعارج . . وليس بهلوانا ، ولكنه يفتعل ذلك ! .

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة ، ولكن إضحاك الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم . . وهم ينتظرون ذلك . . ويطلبون منه المزيد فى خداعهم . . وإلا فلن يعطوه مالا . . ويسمى هذا الأسلوب فى التحايل على الرزق : (الكدية) . .

وهذا شأن الظرفاء فى الأدب والشعر . . ليس الأدب وليس الشعر ، ولكن (الكدية) ، أى : التكسب بالأدب وبالشعر . . أى : بأن يبذل الشاعر ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء . .

ولم يعرف الأدب العربى رجلا تعيسا مثل «أبو حيان التوحيدى» فهو دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط . . وهو كافر بالدنيا وبالناس ؛ لأنه لايجد لقمة إلا إذا يبهر الناس بعلمه وحكاياته . . فإذا لم يفعل مات على باب الخليفة أو الأمير . . منتهى الهوان ، وفى نفس الوقت فضيحة لكل الناس ولكل العصر!

* * *

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان يشعر بأنه سيد الأرض مركز الكون ، إذن : هو سيد الكون . . فالشمس تدور حول الأرض . . والنجوم فى السماء عبارة عن (ترتر) فى ثوب الفضاء . . خلقها الله ليتفرج عليها الإنسان ويمتع ناظريه . . والفضاء أزرق ؛ لأن هذا اللون يريح العين . .

فالكون كله من أجل الإنسان . .

وظهرت نظريات فى الفلك تؤكد أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . . وأن الشمس تدور حول نفسها . .

وأن الشمس بها فتحات تتسع لخمسين كرة أرضية . . وأننا نعيش فى منظومة . . إنها المنظومة الشمسية ؛ التى هى عبارة عن تسعة كواكب ، تدور حول هذه الكواكب أقمار يبلغ عددها ٥٤ قمرا . . وان الشمس ليست إلا نجما واحدا ضمن ثلاثة آلاف مليون نجم أخر فى منظومة اسمها المجرة . . وأن فى الكون ألوف الملايين من المجرات . .

يعنى أن الأرض ليست مركز الكون . . وأن الإنسان ليس سيد الكون .

وظهرت نظرية تقول : إن الكون لو كان فى مساحة استاد القاهرة ، فإن المجرة التى نعيش فيها ليست إلا كرة بنج بُنج عند حافة الاستاد .

وإن الإنسان ظهر على الأرض متأخرا جدا جدا . . فالأرض عمرها أربعة آلاف مليون سنة .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة . . أى أن الله خلق الكون فى الدقيقة الأولى من أول يناير ، فإن الإنسان يكون قد ظهر على سطح الأرض فى الدقيقة ١١،٥٧ مساء من ليلة ٣١ ديسمبر !

إنها فضيحة كونية فلكية للإنسان . . فليس هو المقصود من هذا الكون . . وليس هو مركز الكون ولا هو سيد الأكوان . . وإنما واحد من الحيوانات العاقلة التى سكنت الأرض . . ونحن لانعرف إذا كانت هناك حضارات قبلنا على الأرض . . ولانعرف أيضا إن كان هذا الكون الذى عمره ١٦ ألف مليون سنة هو الكون الوحيد . . أو أن الله خلق أكوانا وأفناها ثم أنشأ غيرها . . فلا أنا سيد الكون ولا الأرض مركز الكون . . ولا هذا الكون هو الكون الوحيد الذى خلقه الله . . ثم إن هذا الإنسان الذى يولد ويموت ويخترع كل يوم شيئا جديدا ، لم يجد علاجا للأنفلونزا . . ولم يعرف بعد سر الخلية الصغيرة التى يتكون منها النبات والحيوان والإنسان . . ولا هو قادر على أن يطيل عمره وأن يمنع عنه الموت . .

إلى هذه الدرجة قد تجرد الإنسان من كل أزيائه الكاذبة وعظمته الوهمية . . ووقف عاريا أمام نفسه . إنه عاقل عاجز ويقوم بتعويض هذا العجز بادعاء السعادة والأستاذية والخلود !

وظهرت نظريات تقول : إن الإنسان أصله قرد . . لأنه شديد الشبه بالقرد . .

ولكن هناك حلقة مفقودة ، هذه الحلقة هى فترة تطور القرد إلى إنسان . . هذه الحلقة هى التى لانعرف كيف نهتدى إليها . .

وجاءت نظريات تؤكد أن القرد ، وإن كان شبيها بالإنسان ـ إلا أنهما ليسا من أصل واحد . .

أى أن النظرية تقول : إن الإنسان ليس سيد الكائنات . . وإنما هو واحد من الحيوانات قد تطور . .

ثم إن الحياة ممكنة على كواكب أخرى فى هذه المجرة التى يعيش فيها .

وفى هذه المجرة ألوف ملايين ملايين الكواكب مثل الأرض . . وليس بعيدا عن العقل أن تكون بها كائنات أعقل ، أو فى مثل عقلنا ، ولكننا لانعرف . .



وظهرت الماركسية التى ترى الإنسان حيوانا عاملا . . حيوانا مثل كل الحيوانات الأخرى . . وعقله مثل أنياب وأظافر الحيوانات الأخرى . وهو يستخدم أظافره العقلية وأنيابه فى الحياة الاقتصادية والمسيطرة على أدوات الإنتاج والإنتاج . .

فليس هناك عقل ولا نفس . . وإنما الإنسان جهاز به عمليات كيميائية لا تتوقف . ومن هذه التفاعلات الكيماوية يكون النشاط الفكرى والفنى . . ويجب أن تحشد الناس تماما كأنهم قطيع . . وأن نجعل لهم أنيابا وأظافر ليدافعوا عن الرغيف ، وعن مكانهم فى المجتمع ، وفى الدنيا أيضا . .

حيوانات نحن ؟ نعم ، وأقل من ذلك . .

اما الدول غير الشيوعية فهى تنصب على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب .

والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء . وفى نفس الوقت هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب ، اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص - فكل الأغنياء لصوص - وتعطى أموالهم للفقراء . . بل وتلغى حق أى إنسان فى أن يملك . فالكل أمام القانون فقراء . .

طبقة واحدة من الجياع الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية ، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن فى الدول الأخرى ، أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعا ولا يمد يده ، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته . كنا نقول ذلك لأنفسنا ولغيرنا . ولكن عندما جاءت الشيوعية : شعر الغرب كله والعالم الغربى ، بأن الشيوعية فضحت الإنسان . . فقد هدمت مشاعره . . وإيمانه بكرامة الإنسان وعظمة الإنسان . . ففى الدول الشيوعية مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائما - ومهما كانت الظروف - مزيجا من العبقرية والكرامة والكبرياء !

إنها فضيحة لنا جميعا ، شرقًا وغربًا !!

* * *

ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد لنا أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فإذا هى مظلمة . . وإذا الإنسان شرس متوحش لا رحمة معه ولا رحمة عنده . . وإن التعليم والثقافة والحضارة كلها ليست إلا تقليما وتهذيبا لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيبا الفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيا يقتل الابن أباه ، والأم ابنها . . وتقوم المجازر دفاعا عن المذهب وعن الدين . . وتقوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصل إليه الإنسان من علم فى تحقيق أحط مشاعر الإنسان وأحقر رغباته .

والناس فى الحروب كالسكير الذى يدخل البار . . إنه بكامل قواه العقلية ، ذهب لكى يفقدها ويقع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنا مبسوط كده ! .

وفى الحروب يستخدم الإنسان كل أدوات القتال . . أحدثها وأكثرها تطورا وقدرة على التدمير . . ويتباهى بذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوف ويموت منه الألوف . . وفى نفس الوقت تدق الطبول والموسيقى تغنيا بالحرب المقدسة دفاعا عن الأرض المقدسة . . وإن هذه هى إرادة الشعوب التى هى إرادة الله . . أى أن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى القاتل شهيدا والقتيل أيضا . .

وكلها تفضح وحشية الإنسان ، مهما كانت عقيدته ومهما كانت طبوله ومهما كان سلاحه . .

* * *

وفى حياتنا اليومية أحداث صغيرة . . ولأنها صغيرة فإننا لا نلتفت إليها . وبذلك لانستخرج معانيها العميقة . أى التى فى أعماقنا . ثم خرجت ، ليكون خروجها فاضحا لنا . .

تقول الأديبة الوجودية «سيمون دى بوفوار» : إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب «برجيت باردو» وجعلها ملكة الإغراء والفتنة . . فالذى ينظر إلى هذه الفاتنة يجدها طفلة . . عيناها وشفتاها ودلعها . . كلها تؤكد طفولتها . ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلا . ولم يحب أنثى ناضجة . لقد أكد ذلك فساد ذوق الفرنسيين وشذوذهم أيضا ! لقد فضحوا أنفسهم . . أكدوا لنا دون أن يدروا بأنهم شواذ . . وأنهم مرضى ! .

وقالت أيضا : إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف طوابير بالألوف يتفرج على تابوت «توت عنخ أمون» ، ذلك الملك الطفل ، والذى لاقيمة له فى تاريخ بلاده ، وإنما هو صاحب المقبرة الوحيدة التى اكتشفوها سليمة . فالمقبرة هى التى وهبته الشهرة والحياة . . والشباب الفرنسى وقف مفتونًا بما يرى . . لماذا ؟! لأن الشباب الفرنسى يتفرج على نفسه ، فالملك توت طفل . . وهو صاحب التابوت الوحيد الذى لم يجد فيه الباحثون عضو الذكر . . بينما كل التوابيت الفرعونية قد بقى لأصحابها هذا العضو . . إلا توت عنخ أمون . . فهو نموذج للعجز الذى عند الشباب الفرنسى . وكان حب الشبان للملك توت ، هو حبهم لأنفسهم . . وكشف لهم . . لحقيقتهم الجسمية والنفسية ! .

* * *

وأشهر فضيحتين فى الأدبين - القديم والحديث - فضيحة «لوكريشيا» ، والتى اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعا لهم . . ومن أحسن الذين تناولوا فضيحة «لوكريشيا» الأديب الفرنسى «جان جيرودو» عميد المسرح الفرنسى . فكتب مسرحية بعنوان (من أجل لوكرس) . وقد ترجمتها أنا إلى العربية بعنوان : (من أجل سواد عينيها) . .

ثم فضيحة «انستاسيا» فى مسرحية للأديب السويسرى «ديرنمات» بعنوان (زيارة السيدة العجوز) . . وقد ترجمتها أيضا إلى العربية وبنفس الاسم . وقد ظهرت على الشاشة بعنوان (الزيارة) . .

أما «لوكريشيا» فتقول الأساطير القديمة : إنها كانت سيدة فاضلة ، وإنها كانت حديث المدينة كلها . . وكان زوجها «كوتيلوس» فى إحدى الحانات يباهى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته . . وفى نفس الوقت يتحدى الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته الآن فى وضع محترم . . وتضايق الأصدقاء . وذهب كل واحد إلى بيته ليجد امرأته فى حضن رجل آخر . . إلا «لوكريشيا» ، فقد كانت ترتب فراشها وتطهو طعامها . . وقد تضايق أحد الأمراء من ذلك . . وقرر أن يمرغ «لوكريشيا» هى وزوجها فى الوحل . . فهى جميلة ، وهى فاضلة ، وهى مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات . فذهب إليها وفى يده خنجر . وهددها ، وهدد حياتها إذا لم تستسلم له ، فسوف يقتل خادمها الزنجى ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس : إنها كانت تخون زوجها ، وإنه لذلك قتلها . فاستسلمت له . وذهبت «لوكريشيا» إلى زوجها

وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه . واعترفت لهم بما حدث . وأنها لاتستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب . وأنها تريد أن يظل اسمها رمزا للشرف . ثم انتحرت ، ونهض زوجها وأخرج السيف من بطنها وقرر الانتقام . .

وفى مسرحية «جان جيرودو» تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا «لوكريشيا» ، التى تترفع عن مشاركة هذه الزوجات المنحلات ، ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . . فقد بعثن برجل إليها فى البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التى تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح «لوكريشيا» منحطة سافلة كبقية النساء . . ولم تفلح المكيدة . . فلم تنحط امرأة ، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى «لوكريشيا» . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . . والنساء لم يفضحن واحدة منهن ، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال ! .

أما فضيحة «انستاسيا» بطلة (زيارة السيدة العجوز) . . فقد كانت تحب رجلا . والرجل فى إحدى القرى ، والقرية فقيرة جدا . وهى غنية جدا . وجاءت تنتقم . . كانت أتوبيساتها محملة بالبضائع والطعام وأشبعت الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبها ، وهى إعدام الرجل الذى خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . . وراحت القرية تحفر قبرا للرجل ، والناس ذهابا وإيابا يشاهدون القبر . . بل إن الرجل الذى جاءت تنتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبرا . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهرهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .

فالمرأة العجوز لم تفضح شخصا واحدا . . وإنما فضحت مدينة كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلا من أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبرا لرجل لايزال حيا؟ . . ولأن امرأة جاءت تصفى حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل ؟! .

والجواب : الرغيف أقوى . .

* * *

إنها الفضيحة ، إنه الشعور بالعار والعرى . . فى مرآتك أنت أو مرآة الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .

إنه شعور بالخجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .

ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع فى الفضيحة . . وأن يتجاوزها . . ليقع فى واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال .

قال الشاعر القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه

وما سمى القلب إلا لأنه يتقلب

فالإنسان ينسى . . وقلبه يتقلب . . وعقله يبحث عن الغطاء ، وإذا صنع الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا .

فمن فضيحة آدم وحواء فى الجنة ، إلى فضيحة أمريكا وروسيا فى حرب النجوم !! .

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . . إنما هو من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجمل . . سموا بالإنسان وعلوا بمشاعره ، وحرصا على الحياة الأهدأ والأجمل على أرض غير هذه الأرض . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط : إنما نغير مواقع القتال وبنفس الأسلحة ولنفس الأهداف ! .

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية ! .

فى انتظار .. أى نوح!

يجب الوقوف كثيرا عند حكاية الطوفان ونوح ـ عليه السلام ـ . .

يقال : إن نوحا ـ عليه السلام ـ ظل يدعو قومه ٩٥٠ عاما . . ـب . . تعذب . . كفر بهم لأنهم كفروا به . . فطلب من الله أن ـهلكهم جميعا ، فهم لايستحقون هذه الحياة . . فألهمه الله أن ـومه لايستحقون إلا الموت . . وأن الله سوف يقضى عليهم . وألهم ـوحا بأنه سوف يغرق الأرض ومن عليها . . ولن ينجو من عذاب الله إلا المؤمنون به . . وكانوا من أهله . . ويقال : كان عددهم ثمانية . . نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم . . ويقال : كان ـددهم ثمانين .

واستراح نوح إلى هذا العقاب الذى يستحقه أهله . . وطلب إليه الله أن يزرع شجرة . . وزرع الشجرة ونمت وازدهرت وطالت ـروعها . . وعاش أربعين عاما . . وأمره الله أن يقطعها وأن يصنع ـنها السفينة . . لكى يكون مادة للسخرية . . فقد كانت السفينة ـلى الأرض بعيدا عن البحر . . طبيعى أن يسخروا من رجل يبنى ـفينة بعيدا عن البحر . . كيف يجرها إليه؟ أو : كيف يجر البحر ـيأتى إليها؟ . . وأحس الناس أنهم كانوا على حق فى الكفر به . . لأنه رجل يبنى سفينة على الأرض وليس على شاطئ البحر . . ـسقطت الأمطار غزيرة . . وهربت الحيوانات إلى نوح ، وأمره الله

أن يأخذ من كل زوجين اثنين . وكانت السفينة من ثلاثة طوابق . الطابق الأعلى للطيور ، والطابق الأوسط له ولأسرته ، والطابق السفلي للحيوانات . .

وقد مات لنوح واحد من أبنائه قبل الطوفان . .

ولما جاء الطوفان رفض أحد أبنائه أن يركب مع والده . . وقرر أن يسبح بعيدا عن السفينة ؛ لأنه سيأوى إلى جبل . . أى جبل . . وحذره أبوه . . ولكنه لم يستمع للنصيحة فغرق . .

وفي نفس الوقت كانت هناك أم عندها طفل رضيع . . هربت به إلى أحد الجبال . . وكلما ارتفع الماء صعدت إلى أعلى الجبل . . ومازال الماء يطاردها ، وهي ترفع طفلها بذراعيها إلى ما فوق رأسها عند قمة الجبل . . وأدركها الماء حتى غرقت وكذلك طفلها . . إنها تقاوم القدر . . فالقدر أن يموت كل أولاد آدم . . ولتبدأ البشرية من جديد بأولاد نوح . . فنوح هو آدم الجديد . . أو : آدم الثاني . .

وسقطت الأمطار أربعين يوما . . وكان نوح في مدينة الكوفة أو البصرة . . وظلت السفينة تسبح فوق الموج . . ثم استقرت على جبل «الجودى» الذى هو الآن جبل «أرارات» على حدود أرمينيا وتركيا . . ومن السفينة أطلق نوح حمامة ، وبعد أيام عادت وفي قدميها وحل . . أى أنها وقفت على الأرض . . ثم أطلق غرابا . . وعاد الغراب في منقاره غصن زيتون . . إذن هناك أرض . . وهناك أشجار . . ونزل نوح وأولاده وبنوا قرية اسمها قرية الثمانية . .

انتهت قصة نوح . . قصة الذين كفروا بالرسالة واستحقوا العقاب . . وقصة صاحب الدعوة الذى أنقذ البشرية بإهلاك الفاسدين منها . . ثم البداية الجديدة لخلق جديد . . وقد استعد

نوح بكل وسائل النجاة : الفكرة والنظرية وأداة النجاة وبذور الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية على أرض قد طهرها الطوفان . .

ولم يكفر بنوح قومه فقط ، وإنما كفرت به زوجته وواحد من أبنائه . . وقبل ذلك كفرت زوجة نبى آخر - هو لوط - فدعا عليها أن تكون عمودا من الملح . . وأن تنهار ترابا على تراب . .

فعلا : كل نبى في وطنه مهان . . ليس في وطنه فقط ، بل في بيته . . في أهله عند زوجته وأولاده ! .

وتغيرت أشكال الطوفان ومكانه وأسبابه . . ولكن عندما يكون طوفان فإننا نتطلع إلى نوح . . أى نوح . .

ولكن الطوفان أصبح الآن من صنع الإنسان . . وكذلك نوح لابد أن يكون من صنع الإنسان . .

فالطوفان صناعة إنسانية . .

والمصلحون سياسيون وعلماء ورجال دين ومفكرون . . وكلهم بشر . .

وكل أصحاب النظريات في السياسة والاقتصاد والفلسفة والأخلاق والطب . . كلهم نوح . . أولاد نوح . . أولاد آدم الثاني . . فآدم الأول طرده الله من الجنة ؛ لأنه أطاع زوجته في معصية الله . .

فأمر الله أن يهبط آدم وزوجته ليكون كل منهما عدوا للآخر . . وعذاب آدم أن يتزوج حواء ، وعذاب حواء أن تحمل وتلد وترضع . . وعذاب الحية التى استدرجت حواء إلى الخطأ أن تبتلع أرجلها وتزحف على بطنها إلى يوم القيامة . .

أما أولاد نوح فهم يستأنفون العذاب .. صناعة العذاب والتخلص منه .. فأولاد نوح هم الذين يزرعون جنتهم على الأرض ويقتلعون أشجارها ويخطفون ثمارها ويتحاربون .. بعضهم لبعض عدو إلى الأبد ..

ومشكلة أبناء نوح أنهم الذين يصنعون المرض ، وهم الذين يصنعون له العلاج .. ومشكلتهم أيضا أنهم ينتظرون نوحا .. ولايجيء .. فإذا لم يأت فإنهم يزيفونه .. وكما عاش نوح بين قومه الكافرين .. فإننا نعانى أيضا من المصلحين النصابين ..

وعند كل مأساة نتطلع إلى نوح ..

وبعد كل كارثة فى الحرب أو فى الفكر ننتظر نوحا جديدا .. ويكون نوحا أديبا ويكون رساما ويكون طبيبا وسياسيا وزعيما وقائدا .. ويدعى ذلك لصوص وسفاحون ..

وويلات الإنسانية كلها سببها الذين يرتدون ملابس نوح ..

وقد جربنا كثيرا أنه فى الأزمات تختل موازين الرؤية والرأى : فيتوهم الناس من ليس نوحا أنه نوح جديد ويمشون وراءه .. ويضلون .. فهم الذين اختاروا الضلال ، عندما قرروا أن يختاروا الهداية .. إنهم واهمون يتعجلون الخلاص .. فأسلموا أمرهم لأى واحد يدعى الهداية ..

وفى أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط ضلت الملايين وراء الأنبياء الكاذبين والمصلحين الفاسدين .. كيف حدث ذلك ؟ .

الناس يريدون النجاة بأى شكل .. فلما جاء أى شكل صدقوه .. وفى أمريكا سار الشبان بالمئات وراء أدعياء النبوة .. وانتحروا معا .. فهم ضاقوا بالحياة واختاروا الموت ..

فهم الذين قلبوا قصة نوح .. فهم لم يهلكوا أولا ، وإنما ساروا وراء النبى الكذاب لكى يعيشوا فماتوا ..

وبدلا من أن ينجوا من الطوفان ألقوا بأنفسهم فى الطوفان ..

فكأنهم لم يريدوا النجاة ، وإنما أرادوا الموت لكى ينجوا من الحياة ..

فقد جاءهم النبى ، أو أنهم صنعوه .. وساروا وراءه لا إلى النجاة ، وإنما إلى الهلاك !

وفى أمريكا ـ وبعد حرب فيتنام ـ ظهر أناس كثيرون من الأمريكان ومن الشرق الأقصى يدعون الناس إلى الخلاص من طاحونة المجتمع الصناعى الكبير .. الذى يطحن إنسانية الإنسان ويجرده من شرف الإنسانية ونبل المثل العليا .. وجعلوهم ينسحبون من الحياة ويقفون وينامون على هوامشها .. فابن الغنى اختار الرصيف ، وأبوه اختار له السرير الحرير .. واختار الشاب أن يعيش مسطولا ليلا ونهارا مع فتاة لايرى إلا جانبا من جسمها .. وبعد أيام تعلن أنها حامل وأنه أبو الطفل .. فهو طفل قد أنجب طفلا .. ولكن لايعتذر عن كل ذلك .. لأن زوجته من اختياره ، والطفل من اختيارهما .. والضياع والتيه الفلسفة التى يمشيان وراءها .. ووراءهما يبكى الأبوان والإخوة والأقارب .. فدموع المجتمع هى قطرات الطوفان الأمريكى الذى يدفع الشبان إلى الموت هربا من حياة صناعية اصطناعية مزيفة مفبركة ..

وفى مواجهة طوفان الفقراء والأغنياء ظهر «كارل ماركس» يدعو إلى تجريد الأغنياء من أحلامهم وسلطانهم ليتساووا بالفقراء والمعدمين ..

وقبل ذلك نادى الفلاسفة بأن الحقيقة هى الدولة ، والأفراد خلايا الدولة . لا وجود لهم ولانحن إلا فى الجسم الكبير . . فالعين لاترى إلا من جسد وفى جسد ومن أجل جسد . . وكذلك الساق والمعدة والعقل . . كلها من غير جسد لا وجود لها . . ومن غير جسد لا وظيفة لها . . فأنت جزء والدولة كل . . والدولة هى الحقيقة المؤكدة ، والفناء فيها هو الحياة . . والدولة هى إرادة رأس الدولة . . فلا إرادة لأحد . . ولا الدولة إلا ما يريده السلطان . . الحاكم . . الرئيس . . الإمبراطور . . البابا . .

واشتعلت الحروب فى الدنيا . . وخربت الدنيا . .

ومن خرائب الحروب تعالت صيحات نوح . . ألف نوح . . بأن النجاة هى فى أن يكون المواطن حرا . . فردا حرا . . هو أهم من الدولة . . وهو أعظم من السلطان . والسلطان الذى يحترم نفسه هو الذى يحترم ملايين السلاطين الذين هم المواطنون العاديون . . ثم إنه لايوجد مواطن عادى ومواطن غير عادى . . فكل الأحرار سواء . .

وكانت هذه صرخة الفلسفة الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية . . وتعالت الصيحات المتمردة : واتخذ كل نوح مذهبا وطوقا للنجاة وسفينة من خشب أو من ورق أو من معدن . . ودعا الناس إلى النجاة . .

وظهرت المذاهب الفنية فى الرسم مثل السريالية والتكعيبية والجوشية والتلقائية . .

وظهرت المدارس الأدبية والنقدية . .

وظهرت المدارس المسرحية . . ومن أهمها وأخطرها وأقصرها عمرا : مدرسة العبث . .

أى : المدرسة التى تسجل على الإنسان فشله فى أن يكون حيوانا عاقلا . . وإنما حيوان ناطق . . ينطق ، وليس من الضرورى أن يكون عاقلا . . لأن الذى يستمع إليه ويتفرج عليه ليس عاقلا أيضا . . فما جدوى العقل لمن لاعقل له ؟ . . وما جدوى النطق لمن لامنطق له . . وليس فى نيته أن يكون كذلك . . لماذا ؟ . . فقد فشلت كل المدارس المنطقية والفلسفات الشيوعية والوجودية والمثالية والواقعية والتحليلية ، والوضعية المنطقية ومدارس الشك والملحدين والمتطرفين . .

كل ذلك فشل . . وأنبياء هذه المدرسة لم يكن لهم كرامة فى أوطانهم وأهليهم . .

والإنسان قد أدمن الطوفان . . وأدمن الأنبياء أيضا . . إذا لم يجدهم خلقهم ، وإذا طال انتظاره لهم صنعهم . . وإذا ظهروا من تلقاء أنفسهم كفر بهم وقاومهم . .

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع عقيدته ويفرز أنبياءه ويغرق معهم فى طوفان واحد !

ثم إن نوح الجديد شاب . . يعيش شابا ويموت شابا أيضا . . أما نوح ـ عليه السلام ـ فقد عاش أكثر من ألف سنة !!

أما نوح الحديث فمن النادر أن يعيش بعد الطوفان . . أى يجىء وسط الطوفان ويلقى بأطواق النجاة ويقيم الجسور . . ويموت قبل أن ينشر مذهبه . . أو ينجو المجتمع الذى ظهر فيه . .

وفى عالم العبث مسرحية للأديب الإيرلندى «بيكيت» اسمها (فى انتظار جودو) . . أى فى انتظار نوح . . أو : نظرية جديدة . . أو : طوق للنجاة . . أو : وسيلة لإنقاذ الناس من الضياع واللامبالاة وانعدام الأمل واليأس معا . . وينتظر وصوله اثنان من الناس يتحاوران بقرف . . ولايجىء . . فقط يكون له وجود مسرحى . . ويكون على شكل انتظار أو احتمال المجىء ، ويكون وجوده المحتمل هو الوجود الوحيد الممكن . . فالناس يتطلعون إليه بعين واحدة . . أو بنصف الوعى ، أو بنصف الأمل ، ونصف اليأس . . وتنتهى المسرحية ، ولايجىء . . أما المعنى فهو الانتظار العقيم ! .

والإنسان هو الحيوان الذى يصنع أدوات حياته . . يصنع أدوات حياته وأدوات وفاته أيضا . . وهو الذى يضع أحلامه وأوهامه . . وكما يتعجل الإنسان الحياة ، يتعجل الموت أيضا . .

وكما يتعجل النجاة يتطوع بالانتحار . .

والإنسان هو خالق أبنائه وقاتلهم أيضا .

ومشكلة هذا الزمان هى أبناؤه الصغار . . وهم لأنهم صغار فهم فى غاية العنف . . ولذلك كان كتابهم المقدس فى يد ، والقنبلة فى اليد الأخرى . . حتى أصبحت القنابل والرصاص هى النقط التى يضعونها فوق حروف كتابهم المقدس . . وحتى أصبحت انفجارات القنابل هى الدقات التقليدية لمسرح العبث العنيف ، أو العنف العابث . .

أى : فرض المنطق بالنار ، أو : فرض النار بالمنطق . .

وإذا كان منطقا فلماذا النار؟ وإذا كانوا جهنميين فلماذا المنطق؟ . . ولكنه زمان العبث العنيف !

أما الكتاب المقدس ، فاسمه يتغير من زمن إلى زمن . . ومن بلد إلى بلد . . وكل كتاب فى يد الشباب مقدس !!

ولذلك كل الحروب مقدسة ، ولم نقرأ عن حرب لم توصف بأنها مقدسة ، ولم نقرأ عن وطن ليست أرضه مقدسة . . كل الأرض بما فيها من حظائر للخنازير وسجون ومستنقعات . . وكل الدماء زكية ، وكل الضحايا والقتلة شهداء ، وكل المسدسات والمدافع والقنابل والصواريخ أسرع وسائل الانتقال من الدنيا إلى الجنة ! .

* * *

وكما أن سفن الفضاء تحتاج إلى صاروخ يشدها من جاذبية الأرض . . فلابد من صاروخ آخر يضعها فى مدار ثابت حول الأرض . . ولابد من صاروخ يعيدها إلى الأرض . . أو يضعها فى مدار حول القمر ، ثم صاروخ يهبط بها على سطح القمر ، وصاروخ يرفعها بعيدا عن جاذبية القمر . . ثم صاروخ يعيدها إلى الأرض .

وكل تاريخ الإنسانية وتقدمها العلمى ليس إلا انطلاقة وبعدها انطلاقة ، ولذلك تقدمت الإنسانية فى صناعة أدواتها : أدوات حياتها وأدوات استمرارها وأدوات فنائها أيضا . . وأصحاب هذه الدفعات والانطلاقات هم أبناء العصر الحديث . . هم العالم والطبيب والمهندس والفلكى والزعيم . .

ولم يأت أنبياء الله لإصلاح أدوات الحياة ، وإنما لإصلاح ما هو أصعب من ذلك . . إصلاح طبيعة الإنسان . .

فأدوات الحياة تقدمت وتطورت من الطوبة التى كان يرمى بها الإنسان عدوه لكى يقتله ، إلى الصاروخ والقنبلة الذرية . . بينما طبيعة الإنسان نفسه لم تتغير ، فهو لايزال يعيش مع زوجته وأولاده فى بيت خاص به . . يكره ويحب ويغار وييأس ويحقد ثم يموت . . وإصلاح طبيعة الإنسان أصعب ملايين المرات من إقامة مصنع لإنتاج الشوك والسكاكين يستخدمها بدلا من أصابعه . . بل من الممكن لأى إنسان عنده ملايين الجنيهات أن يبنى مفاعلا نوويا ، ثم يقف أمام باب هذا المصنع الجبار ويتلفت يمينا وشمالا فإذا لم يجد أحد ، يبصق على الأرض أو يتبول على الجدران . .

ويقال : إن المليونير «روتشيلد» عندما افتتح أحد بنوكه فى ألمانيا وراح يتنقل وحده فى غرف البنك ـ وكان خاليا من الناس ـ . . تلفت حوله ثم أخفى أحد الأقلام فى جيبه ! .

وقال علماء النفس : إن الإنسان لص بطبعه ! . . لقد سرق نفسه . . تماما كأنه تلفت وراءه وأمامه ثم أخذ قلما من جيبه ووضعه فى جيب آخر . . سرق نفسه . .

وكذلك الإنسان الذى ينتحر . .

إنه قاتل لنفسه . . سارق لنفسه . . معذب لنفسه . . مخيف لنفسه . . يصنع أدوات حياته وأدوات موته أيضا .

لذلك كانت مهمة أنبياء السماء صعبة ، وأما أنبياء الأرض فكانت ـ ولاتزال ـ مهمتهم أسهل . . ولذلك كانوا كثيرين وكانوا قصيرى العمر . .

وأصبح الطوفان الحديث ليس هو الفساد الطاغى على كل شىء . . وإنما طوفان آخر من الأنبياء المضللين والزعماء النصابين . .

ولكى ننجو من الطوفان لابد من نوح ينقذنا من ألفى نوح . . لابد من نظرية . . من صاحب نظرية قادرة على ابتلاع كل النظريات . . لابد من عصا موسى لتبتلع كل ما فى أيدى الكذابين والنصابين . .

وفى السماء شىء من مثل ذلك ، ففى السماء (ثقوب سوداء) . . هذه الثقوب ليست ثقوبا ، وإنما هى مساحات سوداء هائلة ، كأنها وسط النجوم الباهرة ثقوب ، وهى فى الحقيقة نجوم ذات جاذبية وكثافة هائلة . . كأنها بالوعات قوية تبتلع ملايين النجوم . . انظر إلى البالوعة وكيف ينزل فيها الماء وكيف يدور وهو داخلها . . ثم إن هذه الثقوب السوداء تبتلع الأشعة الخارجة منها . . وكل الأشعة ـ كما قال «اينشتين» ـ مكونة من ذرات مادية . . والثقوب تبلع أشعتها هى . . ومادامت قد ابتلعت الأشعة نحن لانراها . . ولذلك فهى ثقوب سوداء . . ملايين النجوم تبتلع ملايين ملايين النجوم . .

ولايزال الكون يبتلع بعضه بعضًا . . حتى يتكدس ويتكاثف ويتكاثف ألوف ملايين السنين . . حتى يصبح شيئا واحدا . . جزءا واحدا . . ولايزال يتكاثف حتى يصبح ذرة أو أقل من ذرة أو واحداً من مليون مليون مليون من الذرة ، وتكون هذه هى نهاية الكون . . نهاية المكان والزمان . . ومن هذه النهاية يحدث الانفجار العظيم مرة أخرى . . ويتكاثر الكون ذرات وطاقات ومغناطيسية وحرارة

وغازات . . وتتطوح فى الفضاء الذى يولد مع هذه الذرات . . وتبرد وتتكاثف وتدور بعضها حول بعض ، ومن الدوران والجاذبية والمغناطيسية ومن الحرارة ومن التفاعلات الكيميائية تتولد المادة ، ومن المادة الحياة ، ومن الحياة الحيوان والنبات ، ومن هذا الكون ونشأته . . وهكذا إلى ما لا نهاية . .

فكل شىء يبدأ ويكبر ويتطاير ويمتد لينكمش بعد ألوف ملايين السنين . . وينتهى ويبدأ إلى مالا نهاية . هذه هى كل معلوماتنا من الفيزياء الفلكية . . إلا إذا ظهرت نظريات أخرى . .

وفى حياتنا أيضا . . كل شىء يبدأ وينتهى ويبدأ ويتكاثر وينتهى . . والعقل يفكر ويحلل وينظر ويتطور وينتهى ، وتجىء عقول تضيف جديدا إلى كل الذى مضى . .

وليس أسهل على الإنسان من تطويره لأطرافه الصناعية : السيارات والطائرات وسفن الفضاء والعدسات . فالتكنولوجيا هى علم وفن تطبيق النظريات العلمية . . والتكنولوجيا هى علم صناعة (الأطراف الصناعية للإنسان) . . العدسات بدلا من العين ، والطيارات بدلا من الساقين . . والتليفونات بدلا من الحناجر . .

أما الذى هو وراء كل ذلك فهو عقل وقلب ومعدة الإنسان ، وإليها اتجه أنبياء الله فى أصعب مهمة ، وهى أن يسود الخير والعدل والسلام . .

ومشكلة الإنسان فى كل العصور أن الأنبياء الذين يفرزهم لايكتفون بإصلاح حياة الإنسان ، وإنما يحاولون إصلاح طبيعته . . أى كأنهم أنبياء من عند الله وليسوا من عند الناس . .

ولذلك فهذا الادعاء هو الذى جعلهم يصفون أهدافهم بأنها مقدسة ، وحروبهم بأنها مقدسة ، وأرضهم مقدسة ، وموتنا من أجلهم وأفكارهم موتا مقدسا . . أى أننا جميعا شهداء . . وأعداؤنا أيضا لابد أنهم أنبياء من صنعهم . . فهم أيضا مقدسون شهداء ، وحروبهم كلها فى سبيل الله !

ومشكلة البشرية فى كل العصور ليست هى انتظار الأنبياء ، وإنما مشكلتهم أن الأنبياء إذا انتصروا بعض الوقت ، فإنهم يحاولون إقناع الناس بأنهم يصنعونهم ؛ وإنما هم أنبياء من السماء . . أى أنهم جاءوا من السماء ، ولم يأت بهم أحد من الأرض . . وأن الناس يجب أن ينظروا إليهم على أنهم آلهة . . أو نصف آلهة على الأقل ! .

ولأن الأنبياء الجدد من صنع الإنسان ، فإنهم يحاولون دائمًا أن يفلتوا من قبضة الشعوب . . وهنا ترى الشعوب أن أنبياءها قد كذبوا عليهم وخدعوهم . . وجردوهم من حقهم التاريخى فى صنع أنبيائهم . .

وتنقلب الأوضاع ، فتصبح مقاومة هؤلاء الأنبياء مقاومة مقدسة . . والحرب ضدهم مقدسة . . والقضاء عليهم ، كالقضاء على أعدائهم ، مقدس أيضا . . وفى هذه الحرب المقدسة يصبح الأنبياء نصابين مجرمين . . وتصبح الشعوب كلها من الأنبياء . . وكلهم مؤمنون ضد كافر واحد . . كافر بهم . . بأنهم هم الذين أتوا به . .

والأنبياء من الشبان . . فهم مستعدون للنبوة وللرسالة وهم صغار . . يراقبون ويحللون وينصحون ثم يدعون الناس . .

فنوح ـ عليه السلام ـ بدأ دعوته في ربع عمره . . كان عمره ٣٥٠ عاما ، ودعاهم ٩٥٠ عاما وعاش بعد ذلك ٣٥٠ عاما . .

وهم شبان متجهون إلى الشبان . . أى إلى المستقبل . . لأن كبار السن لا أمل فيهم . . أو أن الأمل منهم قليل . . فقد جمدوا على وضع ، ومن الصعب تحريكهم بعيدا . . والشبان لأنهم صغار عندهم طموح وفيهم حيوية . . ويتطلعون إلى الأمام . . وهم فى حاجة إلى من يأخذ بيدهم . . يهديهم . . يرشدهم . . يثبت أقدامهم يؤكد لهم : أن الضياء التى يرونها ليست سرابا ، وأن الموسيقى التى يسمعونها ليست صفير الريح ، وفحيح الأفاعى . . وأنهم ولدوا ليعيشوا . . ويعيشون ليسودوا مصيرهم . .

فماذا يريد شباب العالم اليوم ؟ .

أما الطوفان فله فى كل بلد اسم ورسم . . وأما القلق والخوف والعذاب واليأس فسحاب على رءوس الجميع ، والناس صيادون فى بحر الحياة . . وكما فى البحر كائنات حية ، ففيه جيف أيضا . . وكما على الشاطئ صيادون ، فهناك نصابون يصيدون الناس . . فما المطلوب ؟ .

المطلوب : هو أن نجد صاحب النظرية الصادق المخلص . .

فلا ينقص هذه الآراء المهوسة والمشاعر المضطربة والمخاوف المتلاطمة ، لاينقصها جميعا إلا إطار .

إطار النظرية ، والنظرية تنظم هذه الفوضى ، وتضع لها أولا وأخرا . . أولها اليوم ، وأخرها غدا ، وبعد غد ، إلى عشرات السنين .

وتكون النظرية اقتصادية . .

أو تكون سياسية . .

أو تكون دينية . .

وكما أن الإنسان صانع أدوات حياته ، فهو أيضا صانع نظريات حياته ونجاته من الطوفان . .

فلابد من نوح جديد . . أكثر من نوح فى كل طوفان . .

ومن اتفاق نوح هنا ونوح هناك ، يكون النظام الذى يربط العالم كله . . النظام المثالى الذى تتطلع إليه الشعوب فى كل العصور . . بشرط . . بشرط ألا يكون النظام خانقا . . يقضى على آمال الشعوب فى السلام والرفاهية والعدل والحرية . . فإذا خنقها واختنقت أفرزت الشعوب من جديد ألف نوح يضعونها على الطريق الصحيح . . فإذا انحرف نوح وضللهم ـ وقد حدث كثيرا ـ انحسروا وتخلوا عنه وراحوا يزرعون أشجارهم ، وليبنوا منها سفنهم . .

ويكون نوح هو أول ضحايا الطوفان . .

إن الشعوب مع أبنائها لها مشكلة وحيدة . . وهى أن نوح ينسى عندما يحكم ويتحكم أنه كان واحدا منهم . . وأنهم رفعوه فوق . . عندما نسى أنه كان تحت . . واحدا من ملايين ، وأصبح واحدا فوق رءوس الملايين . .

المصيبة أن الشعوب لاتنسى ، وأن نوح هو الذى ينسى ، بل يمارس صناعة النسيان على الشعوب . . يريدها أن تنسى أنه كان واحدا منهم ، فلا تذكر إلا أنه فوق . . لأنه ولد ليكون فوق ، وأنهم ولدوا ليكونوا تحت . .

ومما ينساه نوح هذا أن الذين جلسوا قبل ذلك فى مكانه الرفيع كان قبرهم الطوفان . . وموتهم محققا وبلا جنازة . . فلا أحد يمشى فى جنازة قاتليه . . ! .

السادات
حكايات وروايات !

(١)

كانت هناك محاولة لاغتيال السادات فى كامب دافيد .

هذا ما قاله «كارتر» فى مذكراته ، وكذلك زوجته ومستشار الأمن القومى «برزنسكى» . وأشاروا من بعيد إلى أن هذه المحاولة قد دبرها د . أسامة الباز وآخرون . واتفقت مع د . أسامة الباز أن أحكى هذه الحكاية بالتفصيل ، ثم يرد هو على هذه الاتهامات . ومن المعروف أن أسامة الباز كان ينحاز تماما إلى الجانب المعادى لإسرائيل ، وأنه وراء كل ما هو فلسطينى . ويقال : إن الفلسطينيين فى مفاوضاتهم السرية مع إسرائيل من أجل السلام لم يخطروا أسامة الباز بمعظم خطواتهم . إما إمعانا فى السرية ، وإما استجابة لرغبة إسرائيل .

المهم أننى نشرت محاولة الاغتيال وظروفها بالتفصيل فى صفحات كثيرة فى جريدة (مايو) . وهرب أسامة الباز ولم يرد . واكتفى بهذه الاتهامات أشكالا وألوانا من الرئيس الأمريكى وزوجته ومستشاره ووزير خارجيته ومن «موشى ديان» أيضا ! .

وسألت الرئيس حسنى مبارك عن هذه الواقعة ، التى لم تقع . . فنفى الرئيس مبارك وجود أية محاولة لاغتيال الرئيس السادات .

وإنما كانت هناك مناقشات عالية النبرة بين أعضاء الوفد المصرى ، فظنها الأمريكان - أو ظنها الرئيس الأمريكى - استعدادا للانقضاض على الرئيس السادات . .

والذى حدث - كما رواه كارتر وزوجته ومستشاره ووزير خارجيته «سيروس فانس» فى مذكراته - أن كارتر قد طلب من مستشار الأمن القومى ألا يضع أجهزة للتصنت الإلكترونى عند المصريين أو عند الإسرائيليين ؛ لأنه لا يريد تعقيد الموقف بينهم جميعا . ولذلك «فكارتر» ورجال المخابرات لم يعرفوا ما كان يدور فى مناقشاتهم جميعا ، لا ليلا ولا نهارا . . ولكن حدث شىء غير عادى فى إحدى الليالى . فقد تعالت مناقشات المصريين ، والأمريكان لا يدرون ماذا يقال . ثم إن الرئيس السادات قد أوى إلى فراشه مبكرا . وطلب ألا يوقظه أحد فى اليوم التالى . وانزعج الرئيس الأمريكى «كارتر» .

واستدعى الرئيس «كارتر» مستشاره «برزنسكى» وطلب أن يجىء بالبيجاما . وجاءه وحكى له مخاوفه من أن يكون اغتيال الرئيس السادات قد حدث . وتصبح كارثة كبرى ونكسة للسلام وهزيمة فظيعة «لكارتر» . . فقد ترك «كارتر» حكم أمريكا وشئون الدنيا وتفرغ لعملية السلام . ولم يستطع برزنسكى أن يساعده على فهم هذه المشكلة . فلا عنده معلومات ولا أجهزة تنقل إليه ما يدور فى المعسكر المصرى . .

ولم يظهر الرئيس السادات فى الساعة السادسة صباحا ليمشى كما هى العادة . . ومضت السادسة ومن بعدها

السابعة . . وأخيراً رأى «كارتر» الرئيس السادات ببنطلونه القصير وحذائه الأبيض . . هنا تساند كارتر على زوجته وقال : الحمد لله !

ودخل إلى الفراش لينام بضع ساعات . فقد ظل ساهرا قلقا طول الليل هو وزوجته ! .

وعندما جاء الرئيس «كارتر» إلى القاهرة جلسنا إليه أربعة من رؤساء التحرير فى فيلا للضيافة فى مصر الجديدة . سألته : يا سيادة الرئيس أنت رويت حكاية اغتيال السادات بشكل ، والسيدة حرمكم روتها بشكل آخر . . فما الحقيقة ؟ .

فضحك الرئيس «كارتر» وقال لى : أحكى لك حكاية : إننى متزوج من خمسين عاما . ولم أعرف أننى مختلف عن زوجتى فى كل شىء . . فى كل شىء ، إلا بعد أن تركت البيت الأبيض . مختلفان لدرجة أننى أتساءل : كيف تزوجنا ؟ فأنا لم أكن أعرف قط أن زوجتى تقرأ فى السرير ويظل النور مفتوحا إلى ما بعد منتصف الليل . . لم أكن أعرف أننى أنا الذى أصنع لنفسى القهوة كل صباح . . لم أكن أعرف أننى أنا الذى أبحث لنفسى عن قميص وبنطلون كل يوم . . لم أكن أعرف أننى الذى أتغطى بالبطانية وزوجتى لاتحب الغطاء . . كل ذلك عرفته بعد أن خرجت من البيت الأبيض . . واندهشت . . ولكن عرفت أن حياتى السياسية قد استغرقت لدرجة أننى تركت لها تدبير كل شىء فى حياتنا . . فليس غريبا أن تسمع حكاية واحدة بشكلين مختلفين منى ومنها . . وأحكى لك حكاية أخرى . . : لقد اتفقت مع زوجتى على كتابة مذكراتنا . . ووضعنا خطة للعمل ، هى أن تكتب جانبا من حياتنا من وجهة نظرها وجانبا آخر أكتبه أنا من

وجهة نظرى ، حتى لاتكرر رواية الحادث الواحد . . واتفقنا على ألا يزيد الفصل الواحد على عشر صفحات . واختلفنا من أول لحظة . فقد كتبت هى كل شىء عنى . ولم أجد ما أقوله أنا . ثم إننى التزمت بعدد الصفحات وهى لم تلتزم . فكنت أكتب الصفحات التسع فتكتب هى العشرين . واختلفنا . واتفقنا على أن الذى أكتبه أنا أوقع عليه ، وهى كذلك . وجاء الخلاف فى عدد الصفحات . وأخيرا اتفقنا على شىء لم يحدث فى تاريخ المذكرات . أن تكتب هى أى شىء ، حتى لو كان سطرا واحدا ثم نوقع عليه . وأنا أفعل نفس الشىء ، فجاءت مذكراتنا صورة لتفكيرنا نحن الاثنين . . أو على الأصح لتفكير زوجتى وعجزى عن أن أفعل شيئا . ويبدو أن هذا هو حالنا فى الخمسين عاما الماضية . هى تتمسك برأيها وأنا ليس عندى وقت لتعديل شىء . فلما انتهى أكثر العمر استقرت هى على موقفها من كل شىء ، وأنا استسلمت لهذا القرار . . فإذا كان هذا حالنا فى البداية وفى النهاية ، فكيف لانختلف فى رواية واقعة واحدة ؟ !

(٢)

كان الرئيس السادات معتدل المزاج ، وكان يجلس تحت الشجرة التى يفضلها فى الحديقة الصغيرة باستراحة القناطر . . ووقف يحيينى ضاحكا وسألنى : ماذا أعددت لمقالى الأسبوعى ، ومن قابلت من الناس . . وماذا قالوا . . ؟

وفجأة قال : ما تيجى نلعب لعبة المخابرات ونشوف النتيجة إيه ؟ .

ولم أفهم . . واستوضحته ؛ قال : انشر عندك فى (أكتوبر) أننى أفكر فى إرسال مياه النيل إلى إسرائيل لكى يتوضأ الفلسطينيون بمياه النيل قبل صلاتهم فى المسجد الأقصى . . أنا أعرف أن هذا ممنوع دوليا ، فماء النيل لأبناء النيل . . ولكن دعنا نهز الموقف الراكد . . دعنا نرى ماذا سيقال فى إسرائيل . .

ونشرت الخبر فى الصفحة الأولى من (اتجاه الريح) . وبسرعة نقلته وكالات الأنباء . . وهاج الناس فى مصر وفى العالم العربى ، وفى إسرائيل لم يصدقوا هذه المفاجأة . وكان الرئيس السادات قد طلب منى أن أنقل إليه ردود الفعل أولا بأول . . وعند منتصف الليل طلبت الرئيس السادات وقلت له : إن «جيئولا كوهين» عضو الكنيست الإسرائيلى التى مزقت اتفاقية السلام طلبتنى وقالت لى : قل للرئيس السادات : إننا لانريد البلهارسيا من نيل مصر ! .

وضحك الرئيس . . وراح يروى هذا التعليق لكل الناس زمنا طويلا . ولم تسكت الصحف المصرية والعربية . . مع إنه كان يريد أن يعرف ماذا يقال وكيف يقال . . وقد فعل ذلك فى أمور كثيرة . وكثيرا ما طلب منى نشر أخبار بقصد تغيير مسار الأحداث واهتمامات الرأى العام فى مصر ، وفى إسرائيل وفى أمريكا . وقد نجح فى ذلك ! .

(٣)

فى كل سنة كانوا يختارون فى مدينة عكا بإسرائيل فتاة جميلة قوية الخلق لتكون (ملكة السلام) . وكانت تتقدم لهذه المسابقة عشرات الفتيات من العرب واليهود . ثم يأتون بهذه الفتاة إلى مصر . . إلى مجلة (أكتوبر) . . ثم إلى لقاء الرئيس السادات . وكانت الفتاة تذهب إلى الرئيس ومعها أبوها وأمها أو أسرتها . . وكان يسعده ذلك . .

وفى إحدى المرات قالت له ملكة السلام ـ وهى فتاة فلسطينية ـ : يا سيادة الرئيس أريد أن أسألك باسم الشعب الفلسطينى : لماذا لاتجد لنا العذر الذى تجده عادة لليهود ؟ .

– كيف يا ابنتى ؟

– لقد حققت السلام مع إسرائيل ، ولم تحققه مع الشعب الفلسطينى !

– لا يا ابنتى ، أنا ليس بينى وبين الشعب الفلسطينى عداوة ولا حرب ولا هم استولوا على أرضى . . ولكنى بينى وبين إسرائيل حروب ودماء وأرض كان لابد أن استردها بالقتال . . وكان لابد بعد أن حاربنا أن نلتقط أنفاسنا ونفكر بالعقل . والعقل قال لنا : لابد من المفاوضة بالكلام وليس بالسلاح ، وكنت قد عرضت على أهلك أن يجلسوا معنا تحت علمهم ويتفاوضوا . ولكنهم رفضوا واتهمونى بالخيانة وتصفية القضية والحل المنفرد وأننى بعت سيناء لليهود . وحاولت

معهم وتعبت يا ابنتى . لاتنسى أن الألوف من المصريين من الشباب قد ماتوا دفاعا عن الحق والعدل ، ومن أجل تحرير أرضنا وأرضكم . . أنت صغيرة . . وسوف تعرفين بعد عشر سنوات : من الغلطان . . أهلك هم الغلطانون . . ضعاف البصر والبصيرة .

وقالت ملكة السلام : كنت أحب أن أسمع ذلك منك يا سيادة الرئيس ؛ لأنقل هذه المعانى إلى زملائى وزميلاتى فى المدرسة !

(٤)

جاء المطرب الجزائرى «أنريكو ماسياس» ومعه والده إلى الرئيس السادات فى الإسماعيلية . وطلب المطرب أن يغنى للرئيس وأن يغنى للسلام .

وقال أبوه : يا سيادة الرئيس ، إن التراب الذى تحت قدميك مقدس . . فأنت رجل السلام ، وأنت أنقذت شعبى من الدمار . . فلك مكانة مقدسة فى قلوبنا ، نحن يهود العالم . .

(٥)

قلت للرئيس السادات : إن السيدة التى سوف يقابلها بعد لحظات ، قد جلست أنا إليها وتناولت معها الغذاء ، وهى من أغنى أغنياء اليهود فى أمريكا ، وقد مات زوجها فى معسكرات الاعتقال النازية وكذلك أخوها ، وعندما هاجرت إلى أمريكا كانت تبيع أمواس الحلاقة وعلب الكبريت . . واستطاعت فى عشرين عاما أن تنتقل إلى تجارة أخرى هى دبابيس الشعر ، وكانت تبيعها للزنوج ، ثم أقامت مصنعا لدبابيس الشعر . . ومصانع أخرى ، وهى تنفق الكثير من أموالها فى أعمال الخير ، وقد جاءت ومعها مصور ليلتقط صورا لها معك . . وكذلك معها صورة زوجها ، وسوف تضع صورته بينكما . فوافق الرئيس على ذلك .

وبكت السيدة وقالت له : يا سيادة الرئيس إننى أصلى من أجلك ، وقررت أن يكون دعائى إلى الله محددا ، هذه فكرة طرأت لى ، فقد طلبت من الله أن يأخذ دقيقة واحدة من عمر كل يهودى ويضيفها إلى عمرك . .

وأخرجت الحاسب الإلكترونى من حقيبتها ، ثم أخرجت منظارها الغليظ وراحت تمسحه ونحن لا نقوى على الضحك ، وبعد أن مسحت منظارها وفتحت الحاسب الإلكترونى وراحت تضرب وتطرح . . ثم قالت ـ وهى تنظر إلى السماء ـ : كل الذى طلبته منك يارب هو ٢٢ سنة تضيفها إلى عمر السادات ، إذا خصمت دقيقة واحدة من عمر كل يهودى . . إنه يستحق أكثر . . أنا طلبت هذه المرة وفى استطاعتك أن تضيف مثلها من عندك . . وسوف نصلى لك شكرا على ذلك ! يارب !

وضحك الرئيس السادات ، ولكن السيدة لم تضحك ، كأنها تنتظر ما الذى سوف يقرره الله ! .

(٦)

فى حديث طويل بين الرئيس السادات والمستشار الألمانى «هلموت شميت» وعده الرئيس بأن يكتب كتابا عن السلام فى الأديان الثلاثة ، وسوف يهديه إليه .

وقرأت وراجعت هذا الكتاب ، واقترحت على الرئيس إدخال تعديلات كثيرة . وأدخلتها وأضفت إليها . .

وبعد وفاة السادات جاءنى الصحفى الألمانى الصديق «فتفور» وهو مدير مكتب مجلة (درشبيجل) الألمانية وعميد المراسلين الأجانب فى مصر ، وقال لى : إن المستشار «شميت» سألنى عن الكتاب الذى وعد السادات بتأليفه عن السلام . .

فقلت : لا أعرف عنه الآن أى شىء ، ولا أعرف أحدًا أسأله عن ذلك . .

قال : إن المستشار الألمانى يسأل : لماذا قرر الرئيس السادات أن يهدى هذا الكتاب له ومتى قرر ذلك . . وهل أذكر نص الإهداء ؟

فالمستشار «هلموت شميت» ـ كرجل ألمانى ـ دقيق يريد أن يعرف لأى سبب قرر السادات أن يهديه هذا الكتاب . . ومتى قرر ذلك . . أى على أثر أى شىء قاله «شميت» أو فعله من أجل مصر . .

وحاولت أن أتذكر . . وكان الرئيس السادات يتمنى أن يؤلف كتابا يهديه إلى إحدى بناته التى يفضلها على الأخريات . . وطلب منى ألا أذكر اسمها حتى لا يغضب أخواتها . .

وحاولت أن أتذكر وأن أرجع إلى الظروف التى قرر فيها السادات أن يكتب هذا الإهداء . .

ولما مات السادات جاء المستشار الألمانى باكيا ليمشى فى جنازته . ولم أر فى حياتى رجلا يبكى بهذه المرارة إلا «شميت» وإلا «ممدوح سالم» رئيس وزراء مصر الأسبق . . لقد وجدته يبكى فى مستشفى المعادى كما لم يفعل أقرب الأقربين إلى السادات .

أما المستشار الألمانى فعاد من جنازة السادات إلى ألمانيا ليدخل (الإنعاش) فى بون . .

وقد ظهر «هلموت شميت» فى التليفزيون النمساوى وقال : إن السادات أعظم رجل فى القرن العشرين . .

ومن المعروف أن «شميت» يهودى الأصل ، ولكن والده خاف عليه من النازيين فسجله فى شهادة الميلاد مسيحيا حتى يعيش . وعاش ، ولم ينس أنه يهودى . .

وعاد الصحفى الألمانى «فتفور» يسألنى ويلح فى السؤال ، وكان «فتفور» آخر صحفى أجنبى قابل الرئيس السادات . . فسألنى عن ظروف الإهداء ؛ لأن المستشار «شميت» يكتب مذكراته ويريد أن يتحدث عن هذه الهدية التى لم تتم ! .

وعندما جاء الرئيس «كارتر» إلى مصر قابلنى سكرتيره - وهو أستاذ فى التاريخ الحديث وهو يهودى - وسألنى : ولماذا قرر الرئيس السادات أن يهدى كتابه إلى «شميت» وليس إلى «كارتر» شريكه فى عملية السلام ؟! .

ولم أجد ما أقوله ، وعاد يستوضحنى مرة أخرى : ما الذى دفع السادات إلى أن يهدى هذا الكتاب - الذى لا أعرف أين هو الآن - إلى «شميت» وليس إلى «جيمى كارتر» . . ؟

فقلت : لعله قرر أن يهدى «كارتر» كتابا آخر . . أو لعله قرر أن تنشر حوارات كثيرة بينهما . وقد أخبرنى الرئيس السادات أنه يريد أن يروى لى أجمل ساعات المتعة الفعلية فى حواره مع ثلاثة من أعظم الرجال الذين صادفهم فى حياته : «هنرى كسنجر» وزير الخارجية ومستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق ، والمستشار الألمانى «هلموت شميت» و«برزنسكى» مستشار الأمن القومى الأمريكى . فثلاثتهم متعة للعقل ونور للفكر ومفخرة لبلادهم ! .

ولا أعرف - ولا أحد استطاع أن يقول لى - أين هذا الكتاب الذى جاء فى أكثر من ٣٠٠ صفحة - وكان الموضوع الرئيسى هو السلام عند اليهود وفى المسيحية ثم فى الإسلام . .

وتجارب السادات كمسلم مؤمن محب للحياة . . حياته وحياة قومه والحياة لكل الشعوب ! .

وقد عرفت أخيرا جدا أين استقر ، وأين تمزق هذا الكتاب - مع الأسف ! .

(٧)

من غير مناسبة وبلا مقدمات ، ونحن نتمشى وراء استراحة الرى فى أسوان توقف الرئيس السادات وتغيرت ملامحه وقال لى . يا أنيس .

– نعم يا ريس .

– حسن إبراهيم صاحبك ؟ .

– أيوه يا ريس .

– طيب . . لما تقابله اسأله عندما وقف مع جمال سالم فى مطار العريش وأخذه جانبا ماذا كان يقول له ؟

– متى حدث ذلك يا ريس ؟ .

– فى يوليو سنة ١٩٥٢ .

– ونحن الآن فى سنة ١٩٧٧ .

– أيوه . . عاوز أعرف كان بيقول له إيه . . لأنى كنت واقفا وفجأة أخذه على جنب وراح يكلمه . . ولم أعرف ماذا قال . .

وذهبت إلى حسن إبراهيم ـ نائب رئيس الجمهورية السابق . وقلت له : الريس يريد أن يعرف . .

فضحك حسن إبراهيم : والله ما أنا فاكر . . مش فاكر حتى أننى قابلت جمال سالم . . إيه يعنى ! .

فعدت أقول للرئيس : بيقول : مش فاكر ! .

– غريبة ! اسأله مرة أخرى ! .

وعدت لحسن إبراهيم أقول : الريس بيقول : غريبة .

– غريبة أننى ناسى . . ولا غريبة أنه هوه فاكر؟ ! .

وسأل حسن إبراهيم زوجته السيدة قدرية . وسألها إن كان قد أخبرها بشىء من ذلك .

فقالت هى الأخرى : إنها مش فاكرة . .

وبعد ذلك بشهر سألنى الرئيس السادات ـ وكنا فى باريس ـ : يا أنيس ، يعنى ما قلتليش حسن إبراهيم كان بيقول لجمال سالم إيه ؟

– والله يا ريس أنا كل مرة أقابله أسأله وهو يؤكد أنه لايذكر شيئا من ذلك . .

ولم يسترح الرئيس إلى هذا الجواب وقال : طيب يا أنيس ، على كل حال إفضل اسأل كده لحد ما يفتكر . .

وضحك حسن إبراهيم عندما سألته وقلت : لن يسكت الرئيس فحاول أن تتذكر ! .

– الله ! أتذكر إيه . . يا أخى قل للريس إننى كنت بأحكى له نكتة . . أو كنت بالعن أبوه . . أى حاجة ! .

وكان ذلك فى بيت رجل الأعمال محمد نصار ، فاقترح أن يرد عليه أى رد ويخلص . فاتفقوا على أن أقول للرئيس : إنه كان ينصحه بأن يرى فيلم (جيلدا) بطولة «ريتا هيوارث» . وكان معروضا فى سينما «ستراند» . . وخلاص ! .

وفى الطائرة استدعانى الرئيس السادات وتحدثنا فى أشياء كثيرة . وعندما صافحته وهممت بالانصراف استوقفنى : سألت حسن إبراهيم ؟ .

- أيوه يا ريس . . سألته .

- (سعيد جدا) وقال لك إيه ؟ .

- قال لى : إنه نصح جمال سالم ألا تفوته مشاهدة فيلم (جيلدا) المعروض فى سينما «ستراند» .

- بتقول فى سينما إيه .

- «ستراند» يا ريس . .

- لا . . ما كانش فى سينما «ستراند» . .

لالا . . ده كان فى سينما الجزيرة . . بس كده : هو ده كل اللى دار بينهما ؟ .

- بس كده ياريس . .

- . . . .

(٨)

فى يوم نشرت (أخبار اليوم) صورا للرئيس السادات وهو يحلق ذقنه بالقميص وبنطلون البيجامة . . وصورته وهو يركب بسكليت . . وهو على الأرض يقوم بحركات رياضية . . كجزء من نشاطه اليومى . طبعا لابد أن يكون الرئيس قد وافق على التقاط المصور فاروق إبراهيم لهذه الصور . ولابد أن يكون إبراهيم سعدة رئيس التحرير قد استأذن الرئيس فى نشرها .

وذهبت إلى الرئيس فى القناطر الخيرية ، فوجدت السيدة جيهان السادات والمرحومين همت مصطفى وسعد زغلول نصار . وكانت جيهان السادات غاضبة من هذه الصور ، وبادرتنى بسؤالها : ايه رأيك أنت ؟

قلت لها : مفيش فيها حاجة . . إن رؤساء أمريكا ينشرون صورهم وهم يلعبون ويصطادون السمك . . ولعل الرئيس السادات يريد أن يقول : إن حياته بسيطة ، وإنه إنسان عادى جدا . أو أنه فى صحة جيدة . .

- لا لا . . يا أنيس . . لا . . الناس انزعجت لما شافت الصور . . صورة وهو على الأرض . . كيف تنشرها (أخبار اليوم)؟ . . الصور أساءت للريس جدا . . لا لا لا يا أنيس ، ما تقولش كده للريس . . اسأل همت واسأل سعد . .

قالت همت : أنا رأيت الصور فى الصباح فانزعجت وتصورت أن سيادة الرئيس حصل له حاجة .

وقال سعد زغلول : المراسلون الأجانب هلكونى مكالمات . . إيه ده . . إيه اللى حصل . . إيه المعنى؟ !

وتركتهما وذهبت للرئيس ، وكان جالسا على (المرجيحة) الموجودة فى الجنينة . . وصافحت الرئيس وجلست وسألنى أخبارك إيه . . هنكتب إيه . . قابلت مين . . سألت بيجن حيعمل إيه؟ . . قل لى . .

وفى هذه اللحظة جاءت السيدة جيهان السادات غاضبة وقالت لى : كل الناس مش موافقين على نشر الصور ، مفيش غير أنيس . .

قلت : أنا قلت للهانم يا ريس : إن الصور مفيش فيها حاجة . . ونحن نرى رؤساء أمريكا يلعبون ويسبحون ، وهى أشياء عادية جدا فى الدنيا . . وقلت لها : لعل الرئيس يريد أن يقول : إن حياته بسيطة جدا . .

قاطعتنى جيهان السادات : أسمع همت بتقول إيه وسعد زغلول . . التليفونات مبطلتش . . اسألهم يا أنور!

وتضايق الرئيس السادات جدا . وأمر بعودة همت مصطفى للتليفزيون ، وكانت مندوبة للعمل فى سكرتارية الرئيس لشئون الإعلام . . وانتقل سعد زغلول نصار إلى العمل فى الحزب الوطنى ، وبعد ذلك إلى أستراليا . .

وقال الرئيس لزوجته أمامى : إنها حديث الناس ليوم واحد ، وبعد ذلك سوف يجد الناس أشياء أخرى . . لا تشغلى بالك . .

- كيف لا أشغل بالى؟! . . إن هذه الصور فضيحة . . كارثة . .

وتضايق الرئيس جدا . . وانصرفت السيدة جيهان السادات غير راضية عن الذى قلت ، والذى قاله . .

(٩)

كان د . بطرس غالى وزير الخارجية قد أدلى بتصريحات لم تعجب السادات ، فطلبنى من أسوان وقال : اطلب بطرس دلوقت فى نيويورك وقل له : يطلع على التليفزيون الأمريكى فى برنامج (صباح الخير يا أمريكا) ويكذب كل اللى قاله . . اطلبه ورد على فى أى وقت النهاردة . . أى وقت يا أنيس !

- حاضر يا ريس . .

وطلبت د . بطرس غالى فى نيويورك وكان مايزال نائما . . وقلت له : صباح الخير . . صحيت يا دكتور؟ !

- (ساخرا) نعم ياسيدى . . تحت أمر سيادتك . . نعم .

- اصحى يا دكتور .

- أدينى اتنيلت وصحيت . . نعم ياسى أنيس . .

ضحكت وقلت له : الرئيس عاوزك تغير صيغة التصريح الذى أدليت به . . على أن يكون ذلك فى برنامج (صباح الخير يا أمريكا) . . البرنامج الساعة كام ؟

- الساعة كام دلوقت؟ . .

- الحادية عشرة صباحًا .

- طبعًا أنت عارف الساعة كام هنا . .

- أظن الرابعة صباحًا .

- حاضر . .

- يعنى أقول للريس إيه ؟

- إننى سوف أغير هذا التصريح .

- طيب أطلبك ثانى إمتى يا دكتور ؟

- اطلبنى بعد ذلك بساعة . . بأقول لك إيه يا أنيس . . مراتى بتسلم عليك . .

- بذمتك بتسلم على والا بتلعن سنسفيل جدودى ؟!

- حاجة زى كده !

واتصلت بالرئيس فى أسوان وقلت له : إننى أيقظت د . بطرس من النوم ، وإنه سوف يفعل ما أمرت به . .

فشكرنى الرئيس وقال لى : بعد أن يعود بطرس إلى اللوكانده اطلبه واعرف منه قال إيه بالضبط . . شكرا .

- العفو يا ريس .

وطلبت د . بطرس غالى وسألته ، فنقل لى معنى ما قاله .

واتصلت بالرئيس فى أسوان وذكرت ما قاله بطرس غالى . . وأبدى الرئيس ارتياحه وقال : كويس كده . . شكرا يا أنيس . .

- تحب أقول لبطرس حاجة ثانية؟

- قل له : ينام . . هاها هاها .

- . . . .

(١٠)

كان الرئيس السادات قد تلقى خطابا من رئيس وزراء إسرائيل «مناحم بيجن» يشكو فيه مما يقوله الشيخ متولى الشعراوى فى أحاديثه التليفزيونية عن اليهود . . وعن الهجوم العنيف عليهم مما يفسد مسيرة السلام ومحاولة تجاوز الحاجز النفسى بين العرب واليهود .

وظهر الضيق على وجه الرئيس السادات وقال لى : اذهب إلى التليفزيون وتحقق من كلام «بيجن» . . وإن كنت أعتقد أن شيئا من ذلك قد حدث . ولكن ليس بالصورة التى يراها «بيجن» .

وذهبت واستعرضت الأحاديث الأخيرة للشيخ الشعراوى مع همت مصطفى ، ولم أجد ما يزعج رئيس وزراء إسرائيل . فالشيخ الشعراوى لم يذهب فى كلامه إلى أبعد من التفسير البلاغى للقرآن الكريم . . بل إنه كان أعنف مع المسيحيين . . دون أن يشير إلى أن فى مصر عشرة ملايين قبطى . . وأنهم من أهل الكتاب أيضا . وأن هذه ليست القضية . . قضية مسلم وقبطى ويهودى . .

وعدت أحكى للرئيس ما رأيت بمنتهى الدقة . ولكن الرئيس ضايق من أن يقول له «بيجن» ذلك . فليس من حقه ، ثم إن معلوماته ليست دقيقة . ولم يجد الرئيس سببا قويا لكى يلفت نظر الشيخ الشعراوى . . وفى يوم استدعانى الرئيس فى الصباح الباكر وقال لى : إنه تلقى من بعض شيوخ الأزهر ما يؤكد أنه شتم اليهود والمسيحيين .

وقلت للرئيس : لم أجد ذلك ، ولكن هؤلاء الشيوخ وغيرهم حاقدون وحاسدون للشيخ الشعراوى !

ولم يشأ أن يرد الرئيس على خطاب «بيجن» . وإن كان قد طلب منى أن أذكره بذلك . .

وتلقيت من د . بطرس غالى نص الخطاب الذى ألقاه وزير التربية والتعليم فى إسرائيل «هامر» ورئيس الحزب الدينى . وفى الخطاب يقول : إنه لن يتحقق السلام بين المسلمين واليهود إلا إذا حذف المسلمون بعض آيات من القرآن !!

ولم يكد السادات يسمع ذلك حتى نهض واقفا وقال : تسافر إسرائيل الآن . . وتقابل «بيجن» وتقول له : إننا إذا نشرنا خطاب وزير التربية الإسرائيلى بتاعه فسوف تحترق الدنيا فى الشرق الأوسط ويكون هو السبب . .

وذهبت وقابلت «بيجن» . ولم يقرأ نص الخطاب الذى ألقاه وزير التعليم حتى نهض حزينا وقال بصوته الأجش : قل للرئيس السادات : إن الموضوع انتهى عند هذا الحد . واشكره .

فسألنى الرئيس السادات : إن كان «بيجن» قد قال ما الذى سوف يفعله بهذا الوزير .

فقلت : لم يقل .

فطلب منى أن أسأل سفيرنا فى إسرائيل عن نتائج مقابلتك هذه «لبيجن» .

وسألنى السادات : هل مررت على سفيرنا وقلت له ما حدث ؟

- الآن تستطيع أن تبعث له «فاكس» لكى يكون فى الصورة ، بدلا من أن يسمع عن لقائك «ببيجن» من الجانب الإسرائيلى .

- حاضر يا ريس .

وبعد يومين فهمت من الرئيس أن «بيجن» قد وجه لوما عنيفا لوزير التعليم «هامر» .

وكان عنيفا لدرجة أن الوزير قد هدد بالانسحاب من الوزارة . وقد أرسل إليه الساعات أنه ما كان يجب أن يقول كلاما كهذا . .

وقال لى الرئيس : أنا لا أريد الوزارة أن يصيبها أى شىء قبل أن تتم عملية السلام !

وقد علم «بيجن» بهذا الاتصال فراح يضحك واتصل بالسادات تليفونيا وشكره على حرصه على الوزارة أكثر منه !

(١١)

كان الرئيس السادات يريد أن يلعب دورا فى انتخابات إسرائيل . فطلب منى أن أستدعى زعماء إسرائيل . فاستدعيت «موشى ديان» . .

ثم استضفت «شمعون بيريس» و«أبا ايبان» و«حاييم بارليف» فى مجلة (أكتوبر) ، ودارت مناقشات بينهم وبين د . مصطفى خليل ود . إبراهيم حلمى عبد الرحمن ود . بطرس غالى وأنا . .

واستضفت «إسحاق رابين» بعد ذلك . ونزل فى فندق مريديان . وفوجئت «بإسحاق رابين» يحمل لى مظروفا به صور مايوهات بعث بها صحفى صغير - رئيس وزراء إسرائيل يحمل مظروفا به صور مايوهات أملا فى نشرها فى مجلة (أكتوبر) . ولم يجد حرجا فى أن يؤدى هذه الخدمة لصحفى صغير !

وسافرت مع رابين إلى المعمورة فى طائرة حربية . وكان يرافقه الصحفى المشهور «إيتان هابر» الذى ظهر يبكى يوم تأبين رابين ، وأخرج من جيب رابين نص الأغنية التى كان يرددها قبل اغتياله ، وكانت الأغنية ملطخة بالدم .

و«إيتان هابر» هو الذى كتب مذكرات «عيزرا باسمان» و«رابين» أيضا . وعرضت عليه فى الطائرة إحدى قصصى التى ترجمها إلى العبرية الزميل حسين سراج . وقد أعجبته لغة حسين سراج . وكان «رابين» يريد إكمال كتاب له عن محاورات مع عظماء عرفهم . . فأخذته إلى الرئيس السادات فى طائرة هيلكوبتر ، وفى هذا اللقاء جلس السيد منصور حسن وزير الثقافة

والإعلام . وقال منصور حسن «لرابين» : إن السادات مثل والدى . . وقال السادات : إننى أعده لشىء أكبر !

وكانت هذه الجملة مثل الصاعقة . . وقد هزت الأوساط السياسية والحزبية فى مصر ، وقيل فى تفسيرها الكثير ، وذهب الناس إلى بعيد فى التكهن . .

وفى يوم سافرت مع الرئيس السادات إلى (وادى الراحة) وهى آخر مرة . . أما المرة الثانية فقد كان محددا لها يوم اغتيال السادات . ولم يكن مع الرئيس السادات فى وادى الراحة سوى المهندس حسب الله الكفراوى وأنا . .

ونحن نشرب الشاى بالنعناع ليلا . . والدكتور الشيخ نعينع يقرأ بأدائه المنضبط الجميل فى أول وادى الراحة . . تحدث المهندس حسب الله الكفراوى وروى حكاية عن منصور حسن ، اندهش لها السادات ، فقد قال الكفراوى : أنا فعلت ذلك تنفيذا لأوامرك يا ريس .

فقال الرئيس : ولكننى لا أعلم ذلك ، ولا طلبت ولا أمرت !

وبعدها بوقت قصير خرج منصور حسن من الوزارة !

(١٢)

طلب منى «حاييم هرتسوج» مقابلة الرئيس السادات . . ووافق الرئيس . . و«هرتسوج» صار بعد ذلك رئيسا لإسرائيل ، وقبلها كان رئيسا لوفدها فى الأمم المتحدة ، وقبلها كان مديرًا للمخابرات . وهو الآن مؤرخ ووكيل لعدد كبير من الشركات ، وهو أيرلندى الأصل ، وسافرنا فى طائرة حربية إلى أسوان . . وكان شيئا عجيبا : مدير المخابرات الإسرائيلية فى طائرة حربية لمقابلة الرئيس فى أسوان . .

أما زوجته فمصرية . . وقد طلبت منى أن أعطيها يدى لكى تقرأ مستقبلى . .

وقالت لى : سوف تفوز بجائزة كبرى فى بلدك . . سوف يجرى التصويت عليك مرتين . وسوف تكسب فى النهاية . .

ولم تكن تعلم ـ ولا أى أحد ـ أننى مرشح لجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٠ . وفزت بها بالصورة التى قالتها زوجة «هرتسوج» . .

ثم قلبت فى يدى مرة أخرى وقالت لى : وسوف تفوز بجائزة أخرى لاتخطر لك على بال !

وبعدها بأيام تلقيت خطابا من مستشارنا الإعلامى الأديب حمدى الكنيسى يخبرنى بأننى فزت (بجائزة العالم الثالث للإبداع الفكرى) . ولما اعتذرت عن عدم الحضور لتسلم هذه الجائزة من البرلمان الهندى تسلمها نيابة عنى السيد عمرو موسى سفيرنا فى الهند !

وطلبت منى حرم «هرتسوج» أن ترى كف الرئيس . ورفض السادات . وقال لى : أنا لا أحب الحاجات دى . . خليها تقابل جيهان !!

(١٣)

أما «مريم مايرسون» قارئة الكف والفنجان والكوتشينة والطاروت التى تنبأت باغتيال السادات ، فقد جاءت إلى القاهرة وطلبت أن ترى السيدة جيهان السادات . فقلت لها : ارحميها !

وكانت «مريم» قد نشرت فى الصفحة الأولى من كبرى الصحف الإسرائيلية أن السادات سوف يلقى مصرعه قبل نهاية عام ١٩٨١ . وقررت أن أنقل للرئيس هذا الخبر للعلم فقلت له : يا ريس أولاد ستين فى تسعين اليهود نشروا خبرا يقول كذا وكذا . .

ولكن السادات قال بمنتهى الهدوء : الأعمار بيد الله . . حتى إذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولا يستأخرون . . هه . . وحتكتب إيه يا أنيس الأسبوع الجاى ؟!

وتضايقت من استخفاف الرئيس بمثل هذا الكلام الخطير . . ونقلت للسيد النبوى إسماعيل وزير الداخلية هذا الذى جاء فى صحف إسرائيل ، وقال لى : أنا غلبت مع الرئيس . . وطلبت إليه كثيرا أن يحتاط وأن يرتدى القميص الواقى . . لكن مفيش فايدة . .

ولما جاءت «مريم مايرسون» إلى مصر طلب المهندس سيد مرعى أن يراها . ورآها وأوجعت قلبه عندما قالت له : إن لديك حصانا جميلا سوف يموت !

وحزن الرجل جدا . ومات الحصان !

ولما قالت لى مريم : هات كفك .

قلت لها : أبدا !

(١٤)

فى اجتماع التحرير الأسبوعى فى مجلة (أكتوبر) فوجئت بالزميل المرحوم سمير مسعود يقول : إن الرئيس مات وخلاص . . فلماذا هم يسدون الطريق عند بيت الرئيس السادات ، والناس لاتعرف كيف تمشى ولا السيارات . .

فسألته : هل تسكن أنت فى الجيزة ؟

- لا .

- أنت عندك سيارة ؟

- لا .

- أنت رأيت ذلك بعينيك ؟

- نعم .

- رأيت ذلك بعينيك اللتين عالجهما الرئيس السادات على نفقة الرياسة ، فدفعت تسعين ألف جنيه لمستشفى «براكيرو» فى مدريد ؟

- . . . .

وكثيرون من الذين ماتوا - والذين لم يموتوا - عندهم مثل هذا القدر من العقوق وأكثر !

(١٥)

كان عيد ميلاد الرئيس السادات فى ميت أبو الكوم . . ولم يحضر أحد من الأسرة . . جاءت فقط منى جمال عبد الناصر وأنا . .

وكانت الأسرة تريد أن تحتفل به فى الجيزة . . وقدم لنا الرئيس أرزا باللبن . أرز فلاحى باللبن ، أو باللبن والقشدة ، لا أعرف . ولكنه لذيذ جدا . قلت للرئيس : أهو ده بقى الأرز الذى لانستطيع أن نجده فى المدينة . . برام الرز تحفة يا ريس .

- عجبك ؟

- جدا . .

وأشار الرئيس إلى أحد الجرسونات بأن يبعثوا له أرزا بلبن على البيت . .

وتحدثنا فى السياسة ، وفى العمر ، وفى القدر . . وفى المشوار الطويل الذى بدأه الرئيس من ميت أبو الكوم . . ولا شىء فى قرية ميت أبو الكوم ولا فى أسرة السادات يدل على أنه سوف يكون زعيما سياسيا عظيما . . لا شىء . . لا مقدمات . . لأن ظهور شخص عظيم ليست له مقدمات ، لا فى الأسرة ولا فى القرية ولا فى مصر كلها . . إنه يظهر فجأة دون مقدمات واضحة . . فالله قد أعطاه موهبة ، ودبر له قدرا له بصفة شخصية !

وبعد ساعة من وصولى إلى البيت جاءنى السائق يقول : إن حلة أرز بلبن تحملها سيارة من رئاسة الجمهورية : إن حلة الأرز من عند الرئيس !

وتهامس الجنود والحراس والخدم والسائقون : أرز من عند الرئيس!! أرز الرئيس هو رئيس الأرز . .

وجلسوا يأكلون الأرز القادم من عند الرئيس ، ويتخيلون ويحلمون وبعد ذلك يتحدثون . . وظلوا يتحدثون ؛ ولعلهم ما يزالون يتفنون ويتغزلون فى أرز بلبن من عند الرئيس !

(١٦)

كنا نجلس فى حديقة القناطر الخيرية عندما جاء أحد سكرتيرى الرئيس والتليفون فى يده ويقول : إنه سيادة النائب !

إنه سيادة النائب حسنى مبارك يتكلم من الخرطوم . .

وأمسك الرئيس بسماعة التليفون يقول : أيوه يا حسنى . . آه . . آه . . كويس . . كويس . . تمام . . تمام كده . . كويس قوى . . تمام . . شكرا يا حسنى . . جاى إمتى . . على مهلك . . طيب كويس . .

وظهر الارتياح على وجه الرئيس وقال لى : أهو حسنى مبارك ده يعرف بالضبط ماذا أريد ، ويتصرف بالضبط كما لو كنت أنا تماما . . أنا لا أستطيع أن أسافر إلى الخرطوم . . وأن أقابل وأنقل واتصرف وأقرر بهذه السرعة وبهذه الكفاءة .

ثم قال : إنهم لايعرفون مزايا حسنى مبارك ، أنا لو لفيت مصر كلها لن أجد واحدا فى كفاءة وإخلاص حسنى مبارك ، ولكنهم لايفهمون . . الوقت أنا استرحت فقد استطاع حسنى مبارك أن يحل مشاكل كثيرة فى لقاء واحد . . أهو كده . . أنا أحب الحسم والصدق ده . . دول حيوانات يحقدون عليه ولكنهم لايفهمونه كما أفهمه أنا . .

ثم التفت وقال لى : تعال بكره . علشان تقعد مع حسنى وتشوف إيه اللى حتكتبه يا أنيس . .

– حاضر يا ريس !

وجاءت مكالمة تليفونية ،لا أعرف مين ، وامتقع وجه الرئيس السادات وهو يقول : لا . . يا أخى أنا أصدق حسنى . . أنا أصدقه ، ثم إنه حالا قايل لى أنتظره حتى يعود ، إن المقابلة قد تمت فى دقائق . . فكيف تجيء إليك معلومات قبل حسنى . . إزاى يعنى ؟ . . آه تعرف ذلك قبل الزيارة ؟ وهل قالوا لك عن الزيارة ؟ إزاى قالوا لك عن الزيارة . . إزاى قالوا لك إذا كنت أنا قررتها اليوم ولا أحد يعرف ذلك إلا حسنى وأنا والنميرى . . إزاى يعنى . .

ووضع الرئيس التليفون غاضبا ويقول لى : الحقد يا أنيس . . الحقد ملأ قلوب الناس وطمس عيونهم . . الحقد .

– مين دول ياريس .

– ما أنت عارف . . إيه المطلوب من حسنى مبارك أكثر من كده . . إيه ده . . شيء عجيب . . بمنتهى الصراحة مفيش أحسن منه . . ده رأيى . . تعال بكره واقعد معاه يا أنيس . .

– حاضر ياريس . .

أميرة.. لن تكون ملكة !

(١)

لم تستول امرأة على حب الناس ـ وعددهم خمسة آلاف مليون ـ كما فعلت الأميرة «ديانا» . حلوة ظريفة . . أنيقة شقية . . بسيطة جدا . . وحاولت أن (تفلفص) من بروتوكولات الأسرة المالكة . . فارتدت البنطلون الجينز . . ونزلت تشترى احتياجاتها من السوبر ماركت . . أحبها الناس . . وأحبت أن تكون مع الناس وبين الناس . . وأصبحت الموضوع الأول والصورة الجميلة فى كل الصحف والمجلات . .

بدأت حياتها بخناقة مع الصحف . . فقد شكت أمها للمجلس الأعلى للصحافة من أن الصحف تعتدى على حرية ابنتها . . وانعقد المجلس الأعلى لأول مرة من ٢٦ عاما ، وكان ذلك منذ ١٥ سنة ، ونظر المجلس فى شكوى أم الآنسة «ديانا سبنسر» ؛ وشرب الأعضاء البيرة . . وبعد ذلك القهوة وتناقشوا فى الشكوى ؛ ولم يصدروا بيانا ؛ لأنه لم يحدث أى عدوان على الآنسة ديانا ، فالصور التى التقطت لها كانت فى القطار مع الأمير تشارلز . . والقطار لايمكن أن يكون مكانا خاصا !!

وتعاطف الشباب الإنجليزى مع الأميرة الشابة ، القريبة من قلوب الناس وأيديهم . . والتى تعطف على الزنوج وعلى مرضى

الإيدز وتزورهم فى المستشفيات ، يوم كان الاعتقاد أن مصافحة مرضى الإيدز معدية . . ولكن الأطباء قالوا لها : ليس بالمصافحة ولا حتى التقبيل . . وإنما العدوى تنتقل عن طريق الدم !

وإلى جانب حب الناس ، أعجب بها الناس . . تسريحتها وفساتينها الأنيقة والجميلة . . ووقف وراء الأميرة أحسن كوافيرات لندن وأحسن مصممى الأزياء . . والاستفتاءات الدولية تؤكد أن «ديانا» أشيك سيدة فى العالم .

وأدمنت «ديانا» الصفحات الأولى ، وأدمنت الصحف هذه الفتاة الجميلة . . ويوم زفافها للأمير تشارلز ، أحس كل أب أنها ابنته ، وكل بنت أنها أختها . وصار حبها عالميا . .

وكرهتها الأسرة المالكة . . فهى ذات شعبية كاسحة . وتحولت الكاميرات عن ولى العهد الذى سوف يصبح ملكا . . لقد (سرقت) منه الكاميرا . . بل لم تسرقها ، وإنما استولت على كل الكاميرات !

وجاء ابنها الأول . .

وكرهتها سيدات الأسرة المالكة . . وجاء الابن الثانى . .

ودبت الخلافات بينها وبين زوجها . . وسمع الناس دبيب الخلافات . . وجاهر الأمير بذلك . . وعرفت الأميرة أن زوجها يلعب بذيله . . وأنه لم يكن مخلصا لها يوما واحدا . وأنه يخونها مع سيدة متزوجة اسمها «كاميلا» . . وهى سيدة ناضجة مدربة تدريبا جيدا على اللعب بالذيل وبالعين . . وبالرجال أيضا . .

وجاهرت الأميرة بهذا الخلاف بينها وبين زوجها . .

واكتشفت أن أشياء كثيرة فى بيتها عليها حرف «C» وكانت تظن أن هذا هو الحرف الأول من اسم زوجها «Charles» ، ولكنها اكتشفت أنه الحرف الأول من اسم العشيقة «Camilla» ، ولم يجد الزوج حرجا فى أن يعترف بهذه العلاقة .

وتمزقت العلاقات بينهما . . ولم يفلح أحد فى إصلاحها . وكان لابد من الانتقام . . هى ظهرت فى كل الصور والمناسبات التى تتنافى مع تقاليد الأسرة المالكة البريطانية الجامدة الجافة الباردة . فالشعب الإنجليزى لايعرف كيف تتكلم الملكة الوالدة ـ أى الملكة الأم الحالية ـ لم يسمع صوتها أحد, وترى الملكة الوالدة أن هذا هو الواجب . . فلا يهم صوتها . . وإنما الذى يهم هو سلوكها وخدمتها للشعب . . ولكن «ديانا» رآها الشعب تضحك وترقص وتصافح وتعانق . . وأحبوها لأنها طبيعية . . ونشرت الصحف حكايات وروايات ومغامرات للأميرة . . ومكالمات تليفونية مسجلة مع شبان آخرين ـ هى التى تطلب ليلا ونهارا ـ وشبان آخرون يطلبونها ويقولون وتقول لهم كلاما يذيب الجليد !

ولم تنكر الأميرة كل ذلك . .

وأحبت مدرب الخيول الذى يدرب ولديها . . وكان ما كان . . وأصدر هذا المدرب كتابا وصف فيه كل ما كان بينه وبين الأميرة . . وماذا قالت . . وماذا فعلت وهى تقول . . وماذا تقول وهى تفعل . . ولم تنكر الأميرة شيئا ولا اهتزت لها شعرة ؟

وظهر الأمير فى التليفزيون يحكى غلطة زواجه من واحدة تصغره بسبعة عشر عاما ـ وأنها غير متعلمة وغير مثقفة وليست لها اهتمامات ثقافية . .

وأخيرا اختارت الأميرة عيد ميلاد الأمير فى ألمانيا وظهرت فى لقاء تليفزيونى عالمى هز مئات الملايين . وفى هذا الحديث ظهرت الأميرة رقيقة مهزومة وقوية أيضا . وقالت : إنها فعلا خانت زوجها مع عدد من الشبان . . وأحبت واحدا منهم . . ولكن زوجها هو الذى بدأ بالخيانة !

وتحدثت عن مرضها الذى اسمه «البوليميا» . . هذا المرض يصيب الفتاة العصبية التى تشعر بالإحباط فى حياتها ، وهو نوع من الشره فى الأكل والشرب . . ثم تفريغ كل ما أكلته مرة واحدة . . وهذا المرض كان يحرجها كثيرا . . فهى تأكل بصورة لافتة . . ثم بسرعة تنهض إلى دورة المياه . . ولاتستطيع أن تمسك نفسها فى كثير من الأحيان . . وفى كل ليلة عندما تعود إلى البيت ، يفاجأ الطباخ والسفرجى بأن سموها جالسة على الأرض وقد أعدت لنفسها ساندويتشات من كل نوع لتفرغ بطنها بعد لحظات . . وكل ليلة . وقد أدى ذلك إلى شحوبها وضعفها ، لأنه لايتبقى فى جوفها طعام . . وقد فسرت ذلك بأن حالتها العصبية واضطرابها والإهانات الجارحة من زوجها كانت السبب !

وقالت : إنها لاتريد أن تكون ملكة . . وزوجها لايصلح أن يكون ملكا لأنه ضعيف . . ولكن من أجل ولديها لاتريد الطلاق . . وإن كان الأمر لايزال فى يدى زوجها الذى قرر الانفصال عنها . .

وبعد إذاعة الحديث فى كل الدنيا ، والذى سوف يظهر على شكل كاسيتات قريبا . . اختلف الناس !

أناس قالوا : بل معها حق ، فزوجها هو الذى بدأ ، والبادى أظلم . وآخرون قالوا : إنها لم تفعل ذلك إلا دفاعا عن نفسها

كامرأة جميلة مهجورة ومهانة من زوجها ومنبوذة من الأسرة المالكة . . وفى نفس الوقت موضع غيرة وحسد من زوجها الذى لا تهتم به الصحف والتليفزيون . . أما هى فصفحة أولى فى كل صحف الدنيا . .

وأناس قالوا : لن تلوم إلا نفسها ، فقد تعرت أمام كل الناس . . وجعلت نفسها هدفا سهلا ومطمعا لأى أحد . . وسوف تتعذب كثيرا بذلك . .

وأناس قالوا : أين الملكة ؟! ما هذا البرود والجمود . . كيف لاتتدخل لإنقاذ أسرتها وسمعة التاج الذى تحمله؟ .

وقال متحدث باسم الملكة : لا شأن لنا بذلك . . فهذا خلاف بين رجل وزوجته !

والذين رأوها على الشاشة يقولون : ضعيفة . . مريضة عقليا ونفسيا . ولكنها استطاعت أن تهز قلوب الملايين ، فمئات الملايين يعطفون عليها . . لأنها تستحق العطف ، ولأنهم لايحبون الأمير ولا أمه ولا أخته ولا أباه . .

وفى البيوت حول الكرة الأرضية خلافات مع الأمير أو ضده . . ولن ينسى الناس أميرا يقول : خنت زوجتى . . وأميرة قالت : وأنا أيضا . . ومفيش حد أحسن من حد . .

ثم إن الأميرة ذهبت لطفليها فى المدرسة وحكت لهما كل شىء . وهذه مصيبة جديدة . . وبقية المصائب والقبلات والصفعات فى الطريق إليهما ، وإلى خمسة الاف مليون متفرج !

(٢)

نشرت الصحف الفرنسية أن اثنين من عمال المصاعد تشاجرا وذهبا إلى الشرطة .. والسبب : «ديانا» الأميرة البريطانية .. فقد اختلف الاثنان ، هل هى خائنة لزوجها ؟ هل اعترفت بأنها خانت زوجها .. وكان ذلك ردا على أنه خانها؟ !

العاملان الفرنسيان يختلفان على هذا السلوك . واحد قال : إن خيانة الرجل لاتبرر خيانة المرأة . وقال الثانى : انتهى زمن الحريم .. فالمرأة كالرجل تماما ، ما يسمح به لنفسه : يجب أن يسمح به لها !

إلى هذه الدرجة انقسم الرأى العام فى الدنيا حول سلوك الأميرة والأمير ، معظم الرجال مع الأميرة ، ومعظم النساء مع الأمير !

ومنذ أيام كنت فى الأقصر ، وركبت البالون لكى أرى المدينة من فوق ، وارتفع البالون .. وارتفع .. ولكنه توقف فى انتظار الهواء أن يدفعه يمينا وشمالا .. فقائد البالون لايملك إلا أن يصعد به أو يهبط ، أما التوجيه إلى أى اتجاه فذلك شأن الهواء .. وطال وقوف البالون .. وكنا ثمانية .. سبعة من البريطانيين وأنا .. وقلت لهم : بالمناسبة دى .. ومادمنا هنا فوق ولا أمل فى أن نتحرك .. ما رأيكم لو أثرت موضوعا قد يؤدى إلى أن يلقى بعضنا بعضا فيخف وزن البالون ويرتفع ويدفعه الهواء بعيدا عن مدينة الأقصر ..

وتطلع الإنجليز فى برود أضافوه إلى برودة الجو فوق .. ولم يقل أحد شيئا .. فقلت : أريد أن أعرف من منكم مع الأميرة ديانا ومن منكم مع زوجها؟ !

وضحك الإنجليز لأن الكلام فى هذا الموضوع إلى جانب أنه ممل فهو يبعث على الدهشة أنه موضوع وقضية مصر أيضا ، وعلى هذا المستوى الرفيع من سطح الأرض .. ولم يقل أحد شيئا ، قلت : أنا سوف أفتح باب المناقشة ، وأقول : إننى مع الأميرة لأن الأسرة المالكة قد دفعتها إلى الجنون .. وإنها كفتاة أصغر من زوجها بسبعة عشر عاما ، قد ضاقت بالأسرة المالكة وقيودها الذهبية شكلا والحديدية مضمونا .. وإنها لاتريد هذا السجن .. إنها تريد أن تلبس الچينز وتنزل لتشترى احتياجاتها من السوق ، ولكن البروتوكول يمنعها أن تكون فتاة عادية .. ثم إن زوجها بهدلها ، فقد صارحها فى إحدى ليالى الغرام بأن الذى اختارها للزواج منه إنما هى عشيقته «كاميلا» . وهذا خنجر مسموم غرسه الزوج فى قلب وكبرياء الفتاة الحلوة الصغيرة وأكثر من ذلك أن الأمير أكد لها علاقته بالعشيقة .. وأنها يجب أن تقبل هذا الوضع .. كما أنها وجدت كل الهدايا فى غرفة الأمير عليها اسم العشيقة .. ثم اعترف فى التليفزيون بأنه خانها .. ما الذى تفعله امرأة أصيبت وجرحت وفضحها زوجها ؟!

ولم أطل فى الكلام فكل ذلك معروف عندهم ، ولكن الذى ليس معروفا أن كاتبا معروفا وعضو برلمان مثلى يكون هذا رأيه .. وهو فى نفس الوقت شرقى مسلم . وتلفت الإنجليز بعضهم إلى بعض وهزوا رءوسهم .. أى أن كلامى معقول .. ولكن لم أعرف رأيهم ..

فسألت احدى السيدات : وأنت؟ !

قالت : أنا مع الأميرة ..

وواحدة أخرى : وأنت ؟

قالت : مع الأميرة ..

وثالثة ورابعة وخامسة . . كلهن مع الأميرة . . أما الرجال فوا- :
قال : أنا مع الأمير . . وقال رجل ثان : هو غلط وهى غلطت .
ومتروك لهما الخيار . . هل يستمران فى الحياة الغلط . . أو ق،
الغلط دون أن تكون لهما حياة معا . .

وقال الثالث والأخير : إذا كان المقصود أن تتخانق وأن نتساقط
من البالون . . فأنا أرى أنه لا أحد منهما يساوى أن نضحى له بأ،
شىء . . فهما أميران سعيدان ولديهما الملايين . . وليس فى حاجـ
إلى وقت أو دم أو تضحية أحد . .

قلت له : يعنى ايه ؟

قال : بالعربى . . اللى مش عاجبه يشرب من البحر .

قلت : أنا موافق بشرط أن تصل إلى البحر . . فالبالون كما تر،
واقف . . أو أننا جميعا وقفنا فى زور مدينة الأقصر . . لا قادر،
نطلع ولا قادرين ننزل . .

سألتنى إحدى السيدات : وما رأى المرأة المصرية ؟

قلت : مع الأمير ضد الأميرة !!

قالت : هل معنى ذلك أن المرأة المصرية ترضى بالرجل الخائن
وترفض المرأة الخائنة .

- يبدو هذا . .

- وإذا كان هذا رأيها . . فهل هى تغفر للرجال خطاياهم ؟

- للرجل المصرى لا . . ولكن الأمير فقط ! . .

- لو كانت زوجة الأمير فتاة مصرية ، كانت توافق على أن يخونها
ويفضحها ويبهدلها لمجرد أنها حريصة على أن تظل أميرة اليوم وملكة غدا . .

- يظهر كده . .

- وأنتم رأيكم إيه ؟

- إما معارضون لها أو مجاملون لها . .

- كم عدد المعارضين للأمير ؟

- فى حضور زوجاتهم قليلون . . وفى غياب الزوجات كثيرون . .

- هل تغير الرجل الشرقى إلى هذه الدرجة . .

- نعم تغير وأسوأ من ذلك !

- والسبب ؟

- المرأة المصرية «تفرعنت» .

- وكيف تسكتون على ذلك . .

- . . . .

- أين الرجل الشرقى الحمش ؟

- كلهم على الأرض . . وليس فى البالون إلا أنا .

- هل أنتم مع ديانا أو ضدها ؟

- قالوها : زيك تماما نحن معها .

ونزل البالون أمتارا قليلة . . ثم بدأ يهبط . . يهبط . . ونظر إلينا الطيار الإنجليزى وقال ضاحكا : الآن تستطيعون أن تتخانقوا من أجل الأمير والأميرة !

ولم نتخانق . .؟

بلا رأس ولا رقص في موسكو

أدباء روسيا أصروا على أن أزورهم في نهاية العام . وحبذا لو كان ذلك في الكريسماس أو رأس السنة . . أو أن أكون في موسكو في هذين العيدين . وتساءلت ، ولم أجد إلا جوابا واحدا : بس تعال !

إذن لابد أن هناك مفاجأة جبارة ، لايمكن - أو : لا يصح الإفصاح عنها في خطاب رسمي . ولك أن تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث في عاصمة الاتحاد السوفيتي . . وما الذي يستطيعه الأدباء الذين هم سادة المجتمع وهم القادرون على كل شيء يعجز عنه المواطن السوفيتي العادي . . وذهبت في تخيلاتي إلى أبعد الحدود . . فهم يعرفون أنني سافرت إلى أطراف الدنيا . وأنني رأيت وسمعت وجربت ما لم يخطر على بال أحد . . إذن لقد أعدوا لي شيئا أعجب وأروع مما رأيت طول عمري . يا ترى إيه ؟

لم أفكر كثيرا . وإنما تركت نفسي وعقلي وخيالي جانبا وأعددت نفسي لمواجهة شتاء موسكو الذي تصل فيه درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بزمان . . بعشرين . . بثلاثين ، بأربعين درجة مئوية . . لقد جربت مثل هذه البرودة قبل ذلك في مورفنسك المدينة الروسية التي تقع في القطب الشمالي ، وتعلمت كيف أواجه ذلك . . بأنني إذا نزلت من الطائرة وصدمني هذا الهواء الجليدي ألا ألمس أنفي وإلا سقط مني . . أو أذني . . أو أفتح فمي وإلا تجمد لساني كقطعة عظم عند قدمي . . أما الروس فهم يواجهون ذلك بالأغطية الكثيفة وبالفودكا . . ثم إنهم يعرفون كيف يحمون أنفسهم من هذا الموت الجليدي . . الموت الأبيض !

مش مهم . . المهم هو أنهم أعدوا لي شيئا لم أره في أي بلد في الدنيا .

ووصلت إلى موسكو يوم رأس السنة . الطائرة الروسية ملعونة ، وليس فيها أي وسيلة من وسائل الراحة . فلا أكل ولا شرب ولا أفلام تتفرج عليها . . ولا بنات حلوة من المضيفات ولا من الركاب . فالرجال هم الذين يقومون بعمل المضيفات . . ثم إنهم لايعرفون إلا الروسية . وحتى لو عرفوا أية لغة أوروبية أخرى وليس لديهم ما يقدمونه لك فما فائدة هذه اللغة . . يعني إيه ؟ يعني مش مهم الطائرة ، المهم ما سوف يكون في مطار موسكو . . وأنا أعرف الأدباء والشعراء الذين سوف أقابلهم وعندي أسئلة جاهزة في الفلسفة وفي الأدب . . كلام سوف يقال ومناقشات ومقالات هناك وهنا .

ونزلت مطار موسكو . كل شيء فيه جامد أبيض . الجليد يغطي كل شيء . والوجوه في المطار كأنها أرض المطار باردة بيضاء جامدة . والوجوه كالجدران صماء . والعيون كلها خرز أزرق . والناس لايخرجون ألسنتهم ؛ لأنهم لايفتحون أفواههم . ولاداعي لأن يفعلوا ذلك . وهم لايريدون أن يتكلموا وأنا لا أعرف ماذا أقول . اقتربت من الموظفات وقلت بإنجليزية بطيئة جدا . وكان الرد «نيت» . أي : لا . . لا كلام ولا حوار ولا داعي لأن أتكلم . .

ولم أسأل عن الأدباء فوقفت وقلت : لعلهم يأتون . . أو لعله ليس مسموحا لهم بأن يدخلوا الدائرة الجمركية . ممكن . وتصفحت الوجوه هنا وهناك . وافتعلت الابتسامة . واقتربت وابتعدت وحاولت أن أتكلم . ولم يحاول أحد أن يبدى أى اهتمام . ولماذا ؟ ماداموا لايعرفوننى ولا أعرفهم . . وخرج الناس بسرعة من المطار وجاءت الحقائب وتركوها . وعرفت حقيبتى وأخذتها . ووقفت إلى جوارها أتمنى أن أتخلص منها . وأعود إلى القاهرة . واتخذت هذا القرار بعد ساعة من اللطعة فى مطار موسكو . .

ولمحت من بعيد كلمة «فندق» . . فلابد أن هذا هو فندق المطار الذى تبيت فيه أطقم الطائرات الروسية والأجنبية . . وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون اللغات الأوروبية . ، ولابد أن موظفى الفندق يعرفون لغة أوروبية واحدة . . على الأقل . وذهبت أجر حقيبتى ورائى . . ووجدت من يتكلم الإنجليزية . وسألته عن الأدباء . إنه لايعرف أى شىء ولم يسمع باسم أى واحد من هؤلاء . . ولا أعرف أين حجزوا لى مكانا واسم الفندق ، فلا حل إلا الاتصال بالسفارة المصرية . وحولنى عامل التليفون بالسفارة على الوزير المفوض وفاء حجازى . وطلب منى أن أبيت فى الفندق ، وفى الصباح سوف يجىء ، وقبل ذلك سوف يعرف الجهة التى وجهت لى الدعوة . ثم قال : لاتنس أننا فى رأس السنة ولايوجد أديب ولا شاعر ولا فنان ولا وزير فى موسكو . . كلهم فى الريف !!

وقد أبدى دهشته من دعوتى يوم رأس السنة حيث لايوجد أحد فى استقبالى . .

ومن نافذة الفندق وجدت الأكفان البيضاء فى كل مكان . . فوق البيوت وفوق الأشجار وفوق الناس . . إن المدينة قد دفنت نفسها . ولكن الناس أحياء رغم ذلك . . الناس يمشون وكأنهم فى جنازة . ولا أحد يعرف من الذى مات . أنا أعرف من الذى مات وكيف : إنه أملى فى أن أجد أحدا من الذين دعونى فى هذا اليوم الذى تركوا فيه العاصمة لأكون وحدى . ولأقضى رأس السنة فى الفندق . إذن لماذا هذه الدعوة؟ ما المعنى؟ هل الهدف هو أن استشعر بعض الذى يعانون من الوحدة والبرودة واللامبالاة . ولماذا أنا؟ فلست شيوعيا ولا آمل فى أن أكون . ولست محتاجا إلى مزيد من الكراهية لروسيا نظاما وفلسفة . فالذى عندى يكفينى لكراهية لروسيا نظاما وفلسفة . فالذى عندى يكفينى لكراهية كل الدول الشيوعية شرقا وغربا . إذن ماذا ؟

وفى الصباح جاءنى الوزير المفوض وفاء حجازى . وقال : إن مساعد السكرتير العام للأدباء سوف يحضر . . إنه شاب لطيف يعرف الإنجليزية . وعرفت أن كل الذين يتكلمون أكثر من لغة هم اليهود فقط . وكان يهوديا . وانتقلت إلى أحد الفنادق . وأول من كلمنى كان الشاعر الفلسطينى محمود درويش . دعانى إلى سهرة معه . وقلت له : إننى ضيف الدولة هذه الليلة . فضحك وقال : وأنا ضيف الدولة الليلة ومن عشرة آلاف مضت ومثلها قادمة .

وقبل انتصاف الليل قابلت أحد المصريين الذين يدرسون فى روسيا . اندهش لهذه المقابلة الرسمية الباردة التى لامبرر لها . وعرض على أن نحتفل معا برأس السنة على طريقته وفى حدود إمكانياته . شكرته . وبدأنا الاحتفال بالتساند على كتفيه فى

الشوارع المزحلقة . . ونزلنا إلى محطة المترو أهم وأجمل ملامح موسكو . المحطة ضخمة فخمة . . والناس يمشون ورائحة الفودكا تخرج من أنوفهم ومن أفواههم . . وعيونهم حمراء ، ثم إنهم يترنحون ويتساقطون على الأرض والجدران . . إذن نحن فى أحشاء مدينة موسكو . . ولاأحد يعرف الفرق بين السكران والشحاذ . فكلاهما يقع على الأرض ويفتش فى الزبالة . .

ولم أجد من الذوق أن أعترض على الكرم المصرى ، فالرجل قد عرض أقصى ما يستطيع . . وخرجنا من محطة المترو إلى الشارع إلى سيارة صديق . . ومضت السيارة كأنها برغوث صغير فى شوارع واسعة وطويلة وليست لها بداية ولا نهاية . والجليد يتساقط ويرتفع على الجانبين . ولا توجد أى ملامح لأى شىء . ووقفت ولا توجد أى ملامح لأى شىء . ووقفت السيارة ، ونزلنا ودخلنا بيتا تهب منه رائحة الكرنب المسلوق ـ وهى رائحة ملعونة ـ مهما قال الروس إن الكرنب يجعل البشرة ناعمة ، فهو ليس طعاما فقط وإنما هو إحدى مواد التجميل الشعبية فى روسيا ، وجلس مصريون كثيرون . وبدأنا بالضحك والنكت والنقد العنيف لكل ما هو مصرى . . ولى بصفة خاصة من موقفى من الشيوعية . ولماذا ؟

وفجأة انطفأ النور مما يدل على سنة فاتت وسنة سوف تولد فورا . . ومددت يدى إلى فمى وقبلت يدى وجها لظهر . . حمدا لله أنى وجدت مكانا دافئا . . ومثقفين أتحدث إليهم على مدى عامين . . آخر العام الماضى وأول هذا العام . وهى بداية مصرية دافئة فى بلاد باردة . . وسألونى : تأكل ؟

قلت : طبعا .

ودخل المصريون الطلبة يعدون الطعام الذى أدخلوه الفرن . قلت ما هذا؟ !

ـ لحم خنزير .

ـ أنا لا أذوق اللحوم .

ـ لحم الخنزير بالذات ؟

ـ كل اللحوم . . أنا نباتى !

ـ إذن حظك من السماء ، فليس عندنا بعد ذلك إلا النباتات ، عندك كرنب مسلوق . . وبصل مسلوق . . وأعشاب مسلوقة . . ولايوجد عندنا ملح .

ـ ولا جبنة ؟

ـ ولا جبنة !

ـ ولا عيش ؟

ـ آه . . نسينا العيش !

ـ إذن فاكهة ؟

ـ يا خبر أسود . . ونسينا الفاكهة .

ـ أى شىء لم تنسوه ؟

ـ الخنزير والفودكا .

ـ . . . .

ـ يعنى إيه؟ . .

ـ لا أشرب ولا آكل الخنزير . .

- ليلة سوداء .
- لم يبق إلا أن نتسول لك . . ممكن تصبر ساعة أو أقل شوية؟
- ممكن .
- وحتى نحضر لك هذا الطعام ، ألا تذوق الكرنب ؟
- أجرب . .
- طيب تأكل سوداني ولب أبيض من مصر ؟
- لا مانع . .

وجلست أقزقز لبا أبيض . . حتى أكلت قرطاسا من الل[ب] الأبيض وبضع حبات الحمص واللب الأسمر . . وبعد ساعة [جاء] اثنان من الطلبة وقد قاما بتسول كمية لا بأس بها من الطعام . بقايا خبز . . وبقايا بصارة ، وأتوا بشيء نادر جدا ، وهو [...] طماطم . . قدموها لي بحفاوة عظيمة . . وكل سنة وأنت طيب . لا تنس أننا في موسكو . . وأننا طلبة . . وأن هذا اللقاء كان مفاجأ[ة]
- إلى آخر الكلام اللطيف الظريف الذي أشبعني . .

وأمضيت أياما في موسكو لا بأس بها . . فقد قابلت عددا م[ن] الدارسين المصريين ورجال السفارة وسافرت إلى «لينينجراد» وعدت إلى موسكو بعد يومين . . وقررت أن أعود إلى مصر . [فل]م أقابل أحدا من الأدباء الكبار . وإنما بعض الإداريين من اتحا[د] الكتاب . . وتلقيت اعتذارات مكتوبة عن عدم الحضور بسب[ب] المرض أو بسبب السفر المفاجئ إلى أوروبا الشرقية . وأكد ل[ي] السفير المصري أنهم صادقون . وسواء كان ذلك صحيحا أو تخف[يفا] للصدمة فليس هناك حل !

وجاء موعد السفر وطلب مني كثير من المصريين أن أنقل بعض الهدايا لأصدقائهم في القاهرة ولأبنائهم : لعب للأطفال ومشروبات كحولية : فودكا وشمبانيا . . واسطوانات . . وقد أعطاني أحد المصريين «طقم صيني» لأخته التي سوف تتزوج قريبا . وقالوا . . طبعا إن أحدا لن يجرؤ على أن يتقاضى منك وزنا زائدا . . فأدباء روسيا يحضرون إلى مصر ويدخلون من قاعة «كبار الزوار» دون أن يفتشهم أحد ودون أن نتقاضى منهم مليما على الوزن الزائد . .

وفي المطار جاءني أخيرا سكرتير اتحاد الأدباء . وهو رجل لطيف [ج]دا . واعتذر وقبلت اعتذاره . وهو يعبر عن نفسه بلغة إنجليزية مضحكة وهو يقول . وأنا أفهم . . وحملت حقائبي والكتب الكثيرة التي اشتريتها وهذه الهدايا . وفجأة وجدت المضيفة تكتب لي في ورقة : إنني يجب أن أدفع ما يعادل مائة وعشرين جنيها إسترلينيا [قيم]ة الوزن الزائد . . وابتسمت لها وابتسمت لسكرتير اتحاد الأدباء . . فابتسمت هي وابتسم هو . وانتظرت أن يتقدم من [الم]ضيفة ومن موظفي الجمارك وأن يضعوا في عيونهم حصوة ملح ، [ف]نحن في مصر لانتقاضى منهم مليما عن الوزن الزائد . ولايزال الابتسام بيننا جميعا . ولا نقول شيئا . والمضيفة واقفة تنتظر ، وهو واقف ينظر . وعرفت أنهم ينتظرونني أن أدفع ، واستوضحت الأديب الروسي فقال لي ما معناه : لا دخل لي ، إنه القانون !

[و]تضايقت جدا وقلت له : عندنا في مصر قانون أيضا : فقال : أ . . .

ونحن قادرون على أن نستثني منه ضيوفنا .

- أما نحن فغير قادرين !

- يا بن الـ . . . . يا أولاد الـ . . . .

- . . . .

وأمام الروس فى المطار وهذا الأديب وهذه المضيفة الجميلة ، لم أعرف ما الذى أفعله . . ووضعت يدى فى جيبى ووجدت المائة جنيه استرلينى أى ما يعادل ٣٥٠ جنيها مصريا فى ذلك الوقت . . وسألت نفسى : لمن أدفع ذلك ؟ ولماذا ؟

ففعلت ما يجب عمله فى ذلك الوقت . . وضعت كل الهدايا على الأرض ، الواحدة إلى جوار الأخرى . . حتى الكتب التى اشتريتها وضعتها هى الأخرى إلى جوار الهدايا . . وأشرت إلى المضيفة أنها جميعا هدية منى لها . . وإذا لم تستطع أن تقبلها فلتعطها لأى محتاج فى بداية العام الجديد . . ولم تندهش المضيفة . .

أما الأديب الروسى . فقد وقف يشاهد كل ذلك ويبتسم . وقلت له : ما رأيك .

- هذا رأيك !

- وما رأيك أنت ؟

- وهذا رأيى أنا أيضا .

ومن الغيظ قلت له : تعرف لو جئت إلى مصر فسوف أودعك فى المطار . .

- شكرا .

- وسوف أجعلك تدفع الوزن الزائد . .

- لم يحدث أن كان لى وزن زائد .

- كيف ؟

- لأننى لم أسافر إلى مصر . . ولن أسافر !

- أحسن برضه !

فتح بنطلونات وكسب الملايين

كنت فى مدينة «تايبيه» عاصمة تايوان .. المدينة جميلة وأروع ما فيها الأسواق . وأروع ما فى الأسواق كل سلع الدنيا . وكل هذه السلع مزورة . ماذا تريد ؟ كل الصناعات الفرنسية .. كل الساعات السويسرية .. كل الأجهزة اليابانية .. اطلب أى شىء من أى بلد سوف تجده طبق الأصل .. ولكن مزورا !

أذكر أن أحد الباعة سألنى عن الساعة التى فى يدى .. فمددت يدى وحاولت خلع الساعة .. فوقف الرجل على حيله وقال لى : إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى !

ثم فتح الدرج وأخرج ساعة «رولكس» كالتى فى يدى .. لا فرق .. لا فى اللون ولا الشكل ، ومن الصعب التمييز بين الاثنين لأول وهلة . ولكن فقط عندما تعود إلى البيت وتضرب نفسك بالـ فى قدميك ندما .. فإذا عدت إلى الرجل فلن تجده .. أو إذا وجدته فلن تعرفه .. فليس أسهل من أن يقول : لست أنا !

ولا تستطيع أن تناقشه فكلهم متشابهون .. الوجوه والأجسام تماما كالبضائع الأصلية والمزورة !

ولم أكن الضحية الوحيدة إنما كان زملائى أيضا .. الفنان الكبير صلاح طاهر ، ود. عبد العزيز حجازى رئيس وزراء مصر الأسبق ، والفنان الكبير أبو صالح الألفى ابن عم وزير الداخلية ووالـ زوجته ، وكذلك الأخوان أدهم وانلى وسيف وانلى وكمال الملاخ

جميع ضحايا القلم الأمريكى الجميل والذى يباع بملاليم .. لم نسأل أنفسنا : لماذا هو رخيص كذلك؟ ولكن فرحتنا بهذه التحفة جعلتنا ننسى أن ننظر فى الاسم المكتوب ، ولم نذكر إلا السعر التافه لهذا القلم ، ثم حصولنا عليه !

وإيطاليا الآن أصبحت مثل دول شرق آسيا فى التزوير والتزييف .. فكل دور الأزياء الكبرى قد خسرت الملايين بسبب الذين يزورون الأقمشة الجديدة والتفصيلات ، ثم يضعون أسماء دور الأزياء الكبرى عليها مثل : «فرساتشى» و«اسكاباريللى» و«فندى» و«تروسادى» و«كوفرى» و«فلنتينو» ..

وذهبت دور الأزياء إلى القضاء وأخذت من المزورين ما تأخذه الريح من البلاط .. ولا ليرة إيطالية !

واذكر أننى كنت فى بورسعيد أتفرج على القمصان الرجالى والجوارب .. ولاحظت أن هذه القمصان لاتحمل أية ماركة . سألنى البائع : ماذا تريد ؟

قلت : هذه مجهولة الهوية .

ـ كيف ؟

ـ لا هى فرنسية ولا إيطالية ولا أمريكية ..

ـ إزاى .. حالا .

ـ حالا يعنى إيه ؟

ـ حالا تراها كما تريد .. سيادتك عاوزها ماركة إيه؟ ..

وفتح أحد الأدراج وأخرج ماركات كل دور الأزياء الكبرى .. والصق الماركة التى يريدها الزبون .. أية ماركة من أى نوع .. وبعد الآن يستحيل على أى إنسان أن يفرق بين الأصلى والمزيف !!

ولكن ألطف مزور رأيته ثم عرفته بعد ذلك هو شاب يمنى . وهذا الشاب دمه خفيف ، وقد أصبح مليونيرا بسبب أكاذيبه القائمة على الذكاء وملاحقة الأحداث . وقد اختار من كل أحداث الدنيا ما له علاقة بالفضاء ورحلات الرواد إلى الكواكب الأخرى . فلا يكاد يقع حادث فضائى حتى يظهر على طابع بريد من تصميم فنان إيطالى ومن إنتاج هذا الشاب اليمنى . . وامتلأت أسواق إيطاليا بطوابع بريد من تصميم فنان إيطالى ومن إنتاج هذا الشاب اليمنى . . وامتلأت أسواق إيطاليا بطوابع بريد تاريخية قبل أن تفكر أمريكا أو روسيا فى تسجيل هذا الحادث التاريخى الجليل . .

ولم يكتف هذا الشاب اليمنى بذلك ، بل إنه تعمد أن يجعل فى طوابع البريد أخطاء لغوية فى الحروف اللاتينية والعربية . . يتعمد أن يجعل رائد الفضاء مفتوح البنطلون ، أو يعلق على صدره صورة لمارلين مونرو . . أو ارتدى حذاء خطأ . . فردة رجالى وفردة حريمى ، وهذه الفردة الحريمى هدية من زوجته فى رحلاته حول الأرض !

وكان لهذا المزور اليمنى صديق صحفى ، وكان هذا الصحفى هو الذى «يكتشف» هذه الأخطاء . . مما يؤدى إلى ارتفاع سعر طوابع البريد فى الأسواق . وله نصيب معلوم من هذه التجارة . فأصبح الاثنان من أصحاب الملايين . .

ولم تكن هذه الطوابع تصدر عن شخص ، إنما تصدر عن الحكومة اليمنية . . فهى طوابع بريد رسمية !

حتى اكتشفت حكومة اليمن هذا المواطن الجرىء الذكى ، واختفى فى إيطاليا ، سعيدا بما كسب من ملايين وضعها فى مزرعة للخنازير يلهو بها مع أولاده التسعة . .

لوحة وحيدة فى مصر !

ولا رسام مصرى قد سجل السلام فى لوحة ، السلام الذى هو أمل وواقع ، والذى هو جو العمل والإبداع والرفاهية . . إلا فنان واحد هو صلاح طاهر . .

واللوحة كبيرة . . ولم يستطع صلاح طاهر أن يرسم لوحة غيرها . . فكل ما لديه من معان وخيالات وأمل قد أودعها هذه اللوحة . . وملأها بالحمام والضياء التى هى فى لون ريش الحمام ونعومته وخفته . . وجعل الشخوص فى اللوحة لهم تشابه مع بطل الحرب والسلام أنور السادات . . وجعل الشخص الذى كأنه أنور السادات يتوسط اللوحة . . أما اللون فهو الضوء والأشعة واللون الأخضر ينتقل إلى لون الصحارى الذى هو الأصفر والبنى الغامق . . وكل الخطوط تتجه إلى السماء . . إلى النور . . إلى نور النور . . إلى مصدر النور والحكمة والخير والسلام . . إلى الله . .

وفى كل مرة يقام معرض عن السلام يطلب منى صلاح طاهر هذه اللوحة لكى يعرضها . . وبعد نهاية المعرض يعيدها لى طبعا . .

وفى إحدى المرات وقف أمامها الرئيس السادات وأعجبته جدا . . والتفت إلى صلاح طاهر يريد أن يستأذنه فى اقتنائها ، فضحك صلاح طاهر ضحكته المدوية وقال :

ـ والله يا ريس أنا ما عنديش مانع أبدا . . ولكنها ملك أنيس منصور .

وتوقف السادات وقال :

ـ فى هذه الحالة أفضل أن تبقى عند أنيس . .

ـ تحب أكلمه يا ريس ؟

ـ لا يا صلاح . . خلاص . . عندى . . عند أنيس مافيش فرق . .

ـ أحاول أقنعه . .

ـ لا . . لا تحاول . . مافيش فرق يا صلاح !

ولما حكى صلاح طاهر هذه الحكاية لتوفيق الحكيم قال له : طيب يا أخى ما تعمل واحدة غيرها وتديها للسادات .

ـ مش قادر .

ـ طيب سيب لى أنا الموضوع ده وأنا أشوف لك رسام صغير ينقلها .

ـ إزاى . . . . ؟!

ـ زى ما بأقول لك . . يزورها يعنى . . وأهو كله سلام . . وهل المفروض أن يكون سلام صلاح طاهر لوحده ، سلام أى حد يا أخى ! هاها . .

ـ وضحك الرئيس السادات عندما نقلت إليه ما قاله توفيق الحكيم . . وقال :

ـ ما تدور أنت كمان على واحد يزور كتاب من كتب الحكيم ونشوف رأيه إيه ؟!

فى ذلك الوقت كانت لوحات قد سرقت من المتحف ، ثم استطاع البوليس أن يعثر عليها . . ولما جاءنى مندوب صلاح طاهر يريد هذه اللوحة لم أعرف كيف أعطيها له أو أمتنع عن ذلك . . فلا توجد طريقة لإثبات أن هذه هى اللوحة المطلوبة . . فصلاح طاهر مبدع خصيب الإنتاج . . ثم إن هذه اللوحة فيها آخر أسلوب لصلاح طاهر فى التعبير . فمثلها مئات . ولكن وجدت الحل الفريد فى التاريخ . .

لقد أنزلت اللوحة من الحائط وأتيت بالسكرتير الخاص والسكرتارية الفنية ومندوب صلاح طاهر والتقطت لهم عدة صور تثبت أن هذه اللوحة التى سوف تظهر فى معرض صلاح طاهر . . وجعلت مندوب صلاح طاهر يوقع بالاستلام على صورة اللوحة مع السكرتارية . . فإذا عاد بها أعطيته الصورة الفوتوغرافية التى وقع عليها باستلام الأصل !

ولا أظن أن شيئا من ذلك قد حدث فى تاريخ تسليم اللوحات وإعادتها . .

ومنذ أيام عرض صلاح طاهر أن يشترى هذه اللوحة بعشرين ألفا من الجنيهات . . واعتذرت ، فقال : إن الذى يريد أن يشتريها واحد مليونير أمريكى يهودى . . فقلت : سوف يرتفع سعرها إلى أضعاف ذلك عند نهاية القرن . .

فقال لى صلاح طاهر : وعلشان خاطرى . .

قلت : خاطرك بالدنيا يا صلاح . . خدها بمائة ألف !

وزير خارجية إسرائيل يغنى : نورا .. نورا ..

كان فريد الأطرش لطيفا كريما .. وكان ساذجا أيضا . عندما كنت رئيسا لتحرير مجلة (الجيل) دعانى فريد الأطرش إلى غداء فى بيته ، وكان من رأى الكاتب الساخر أحمد رجب رئيس التحرير ألا أذهب . فقلت : مستحيل .. إن الرجل لطيف ودعانى ، فكيف أرفض .

وأصر أحمد رجب على رأيه .

وذهبت لبيت فريد الأطرش .. البيت كبير ومليان بأناس وبنات حلوة ، وتكلمنا طويلا ، وهو لا يكف عن الشكوى من الظلم الواقع عليه من الصحفيين ، ولذلك فهو يأتى بالصحفيين فى أفلامه ويشتمهم ، لأنه لا يجد مكانا آخر ..

وفى نهاية المأدبة الفخمة قال لى فريد الأطرش : تعرف يا أنيس بك .. الصحفيون كل يوم بييجوا يأكلوا عندى وينزلوا يشتمونى !

أعوذ بالله من عبطك يا فريد .. يعنى أن الصحفيين يجيئون ويطفحون زيك تماما ، ثم يشتموننى .. إذن أحمد رجب كان على حق !

وفريد الأطرش له معجبون بعشرات الملايين فى العالم العربى ، أكثرهم من النساء . ولكن وجدت له عددا من الرجال وعلى مستوى رفيع . فالرئيس السادات كان يحب فريد الأطرش ، ويحب

صوته ويتفرج على أفلامه .. وقد دعانى إلى مشاهدة أحد أفلام فريد الأطرش فى قاعة صغيرة فى استراحة القناطر الخيرية .. وكان يجلس فى الصف الذى وراءنا عشرة من سكرتارية الرئيس .. وبعد دقيقتين من بداية الفيلم نظر الرئيس وراءه فلم يجد أحدا وقال ضاحكا : الكلاب هربوا .. أما السبب فهو أن الرئيس السادات قد شاهد هذا الفيلم عشرين مرة .. وعنده صبر .. ولكن السكرتارية ليست مضطرة إلى ذلك .. فهو يتفرج على الفيلم ويتكلم فى التليفون ويستريح ، وينتهى الفيلم كأنه لم يره .. ولذلك يعيده ..

وفى مذكرات جيهان السادات (سيدة من مصر) قالت : إنه فى أحد أعياد ميلادها قال لها أنور السادات : يا جيهان أنا معنديش فلوس أجيب لك تورتة .. ولا عندى فلوس لكى تذهب إلى أحد الفنادق .. أنا حاغنى لك .

ثم غنى إحدى أغنيات فريد الأطرش !

وكانت الملكة ناريمان معجبة بفريد الأطرش .. فغنى لها أغنيته المشهورة : نورا .. يا نورا !

وناريمان لها اسم دلع هو : نورا .

ومن أسابيع جاء إلى مصر لأول مرة «إهود باراك» وزير خارجية إسرائيل ، وكان يتباهى بأنه يعرف كم جملة عربية ..

ولكى يؤكد ممارسته للغة العربية راح يغنى لفريد الأطرش .. غنى للوزير عمرو موسى الذى لايحب فريد الأطرش .. وكانت الأغنية .. نورا نورا ؟

ولم يدرك الوزير الإسرائيلى أنه بهذه الأغنية قد شارك فى الاحتفال بمرور واحد وعشرين عاما على وفاة المطرب السورى الدرزى فريد الأطرش . . والدروز فى إسرائيل يلقون كل حقوق اليهود ، ولذلك فلهم احترام خاص عند اليهود ، وكذلك فريد الأطرش .

أما المرة التى غضب منها فريد الأطرش : فعندما حدثته عن محرر فى مجلة (الجيل) مجنون به لدرجة أنه هدد بتطليق عروسه إذا هى سمعت أغنية واحدة لعبد الحليم حافظ ، وكان فريد الأطرش يروى هذه الحكاية سعيدا جدا ، ورجانى فريد وألح فى الرجاء ، أن آتى له بهذا المحرر المفتون به ليقيم حفلة على شرفه .

وغضب منى عبد الحليم حافظ . .

ولكن لما عرف الحقيقة ضحك عبد الحليم وحزن فريد . وصالحته بعد ذلك بشهور ، وفى اليوم المحدد ذهب المحرر إلى بيت فريد الأطرش ، ولقى حفاوة عظيمة جدا ، والتفت حوله البنات الحلوة من مصر ومن لبنان ، وارتبك هذا الصحفى الصغير فالذى يراه كثير جدا على أعصابه .

وجاءت اللحظة الحرجة . . فقد سأله فريد الأطرش عن أحب الأغنيات إليه ، مع وعد بأنه سيغنيها له .

فأخرج المحرر الصغير ورقة من جيبه كتب فيها الأغانى المفضلة عنده .

وكنت قد أمليتها عليه ، ووضع النظارة على عينيه لكى يقرأ الأغنيات ، بينما تعلقت أذنا فريد وكل البنات بشفتى الزميل

جمعة عبد الصبور المحرر الآن بمجلة (آخر ساعة) ، فقال جمعة عبد الصبور ـ وهو يقرأ من الورقة ـ : أغنية «البيض الأمارة . . وأبو سمرا السكرة . . وساكن فى حى السيدة» . . (الأغنية الأولى لكارم محمود والثانية لمحمد قنديل والثالثة لمحمد عبد المطلب) .

وتستطيع أن تتخيل الباقى . . فريد الأطرش الحساس العصبى الذى أهين فى بيته إهانة بالغة والسبب أنا . . المصيبة أن هذا المحرر لم يسمع فريد الأطرش فى حياته ، ولايعرف من هم أصحاب هذه الأغنيات .

وأمام الغضب والضيق الواضح على وجه الجميع ، تسلل من المائدة إلى المصعد إلى الشارع يدق باب مكتبى ويسأل عن الذى حدث ، وليجد عبد الحليم حافظ يتساقط من الضحك . . ولتصبح هذه نكتة القاهرة كلها شهورا .

وقلعت ملط !

قالوا لى : تريد أن تكون رشيقا ؟

قلت : الرشاقة لا تهم . . الصحة هى التى تهم . . راحة الأعصاب . . انضباط الهضم . . انتظام التنفس . . والهواء النقى والهدوء والغابات والوجه الحسن . . هذه هى جنة الإنسان على الأرض . .

قال لى أنور أبو العلا مستشار مصر السياحى فى «فيينا» ، وأتى بخريطة واختار لى قرية صغيرة تبعد عن «فيينا» مائة كيلو متر . وأشار بإصبعه قائلا : هنا . . كل ما يتمناه الإنسان . . فعلا وجدت ما أتمناه . . القرية صغيرة فى حضن الغابات . . وبها أربعة فنادق . . ووسط الفنادق توجد المصحة . . والمصحة بها عيون دافئة وبها طعام صحى . .

قالوا لى : غدا يبدأ العلاج . .

فقلت : ولكننى والحمد لله لست مريضا . . أنا أريد إراحة أعصابى فقط . . وأخذت الجدول الخاص بانتظام الراحة . .

الساعة الثامنة والنصف : تدليك . .

ذهبت فى الموعد . . فوجدت اسمى على الباب . دخلت . وكانت فتاة جميلة .

قالت لى : اخلع . .

ـ أخلع إيه ؟

ـ القميص والفانلة . . (الفانلة غلط) وخلعت . وتمددت على المنضدة . وأقبلت الحسناء وبدأت تدليك فقرات ظهرى واحدة واحدة ذهابا وإيابا . . وبعد نصف ساعة بالضبط أشارت أن أنهض . . ونهضت . .

وبعد ذلك كان التدليك تحت الماء ، ووجدت اسمى ودخلت ، وجاءت السيدة تقول لى : اخلع . .

ـ أخلع إيه ؟

ـ كله . .

ـ كله يعنى إيه ؟

ـ يعنى ملط . . كما ولدتك أمك . . الرجال والنساء فى ذلك سواء . . اقلع ملط . . سوف أترك المكان . . وادخل فى هذا الحوض . . وسوف تتدفق عليك المياه من كل الجوانب وبقوة ، وتقوم بتدليك كل مكان فى جسمك . . عضلاتك وأعصابك . . وإذا احتجت لأى شىء اطلبنى . .

وذهبت وقلعت ملط . . ودخلت الحوض الساخن . . وظهرت السيدة وسألتنى إن كانت درجة الحرارة مناسبة . . فهززت رأسى . ووضعت بعض الأملاح العطرية فى الماء ونظرت تسألنى : إن كنت مبسوطا ، قلت : نعم .

ـ هل أنت مكسوف ؟

ـ الآن لا . .

- . . . .

- أو كى . .

- غدا فى نفس الموعد . . ولكن بعد أن تسمع الجرس . . الآن اذهب إلى السرير وسوف أكون هناك . . ودق الجرس وخرجت من الحمام وسبقتنى إلى الوقوف إلى جوار السرير . . ونمت . . وغطتنى بالبطاطين ، وضبطت المنبه ، وقالت : ثلث ساعة وبعدها تنهض . .

وخرجت دافئا مسترخيا تماما . . وذهبت إلى حمام الطين . وهناك وجدت فتاتين واقفتين فى انتظارى :

- اقلع . .

- أقلع إيه؟

- كله . .

- كله؟!

وانتظرت أن تنسحب الفتاتان حتى أخلع ملابسى ، ولكنهما واقفتان تنظران وتنتظران ، وتطلبان منى أن أقلع . . لأنهما لن يبرحا هذا المكان حتى يغطيا جسمى بالطين . . طين خاص مع بعض المعالجات الكيميائية . .

- اقلع كله .

وقلعت ملط . . وهما واقفتان وتنظران . . وتمددت وجاءتا بالطين الساخن وغطتا به صدرى وظهرى ورقبتى وساقى . . ثم جاء كل منهما بغطاء من البلاستيك ووضعته على جسمى . . وتحتى كانت المنضدة تعلو وتهبط وتدلكنى بماء ساخن فيها . .

ومضت نصف ساعة ، وجاءت إحداهما وأشارت أن أنزل وأدخل الحمام . . وفى الحمام أطلقت على ظهرى ماء ساخنا قويا كان يدفع الطين من فوقى إلى الأرض . وبعد أن جردت ظهرى من الطين أعطتنى الدش لكى أكمل غسل صدرى وبطنى . . إلخ .

وأشارت إلى السرير لكى أتمدد عليه بعض الوقت . . ثم جاءت وغطتنى بالملاءة البيضاء والكثيفة . .

بمنتهى الصراحة تضايقت كثيرًا من حكاية أن أكون (ملط) فى أى مكان ، وأن يكون ذلك أمام السيدات . . ولكن الموقف جاد . . وليس فيه هزار ولا مسخرة ، ولابد أن أفعل ذلك لأن ملابسى فى جميع الأحوال سوف تبتل . . أو يلتصق بها الطين ! والعجيب أن النساء يخلعن ملابسهن ملط أمام السيدات وأحيانا أمام الرجال . . ومن المؤكد أن المرأة الشرقية تضايقت جدا من ذلك ، وطلبت ألا يكون ذلك أمام الرجل . . وتندهش النمساويون لذلك !

ومضت الأيام . . واعتدت على ذلك . . اعتدت على المشى بين الغابات طلوعا ونزولا . . وعلى النوم الهادئ والطعام الصحى . . والمشى طويلا والنوم عميقا ، وشعرت بأننى أخف وزنا وأكثر حيوية وأرشق خطوة . . ولكن ليست عندى أية رغبة فى القراءة أو الكتابة ، ولا عندى أية رغبة فى أن أمسك التليفون وأقول : ألو لأى أحد . .

وفى آخر يوم قررت أن أضاعف مرات التنشيط . . وبمنتهى الصراحة دخت من الانتقال من مكان إلى مكان . . وغلبنى النوم فى إحدى المرات . . وجاءت سيدة توقظنى وتشير إلى إحدى الغرف أن أتبعها . . وسرت وراءها وانشغلت فى التليفون ووجدتنى «عريان ملط» . .

فضحكت وقالت :

ـ ايه ده ؟

قلت : إيه ؟

ـ أنت خلعت هدومك ليه ؟

ـ ليه؟ . . ما أنا باعمل كده من نهار ما جيت .

ـ البس . . البس . .

ـ ليه ؟

ـ لأنني أريد أن أدعوك إلى قهوة . . لا أكثر ولا أقل !

ـ . . . .

ـ هاها . . هاها .

ـ هاها . . .

الكل يلعب..!

المثل يقول : اللى ما يطلعش لأمه وأبوه ، يقولوا : منين جابوه !

تمام كده . . فقد صدر فى بريطانيا كتاب من تأليف واحدة من العائلات النبيلة فى بريطانيا . الكتاب عن الملكة «إليزابيث» الثانية ملكة بريطانيا . والكتاب بحث دقيق مخلص عن أسوأ ما فى حياة الملكة وزوجها الذئب الأمير «فيليب» . هذا الزواج عمره ٤٩ سنة . وأسفر عن ثلاثة من الأولاد ؛ ولى العهد «تشارلز» ، وأخته الأميرة «آن» ، وأخيه الأمير «إدوارد» . .

والكتاب يحكى بالتفاصيل والصور غراميات زوج الملكة . فهو رجل ذئب ومدرب تدريبا جيدا على اصطياد السيدات المطلقات والبنات الصغيرات (الطالعات فى المقدر جديد) .

والكتاب يؤكد أن الملكة كانت تعلم وتبلع ريقها وتسكت . . وتستغرق فى مشاكل الحكم وتنام ودمعتها على خدها ، فلا هى قادرة على مواجهته . . ولا على الفضيحة . . وعلى شماتة الأعداء . أما زوجها فرجل لا يستحى ولايضع فى عينه حصوة ملح . .

ولكن المؤلفة الشهيرة كشفت المستور فى قصر «بكنجهام» ، فقد تشاجرت الملكة كثيرا مع زوجها الأمير «فيليب» . ويقال : إنه شخط ونطر . . ويقال : إنها سارعت وأقفلت الأبواب والنوافذ . . وفتحت «الريكوردر» على موسيقى عالية لتخفى غضب الزوج الذى قال وقال . .

وتحكى المؤلفة أن الملكة كانت إذا أرادت أن تأخذ راحتها من الخناق فإنها كانت تدعوه إلى القصر الريفى .. وهناك وسط الغابات الجميلة والأشجار ونباح كلاب الصيد وتطاير الرصاص، كانت تخانقه حتى لايسمعها أحد ..

أما هو فكان يهرب منها إلى أماكن بعيدة .. وهناك يحلو السهر مع القمر .. وتمتد ساعات الفرفشة أياما وشهورا حتى تنبهه جلالة الملكة إلى أعياد الميلاد والمناسبات الوطنية والقومية، فيعود وقد انقلبت سحنته وضرب بوزا .. وهى أيضا !

ولكن أحد لايجرؤ على أن يدخل بين الملكة وزوجها، لا من أفراد الحاشية ولا من أفراد الأسرة ..

ولكن الملكة كانت تعرف أن زوجها هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقفل فمها الواسع .. رغم صعوبة ذلك. ولكن النساء على هذا المستوى يفضلن الرجل الذى يقول لها : اخرسى يا شمطاء !

ولا أحد يأمرها ولا أحد يقول لها : لا .. ولذلك تفضل أن يكون الزوج - أو أى واحد آخر - هو الذى يرفع صوته ويده إذا استطاع، ويقول لها مالاتسمعه من أى أحد ويسعدها ذلك .. صدقنى !

ولابد أن طراطيش هذه الخناقات والمغامرات قد وصلت أسماع الأبناء .. فليس غريبا أن يكونوا جميعا (بربطة المعلم) قد تعلموا ذلك .. فهم جميعا يلعبون بذيولهم .. حتى البنت التى هى (آن) .. إنها من أبغض أعضاء الأسرة المالكة إلى الشعب .. لأنها [illegible] ومتعالية .. وفاشلة فى زواجها واحدا بعد واحد !

أما الأمير «تشارلز» فهو كما نعلم جميعا، قد ظن الناس أنه عاجز جنسيا أو شاذ مثل كثير من أعمامه .. ولكنه ظهر فى التليفزيون يقول : إن ماما تنصحنى كثيرا أن أعتدل فى السهر وفى الجنس .

يعنى إيه؟ .. رجل من ظهر رجل .. يعنى على الشعب البريطانى أن يطمئن إلى رجولته .. وإذا كان قد تأخر فى الزواج فسبب ذلك أن النصيب لم يأت بعد .

ثم تزوج الأميرة «ديانا» وأنجب منها ولدا وسوف يكون ملكا، وولدا آخر . ودبت الخلافات بين الأمير والأميرة .. هو ماض فى اللعب مثل والده .. والأمير لايستطيع أن يسكت على ذلك .. ثم إنه أكبر منها بتسعة عشر عاما ويتهمها بالجهل . ولم تسكت على ذلك .. ثم صارحها .. وألوف الملايين من مشاهدى التليفزيون .. بأنه يخونها مع «كاميلا»، وهى المرأة التى نصحته بأن يتزوج «ديانا» بعد أن رفضته أخت «ديانا» .. وهذه الحقيقة الأخيرة كانت سكينا فى قلب «ديانا» .. انتهى الأمر .

هو يلعب ويعترف .. وهى تلعب وتعترف .. هو فضحها، وهى فضحت أباه وأمه وجميع الذين خلفوه .. وفضحته هو .. ولم يستطع أحد أن (يلم) الزوجين الذين تناثرت فضائحهما فى القارات الخمس .. حتى رواد الفضاء كانوا يتابعون الغراميات من فوق، لقد وصلت فضائح الأمير والأميرة إلى الكواكب الأخرى !

ويبدو أننا نحن العرب سوف ننال من الحب جانبا . فقد شوهدت الأميرة مع مليونير عراقى يقول - كما هى العادة - : إنها صداقة عميقة .. وإنها معرفة عارضة .. وهو التعبير المهذب المؤقت

لعلاقات العشق بين الشباب الحلو والأميرة ! المليونير العراقى اليهودى هو «روبرت جانكيز» . .

إن والد الأمير لايستطيع أن يقول لابنه : (م) . . لأنه لايفعل أكثر مما فعل أبوه . .

وكذلك الأميرة ، إنها هى الأخرى تلعب ، ولاتستطيع أن تقول لزوجها : تلت التلاتة كام !

فالكل يلعب . . وأدينا بنتسلى !

لما عرفت الإنسان أحببت الحيوان!

أنت تعرف معانى هذه الحروف :

م .م يعنى : «مارلين مونرو» ، و«مارى منيب» . .

ك .ك يعنى : «كلوديا كاردينالى» التونسية الأصل ، ويعنى مؤلف قصص الأطفال كامل كيلانى ، ويعنى التعليق التلقائى على وعود الوزراء : كله كلام !

و ب .ب أى : «بريجيت باردو» . . ملكة الإغراء والفتنة الفرنسية . . سنوات طويلة . . وهى نموذج لفتاة صغيرة مثيرة . . لا هى طفلة ولا هى امرأة . . وإنما هى وسط بين كل ذلك . .

ولم يحدث أن غنى الناس لأية ممثلة كما تغنوا «لبريجيت باردو» . . ولم يحدث أن تطلع الناس صغارا وكبارا لفتنة جنسية مثيرة ، كما نظروا وتلهفوا واحترقوا لرؤية «بريجيت باردو» فى أفلامها . . أو شخصيا . . وقالوا عنها : الطفولة الخالدة . . والأنوثة الكاسحة . . والحريق الأبدى . .

ولم يتفوق عليها فى هذه العاصفة الجنسية إلا «مارلين مونرو» . .

هذه السيدة ب .ب . اتخذت لنفسها شعارا عاليا تقول فيه : كلما عرفنا الإنسان ازددنا حبا للحيوان !

أما الإنسان الذى عرفته ب .ب . فكان أغنى الأغنياء . وقد استطاعت بفضل شفتيها ونهديها وساقيها والبحة الملهلبة فى صوتها أن تخرب بيوتهم جميعا . كيف ؟ هذا فن لم تفصح عنه وإن كان من السهل تخيله فى ليالى الشتاء على الجليد ، أو فى ليالى الصيف فى حمامات السباحة ومستعمرات العراة . وقد جمعت ملايين كثيرة ـ من أين ؟ من الليالى الحمراء والزرقاء والمرتفعات والمنخفضات التى ذكرتها منذ لحظات . .

وكان انتقالها سريعًا إلى عالم الحيوان . فالنساء يرتدين الفراء التى أخذوها من حيوانات ذبحوها فى كل مكان : الدب والثعلب والشنشلا والثعابين والتماسيح والنمور . .

وطالبت ب .ب . بأن تكف النساء عن ارتداء هذه الجلود التى تؤكد وحشية المرأة !

واستجاب لها كثيرون وكثيرات . وهددت بذلك صناعة الفراء . . ولكن الذين ينادون بحماية البيئة حرموا صيد الحيوانات والطيور المنقرضة فى الدنيا كلها . .

ونجحت ب .ب . فى دعوتها وفى ندائها إلى القارات الخمس .

ولكن نشطت صناعات الجلود المتطورة والفراء الصناعية الثمينة . ولم تستطع ب .ب أن توقف الرغبة الجنسية عند المرأة فى أن تقتل وتذبح وتعترف بحريتها ، والاعتراف هو الفرو الذى تضعه على كتفيها ، أو الجلد فى حقيبتها أو فى حذائها . . أو العاج المأخوذ من الفيلة والموضوع فى أدوات تجميلها !

وأقامت ب .ب محميات باسمها فى فرنسا . . وافتتحت محميات أخرى باسمها فى بلاد كثيرة .

وسوف تقف ب .ب أمام المحاكم الفرنسية عند نهاية هذا الشهر . فقد حدث أن ذهبت سيدة فرنسية لتشهد سباق الخيل ومباريات الجولف ، وهذه السيدة تحمل معها ديكا ، وهذا الديك عندما تضغط صاحبته على رقبته يصيح معلنا فوز أحد المتسابقين . والسيدة الفرنسية فى التسعين من عمرها ، وقد اعتادت أن تحمل الديك فى ملابسها فلا يلاحظه أحد . . وقد تضايق اللاعبون من هذا الديك الذى يعلن فوز الخصوم قبل الأوان . فلجئوا إلى البوليس . فطردها البوليس . وأعادوها إلى فرنسا ، أما الديك فقد بعثت به الحكومة الفرنسية إلى محمية ب .ب للحيوانات والطيور . وكانت حجة السلطات الفرنسية أن صاحبة الديك قد أساءت استخدامه ، وأنها قد أزعجت به الناس ، وحاولت صاحبة الديك أن تسترده فلم تستطع ، فلجأت إلى القضاء تتهم ب .ب بأنها أرادت الرفق بالديك فكانت قاسية على صاحبته . . أى : حققت الرفق بالحيوان والقسوة على الإنسان ؛ وقرر القضاء الفرنسى استدعاء ب .ب وسؤالها عن هذه الشكوى .

قالت ب .ب للقاضى : إن السيدة صاحبة الديك قد عذبته كثيرا حتى يستجيب لرغبتها فى أن يصيح فى الوقت الذى تريد . . فهى لاتطعمه إلا إذا فعل ذلك !

ودافعت السيدة عن نفسها فقالت : اسألوه . . إننى بالحب فقط جعلته يصيح . . ثم إننى لا أنام الليل إلا إذا كان هذا الديك عند رأسى . . وإلا إذا وقف على صدرى وراح يصيح . . أنا أنام وهو نائم ، وأنا أطالب ب .ب بدفع ألف فرنك هى قيمة الحبوب المنومة التى تعاطيتها فى غياب الديك !

ورفعت الجلسة إلى الشهر القادم للنطق بالحكم . . ما حكمك أنت ؟

ليلى مراد .. ماتت يوم القيامة

ماتت ليلى مراد .. عاشت محبوبة وماتت محبوبة . آه لو كانت ليلى مراد ماتت قبل اغتيال «رابين» ، لظلت إسرائيل تبكيها ليلا ونهارا ، ولكنها ماتت فى أيام الأحزان والحداد على «إسحاق رابين» وعلى الصورة اليهودية التى رسمتها إسرائيل لنفسها وأبنائها فى الدنيا .. هذه الصورة ترجمتها : إن الشعب اليهودى مختلف عن كل شعوب الأرض . وأنه أكثر تمسكا بالوصايا العشر التى نزلت على موسى - عليه السلام - .. ومن أهم الوصايا ألا تقتل أحدا .. وخصوصا ألا يقتل يهوديا مثله ..

ولكن ليلى مراد اليهودية التى أسلمت ماتت فى أشد أيام اليهود سوادا وحزنا وهما وغما ..

ومصر أيضا كانت فى أيام حداد على شهدائها فى سفارة باكستان .. فقد شاء المجرمون الذين هربوا من مصر وفشلوا فى اغتيال الرئيس مبارك وفشلوا فى الانتخابات فى الجزائر ، وسيلقون نفس الفشل الشنيع فى انتخابات مصر ، فكان لابد أن يطلقوا فائض الرصاص على أبرياء مصريين وأبرياء باكستانيين ، وهى الدولة المسلمة التى سلمت السلطات المصرية عشرات من الإرهابيين لمحاكمتهم فى مصر .. وبعد ساعات من وفاة ليلى مراد وقع زلزال فى مصر وإسرائيل وسوريا والأردن وشمال السعودية .. وسقطت بيوت وأزهقت أرواح تحت الأنقاض .

كأن ليلى مراد قد ماتت يوم القيامة فلم يدر بها أحد ..

وقد حدث للكثيرين من الأدباء والفنانين أن ماتوا مثلها ..

فالمنفلوطى مات يوم إطلاق الرصاص على سعد زغلول : فلم يمش فى جنازته سوى ستة أشخاص . والأديب الإنجليزى «هكسلى» مات يوم اغتيال «كيندى» ، فلم يعرف ذلك أحد إلا بعد سنة من وفاته ..

والعالم الأديب حسن عثمان مات يوم وفاة طه حسين ، فلم يتنبه لذلك أحد ..

والصحفى أحمد الألفى عطية مات يوم وفاة الأديب والشاعر كامل الشناوى ، فذهب الألفى إلى القبر وحيدا ..

وكذلك ليلى مراد التى ولدت فى نفس السنة مع جمال عبد الناصر والسادات و«شاوشيسكو» والمستشار الألمانى «هيلموت شميث» والأديب الروسى «سولجنستين» والمطربة الأمريكية «ألا فتزجيرالد ..» .

وليلى مراد تزوجت ثلاث مرات : أنور وجدى والمخرج فطين عبد الوهاب ووجيه أباظة ..

وهى من أسرة فنية . أخوها منير مراد كان ممثلا وملحنا ذكيا ظريفا . ولها أخت هاجرت إلى أمريكا هى سميحة مراد ، وقد ظهرت مرة واحدة على الشاشة . ولم تنجح . ولها أخت مطربة مغربية الجنسية اسمها ملك أو سلكة . ولم نرها فى مصر ؛ فقد عاشت فى أمريكا اللاتينية . ولا أحد يعرف إن كانت هى الأخرى قد ماتت ..

أما عدد أغانى ليلى مراد فهى حوالى الألف أغنية ، والأفلام التى ظهرت فيها كبطلة فحوالى ٢٨ فيلما .

وكانت ليلى مراد تتقاضى أكبر أجر فى تاريخ السينما المصرية وكان اشتراكها فى أى فيلم نجاحا مؤكدا . .

وعندما يؤرخون للأناقة والشياكة على الشاشة ، فلابد أن تكون ليلى مراد هى أشيك ممثلة عرفتها السينما . .

وكان محمد عبد الوهاب يصف ليلى مراد بأنها أكثر المطربات انضباطا . فهى تلتزم بالمواعيد ولاتخرج عن الأداء اللحنى . وإنما تؤديه بالضبط كما أراد الملحن . بينما كثير من المطربين والمطربات يضيقون بالالتزام ، وكثيرا ما أدى ذلك بالمطرب إلى (النشاز) . .

وإذا كانت أم كلثوم هى سيدة الغناء العربى كله ، فإن ليلى مراد سيدة الغناء على الشاشة .

وقبل وفاة ليلى مراد بثلاثين عاما قررت أن تعتزل . فقد أحست أنها لم تعد قادرة على أن تواصل . . فقد تغيرت الدنيا وتغير ذوق المستمعين . ولذلك توقفت ، وحاول كثيرون إعادتها إلى الميكروفون . ولكنها رفضت . وكذلك توقف كثير من الملحنين الذين كانوا يغنون أيضًا .

وأم كلثوم كانت لها توصيفات للمطربات . فكانت تقول : إن ليلى مراد صوتها مريح . . وشادية صوتها ظريف . . وفايزة أحمد صوتها متوحش . . وفيروز صوتها حرير . .

ولكن ليس لصوت أم كلثوم أى مثيل فى تاريخ الغناء العربى فى كل العصور . .

أذكر أن طلبتنى ليلى مراد وألحت أن نلتقى ، حاولت أن أعرف لماذا ؟ ولكنها قالت : يا أخى مفاجأة . . أنت لاتحب المفاجآت؟ . . والنبى لا انت جاى .

وذهبت للقائها . وجدت أخاها منير مراد وأخاها مراد وأختها سميحة . . أما الموضوع فدينى بحت . . لقد اختلفوا على تفسير بعض الشعائر اليهودية . ورأوا أن أفصل بينهم . واندهشت جدا . كيف أنهم لا يعرفون ، وإذا أرادوا أن يعرفوا فلماذا لا يلجئون إلى من هو أكثر علما بالديانة اليهودية . فأنا على علم بأشياء كثيرة ولكن لست عالما إلى هذه الدرجة . واختلفنا ، أنا كان لى رأى ، وكان لهم معا رأى ، وقلت : إننى متأكد من معلوماتى .

وبعد أيام طلبتنى ليلى مراد لتقول لى : أنت على حق ونحن أيضا على حق . .

كان موضوع الخلاف هو الشموع التى توقد فى «عيد الشموع» ، هى تبدأ بسبع شموع ثم تصير واحدة أو تبدأ بالواحدة حتى تصبح سبعا؟ وكان من رأيى أن كل إنسان حر فى أن يبدأ بالواحدة وينتهى بالسبع أو العكس ، وكان من رأى ليلى وإخوتها أن البداية لابد أن تكون بالواحدة حتى تبلغ سبع شموع !

وجاءت الفتوى بأننا جميعا على صواب . واندهشوا كيف أعرف ذلك ، واندهشت أنا كيف لايعرفون ذلك وهم يهود؟ !

ومرة ثانية حدثتنى ليلى مراد فقلت لها : عن إذنك يا ليلى .

قالت : فيه إيه ؟

قلت : أريد أن أضحك . .

فإذا لم أطلبك بعد خمس دقائق فاعلمى أننى ست من الضحك .. عن إذنك ..

وأقفلت التليفون .

وطلبتنى : يعنى ما متش ؟

- كنت حاموت .

- ليه؟ ..

- أنت فاكرة أنا مين .. أنت تطلبين منى أن اشترى مكتبة فلان المليونير اليهودى .. أنا لست غنيا إلى هذه الدرجة .

- كل المطلوب هو خمسة آلاف جنيه . وتصبح هذه المكتبة ملكا لك ..

لم أسمع كلامها .. لم أستطع فى ذلك الوقت .. فقد كان مرتبى ٢٨ جنيها من جريدة (الأهرام) و٢٠ جنيها من جريدة (الأساس) ومرتبى كمدرس فى الجامعة ٢٠ جنيها ، وكان ذلك سنة ١٩٥٣ .

وكانت هذه واحدة من عشرات النكت التى اخترعتها ليلى مراد .. لكنها كانت ظريفة وبنت نكتة .. الناس يحبون صوتها وجلستها .. والتف حولها كثيرون أكثر من المقامرين الذين جعلوها تبيع كل ما لديها ..

وفى الموت يستوى الغنى والفقير ، ولكن يطول عمر الفنان .. فهى قد ماتت وسوف يبقى صوتها وصداها يتردد فى آذان مئات الملايين !

ماتت ليلى مراد بعد أن أراقت العيون كل ما فيها من دموع فى مصر وفى إسرائيل !

توفيق الحكيم : لاعشرات !

طلبت من توفيق الحكيم أن يكتب لنا مقالا أسبوعيا فى مجلة (أكتوبر) . ووافق . واعتذر . ثم عاد فوافق . ولم أفهم السبب ، ولكنه صارحنى : كم ستدفع فى المقال ؟ قلت له : اللى تطلبه .

قال : يعنى كام ؟

قلت : أى مبلغ تراه .

- وهيه مجلة أكتوبر غنية للدرجة دى ؟

- مش غنية ، لكن أنت اللى غالى عندنا .

- أكثر من الأهرام ؟

- مش فاهم .

- يعنى هل ستدفع لى أكثر من الأهرام ؟

- نعم . أكثر من الأهرام .

- طيب . سيبنى أفكر .

- وهو كذلك ..

وكل يوم يتردد هذا الحوار بينى وبين الحكيم فى التليفون . واللى يعيده يزيده مع إضافة تحفظات أكثر .. هكذا ..

- متى يا أستاذ أول مقال ؟

– على قد فلوسك .

– الفلوس جاهزة .

– يعنى قبل ما يوصلك المقال توصلنى الفلوس .

– موافق .

– كده ؟

– أيوه كده .

– دى مش حاجة غريبة ؟

– لا مش غريبة .

– أنا ماكنتش فاهم كده !

– متى يا أستاذ ؟ .

– أنا جاهز . .

– أبعت لك الفلوس وتبعت لى المقال؟ . .

– ياه! ده أنت جاهز خالص ومستعجل . .

وكل أسبوع بالشكل ده ؟

– أيوه يا أستاذ . .

– والله كويس قوى . .

– هه . . متى ؟

– خلاص ما أنت وافقت .

– طيب متى ؟

– أى وقت .

– كده على طول ؟

– أيوه كده على طول . .

– حاجة حلوة قوى . .

– . . . . .

وحكيت الحكاية للإذاعية الكبيرة صفية المهندس ، واقترحت عليها أن نسجل هذه المكالمة التليفونية وأن نذيعها ، وأن نفاجئ بها توفيق الحكيم . . وفى اليوم الذى بدأنا التسجيل أفلتت من توفيق الحكيم كام كلمة لايمكن إذاعتها . . وهو يقول مثلاً : أصل أنا متجوز الأهرام ، ولما أكتب عندك يبقى باخبص . . ومادام باخبص بقى يبقى لازم حاجة تستاهل . . هاها . . هاها . . يعنى الثمن كبير هاها . . هاها . . وعدلنا عن التسجيل . .

وفى إحدى حفلات العشاء جلست إلى جوار توفيق الحكيم . وفاتحته مرة أخرى فى الموضوع . فقال : أنت جاهز؟ . . قلت : أيوه . . قال : يعنى معاك الفلوس دلوقت؟ . . قلت : أيوه . . قال : مائة جنيه يعنى فى المقال؟ .

قلت : أيوه . .

قال : لايمنى على المبلغ . .

ووضعت يدى فى جيبى لم أجد إلا أربعين . . وكانت تجلس إلى جوارى السيدة سميحة توفيق ، قلت لها : معاك ستون جنيها يا سميحة .

وأخرجت الستين جنيها من حقيبتها ، ودفعت المائة جنيه لتوفيق الحكيم . . وراح يعدها ويضعها فى جيبه . . ثم يخرجها ويعدها كمان مرة . .

واقترب مني وقال : المرة الجاية مش عاوز المائة جنيه ورقات بعشرة . . عاوزها مائة ورقة . . أشوفها . . وأعدها عشرة . . عشرة . . أحس بأنها فلوس . . إنما بالشكل ده مش حاسس أنها فلوس . . تعرف لو أنت جبت لي الفلوس «شيك» ماكنتش أرضى أخذه أبدا . . أنا عارف ده له رصيد ولا مالوش . . أشوف الفلوس بعيني . . وأعدها . . آه كده !

– خلاص يا أستاذ . . المرة الجاية أبعث لك المائة جنيه عشرات .

– لا لا . . عشرات لا .

– فعندي عشرات صاغات !

– أبدا . . دي تبقى عاملة زي البقشيش . . كأني قهوجي ولا سايس عربيات . . جنيهات أحسن . . وتعرف عاوز تبسطني بقى . . كلها جنيهات جديدة لانج . . أنا بقى أنبسط على الآخر !

ومضى توفيق الحكيم يكتب مقالات لمجلة (أكتوبر) . المقالات عبارة عن خطابات تلقاها توفيق الحكيم واحتفظ بها سنوات طويلة . . ثم أعاد نشرها وكتبت تعليقا عليها . وكانت التعليقات ظريفة ومسلية وممتعة . .

هو سعيد بالجنيهات . ونحن سعداء بالمقالات . .

إلى أن بدأت أنشر مسلسل (في صالون العقاد كانت لنا أيام) . . وكانت أكبر حدث أدبي في خمسين عاما . وكان قد قرأها الرئيس السادات الذي سجل رأيه على شريط كاسيت جعلت لويس عوض وثروت أباظة وزكي نجيب محمود يستمعون إليه في

دهشة وذهول . ماذا قال السادات في الأدب والأدباء والنقد الأدبي . . وعن رأيه في العقاد والحكيم وطه حسين ، وعن دورهم السياسي ، وعن الحياة الثقافية في مصر التي لم يكن يعرف عنها شيئا ، فقد كان مشغولا بالمشاكل السياسية ، أي في الجانب الآخر من الحياة المتوهجة في صالونات مصر وأنديتها الأدبية .

وبعد عدة حلقات من هذه السلسلة استدعاني توفيق الحكيم لأمر هام . وظننت أنه يريد مبلغا أكبر ، فلا مانع . وذهبت إلى توفيق الحكيم . وقلت : خير يا أستاذ؟ قال : تعرف أن مقالاتك عن العقاد من أروع ما يمكن . وأنت كنت ساكت كل المدة دي ليه ؟!

العقاد مات سنة ١٩٦٤ والسلسلة بدأت في أواخر سنة ١٩٨١ وآخر مقالة كانت يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ ، يوم اغتيال السادات أهم قراء هذه السلسلة ، والذي نصح زوجته السيدة جيهان السادات بأن تحرص على قراءتها . وطلب مني أن أبعث بكل حلقات هذه السلسلة لتتابعها . . وطلب إلى أولاده أيضا وإلى عدد من الوزراء . .

وفجأة قال لي توفيق الحكيم : تعرف بعدما قرأت مقالاتك عن العقاد قررت أن أتوقف عن الكتابة في مجلة (أكتوبر) . .

– ليه يا أستاذ ؟ نزود المبلغ ؟

– لا . . مش المبلغ . . وحتى لو زودت المبلغ . فأنا لا يمكن أن أكتب عندك . . ولايمكن أن تظهر مقالاتي مع مقالاتك عن العقاد . .

– ليه يا أستاذ ؟

– ليه ؟ أقول لك . . أنا فى مقالاتى عامل نفسى أراجوز أضحك الناس . . وأنت عامل للعقاد (معبد إغريقى) . . ونازل صلاة وعبادة وبخور للعقاد . . لا . . لا يمكن . . انتهى .

– إزاى ؟

– قرار . .

– طيب بعد ما أنتهى من السلسلة ؟

– أيوه ، فى المشمش . .

– يعنى إيه ؟

– بس كده !

خناقات الكبار على التفاهات

للأستاذ العقاد صور بالطربوش وبالطاقية . والطاقية عادة تكون مخططة من نفس قماش البيجاما . وكان يرتدى البيجاما فى ندوته التى يعقدها كل يوم جمعة .

وكان يرتدى البيريه أيضا . .

وكان الحكيم يرتدى البيريه ويمسك العصا . . وله صور قديمة بالطربوش . . ولم نره قد ارتدى الطاقية . .

وكان للدكتور حسين فوزى ، مؤرخ الموسيقى والطبيب وصاحب الرحلات البحرية العلمية صور كثيرة بالبيريه الأزرق . وكان حريصا عليه ، تماما كما كان يفعل فى باريس . وكانت زوجته فرنسية . ولم نره بالطربوش أو بالطاقية . .

وكان العقاد يتضايق جدا من نشر صوره دون مراعاة للمقال أو نوع الموضوع الذى يكتبه .

وكانت شكواه من أن الذين يعملون فى سكرتارية التحرير ، جميعهم من الشيوعيين . وهذا هو التفسير الوحيد الذى كان يرتضيه العقاد . إيه الحكاية ؟ الحكاية أن الأستاذ العقاد لاحظ أنه عندما يكتب موضوعا جادا فإنهم ينشرون معه صورة بالطاقية والبيجاما ؟! وعندما يكون الموضوع هزليا ينشرونه بالبدلة والطربوش . . وهو يرى أن

العكس هو الذى يجب أن تفعله السكرتارية .. كما أن صورا له ضاحكة يضعونها عادة مع الموضوعات الجادة ، أما صوره الجادة الصارمة فيضعونها مع مقالاته الهزلية الفكاهية !

ولايجد العقاد تفسيرا إلا أنهم شيوعيون معادون له ، وحريصون على تشويه صورته عند الناس !!

وحاولت وتعبت . قلت له : يا أستاذ إن سكرتير التحرير هذا غالبا لا يقرأ المقال .. وإنما هو يضع صورة فى المقال ، أى صورة . المهم أن عنده مساحة يجب أن يغطيها بصورة . وهو لاينظر إلى الصورة ولأنه لم يقرأ المقال ، فلا يهمه كثيرا أو قليلا إن كانت تناسبها أو لاتناسبها .

فيقول العقاد : كيف لا يقرأ .. إن هذا جهل .. ولكنه يقرأ ويتعمد الإهانة .

- والله يا أستاذ لايقرأ ، ولايجد ذلك ضروريا .

- لايجد من الضرورى أن يقرأ مقالا كتبه العقاد .. إذن ما الذى يجده ضروريا لكى يقرأه؟ !

- لايجد أى شىء ضروريا ..

- ما هذا ؟

- هذا ما يحدث يا أستاذ ..

- إذن الصحافة جهل قائم على جهل .

- هى كذلك .

- ولكنك لست جاهلا .

- ولكنى لا أعمل سكرتيرا للتحرير .

- ولكنك تعرف سكرتير التحرير ..

- أعرفه ، ولكنى لا أتدخل فى عمله المرهق حتى الفجر من كل يوم ..

- إنهم الشيوعيون ، لاشك فى ذلك .. الشيوعيون أولاد الكلب ..

- هم كذلك ، ولكنهم هم الذين لايقرءون ولايهمهم نوع الصورة التى توضع مع المقال ..

ولم يقتنع العقاد ..

وفى يوم أجريت حديثا مع توفيق الحكيم ، وقلت : إنه الذى ينفرد بلبس البيريه الأزرق .. وهو قد ارتداه قبل د. حسين فوزى والمخرج محمد كامل مرسى .. وكل سائقى التاكسى فى مصر !

ولم يخطر ببالى أن هذا موضوع يهم الأستاذ العقاد . ويضايقه أيضا . ولم أفهم . فقال لى : ليس الحكيم هو أول من ارتدى البيريه يا مولانا .. أنا أول من ارتداه .. أخونا توفيق قد اقتبسه منى .. هاها .. هاها .. كما يفعل فى كل شىء آخر .. إن لم تصدقنى فاسأله .. هاها .. هاها ..

وسألت الحكيم . فقال : العقاد قال كده .. وبعدين ؟

- وبعدين لا أعرف .. هو قال كده .. وطلب منى أن أسألك ..

- يعنى ، فقد رأى العقاد أنه هو أول واحد لبس البيريه .. وأنا سرقت منه البيريه ؟

- أيوه . .

- والحل ؟

- مش عارف .

- وحيفضل العقاد زعلان كده . . ويحكى الحكاية دى لكل واحد يزوره ؟

- مش عارف . .

- طيب خد البيريه وإديه للعقاد . .

- هو لم يقل : إنك سرقت البيريه . . وإنما سرقت عادة لبس البيريه . .

- كده . . بلاش البيريه يا سيدى . . وينبسط العقاد بقى ؟

- والله مش عارف!

وذهبت للأستاذ العقاد أحكى له ما دار بينى وبين الحكيم . . فضحك العقاد وقال : ضحك عليك توفيق الحكيم وتظاهر بالذهول والسرحان . . وجعل الحكاية نكتة . . هل هو سرق البيريه ؟ . . والا هو سرق لبس البيريه ؟ . . وترك الموضوع معلقا . . هاها . . هاها .

ومضت سنوات طويلة على ذلك . . وفى إحدى ندوات العقاد وجدته متضايقا . سألنى : قرأت الحديث الذى أجراه الحكيم عندك فى مجلة (الجيل) !

قلت : أيوه يا أستاذ .

- هل لاحظت أنه عاد إلى حكاية البيريه ؟

- لم ألاحظ . .

- إنه يقول : سوف أرتدى البيريه . . لأنه يدفئ الرأس ، ولأننى اعتدت على ذلك ؛ فقد كنت فى باريس . . ولم يقل : إنه نقل هذه العادة عنى . . ألم تلاحظ ؟

- لم ألاحظ . .

- إذن ، أنت أيضا لا تقرأ .

- يا أستاذ لا أحد يعرف سرقة البيريه . . دى حاجة بينك وبين توفيق الحكيم .

- ولكنك تعرف .

- فما الذى كان من الواجب على أن أفعله ؟

- أن تنبه الحكيم إلى أنه لص .

- أنا ؟

- أيوه أنت يا مولانا . . هذه سرقة لايصح السكوت عليها . .

- طيب إيه رأيك يا أستاذ أن الحكيم لم يعد يرتدى البيريه .

- كده . . هاها . . هاها . . هذا اعتراف بأنه سرق . . وأنه ندم على ذلك . . هاها . . هاها . .

- طيب يا أستاذ ، لماذا لاتعود أنت إلى ارتداء البيريه . . وقد كنت أول من فعل ذلك ؟

- سوف يقول الحكيم : إننى أخذته عنه . . فلا أحد يعرف أننى أول من ارتداه ؛ لأننى عدلت عنه من وقت طويل . . وسوف يجعل منها أخونا توفيق الحكيم حكاية ورواية . . لن أعطيه هذه الفرصة . . هاها . . هاها . .

سفالة العظمة
وعظمة السفالة

منذ أيام صدر كتاب ضخم عن حياة الفيلسوف الإنجليزي «رسل» . . وهو من أجمل العقول وصاحب أبدع الأساليب . . ومن أسفل الناس خلقاً !

أبوه مات وهو فى الثالثة . . وأمه ماتت وهو فى الرابعة . . فذهب ليقيم فى بيت جده اللورد الغنى ، وتولاه نوع من الرعب ، خوفا من أن يموت جده ، فيكون وحيدا فى هذه الدنيا . ومات جده بعد سنتين .

وبسبب هذه الوفيات المتكررة والنحس الذى لازم حياته الأولى ، التقت حياته كلها حول ثلاثة قضايا : الحب والمزيد من المعرفة والحزن على عذاب الإنسانية . .

أما الحب فقد أولاه الفيلسوف «رسل» عناية شديدة . . فقد كان غرامه هو الإيقاع بالجميلات . ولا يمضى وقت طويل حتى يكون زهق وقرف . . فيترك البنت الحلوة ، سواء كانت عشيقة أو زوجة . . ويكون الترك لأسباب فلسفية وأحيانا لأسباب حربية . . كان يقول لها : إن انشغالى بالحرب العالمية (الأولى) وعذابى أغلق قلبى بالضبة والمفتاح . . فلا مكان لك . . امشى اطلعى بره !

وبعض الفتيات أصابهن الجنون بسبب السلوك العنيف المفاجئ لواحد من أعظم فلاسفة القرن العشرين .

وكانت ضحايا الفيلسوف العظيم من القريبات منه دائما . . وهو يفضل زوجات أصدقائه . . فمثلا غرر بعروس الشاعر العظيم «ت .س . إليوت» . . وغيرها من زوجات الآخرين . . لماذا ؟ يقول : ليس عندى وقت ، ولا معنى للنوفاء . . إننى أريدها وهى تريدنى . . فما دخل زوجها ؟!

ويقال له : ألا يوجد وفاء . . إخلاص . . صداقة . . أية مبادئ أخلاقية ؟

ويتساءل الفيلسوف : المبادئ الأخلاقية من صنعى أنا . . أنا الذى أصنع الحلال وأقرر الحرام . . وأنا أرى أن ذلك سلوك سليم . . أنا حر ، وهى حرة ، وهى تعرف ماذا تريد . . وأنا أريد . . فلا أحد قد أكره أحداً على شىء لا يريده . .

ويقال له : ولكنك لم تثبت طويلا على هذا الحب ؟

– صعب أن يثبت الإنسان على طعام واحد . . هذا طبيعى . .

– ولكنه مفاجئ للبنت التى تحبها . .

– يكفيها شرفا أن أحبها فيلسوف . . وهذا الفيلسوف طراز مختلف عن الناس . . وهذا هو الثمن !

– فادح !

– طبعا ثمن فادح !

– كان يهاجم الحرب العالمية الأولى . . ويهاجم الحكومة البريطانية . . فجاء البوليس ليعتقله . . فقالت إحدى صديقاته : ولكنه فيلسوف . .

. . . .

- ولكنه أعظم فلاسفة الرياضة والمنطق فى هذا القرن .

- . . . .

- ثم إن عمه لورد . . وجده لورد . .

فأطلق البوليس سراحه ، وحبسوه فى أحد قصوره . .

وقد روت إحدى العشيقات نموذجًا لسفالة هذا الرجل العظيم ، عظمة سفالته ، وسفالة عظمته . . قالت : كنا نجلس فى إحدى السفن عابرة المحيط . . . وفجأة قال لها : فى رأيك . . ما هو الشىء الذى ارتكبته أنت ويكون من نتيجته أن أدفعك إلى المحيط ؟

انزعجت الفتاة وقالت : حاجة فظيعة ، هذا الذى أسمعه . .

فأعاد السؤال : ما الذى يجعلنى أنقل لك ذلك ؟

فقالت : لا أعرف ، ولكن يبدو أن غلطة أية واحدة تحبك هى أن تتصور لحظة أنك رجلها الوحيد . . وأنها الفتاة الوحيدة فى حياتك !

- صح . .

- تفتكر ما هى الغلطة التى ترتكبها أنت . . وتكون نتيجتها أن نلقى بك فى المحيط ؟

فأجاب بسرعة : المرأة لاتحتاج إلى سبب معقول لكى تفعل أى شىء . .

- هل الحب عمل غير معقول ؟ .

- فعلا . .

- هل الكراهية عمل غير معقول ؟ .

- بل معقول . .

- هل حبى لك جنون ؟

- نعم . .

- هل ابتعادى عنك الآن جنون ؟

- لا بل منتهى العقل . .

- لماذا ؟

- لأننى لم أعارضك . .

- لماذا ؟

- زهقت .

- ولكن علاقتنا لم تزد عن سنة واحدة . .

- ألا ترين أن هذا يكفى لأن تظهر للسمك رائحة وديدان ؟!

- يعنى إيه ؟

- يجب أن نفترق الآن . .

- هكذا !! . .

- نعم . .

- هل هناك فتاة أخرى فى حياتك ؟ .

- نعم . .

- منذ متى ؟

- منذ اليوم الخامس من حبنا . .

- ولماذا ؟

- كيف أعيش بغير واحدة أحبها . . وواحدة أخرى أتركها . .

- هذه هي قمة الغباوة .

- غباوتك ؟

- نعم . .

- ومتى اكتشفت ذلك ؟

- منذ شهور . .

- هذا تقدم عظيم جدا . . في المرة القادمة سوف تكتشفين غباوة الإخلاص لرجل . . لا من ثلاثة شهور ، ولكن بعد ثلاثة أيام . . بعد ثلاث ساعات . . لا تخلصي لرجل ، ولا تتوقعي أن يخلص لك رجل .

- أعوذ بالله .

- فعلا . . لا تعليق على الحياة ومشاعر الإنسان ، إلا بهذا التغيير .

- . . . .

- . . . .

ونتيجة كل ذلك أن الفيلسوف «رسل» الذي فاز بجائزة نوبل ، والذي قاوم العنف والحروب والقنابل الذرية . . عاش وحيدا ، ومات أكثر وحدة . . حاول أن يحب فنجح . . حاول أن تحبه النساء فنجح . . ولكنه حاول أن يعطل أية علاقة ففشل . . عمره فقط هو الذي طال ، فمات عن ٩٧ عاما !

اطلع بـــرة !

- معقول أنت لاتعرف ركوب الخيل ؟

- والله لا أعرف .

- معقول واحد زيك يتكلم عن الخيول وتاريخها وأنواعها وملامح الجمال فيها . . معقول كل ده ولايعرف يركبها ؟ . . دي أبسط حاجة . .

- صحيح أنها أبسط حاجة ، ولكن هذه الحاجة البسيطة أنا لا أعرفها . .

- بلاش تواضع .

- والله مش تواضع دي خيبة ثقيلة . . في استطاعتي أن أصف لك سفن الفضاء وأنا لم أركبها . . وأحدثك عن المريخ وأنا لم أذهب إلى هناك . . إنها معلومات من الكتب . . وأحدثك عن أعراض الموت وأنا لم أمت . . كلها معلومات . .

- يعني لاتعرف كيف تركب حصانا . . سؤال ، ألم تركب حمارا ؟

- ركبت .

- لم تركب بسكليت ؟

- ركبت .

- ألم تركب دماغك ؟

- حصل . .

- يبقى اللى يركب حمارا وبسكليت ودماغه لايعرف يركب حصان . . إن الحصان حمار كبير . . أدى كل الحكاية !

- يعنى إيه ؟

- يعنى أنت أول واحد حيركب حصان ليفتتح مهرجان الخيل هذا العام . . حصانك سوف يجىء وراء حصان الأمير . . إيه رأيك ؟

- يا ناس الأمير ده رجل فارس ابن فارس . . ورشيق القوام . وقد ركب ألف حصان . .

- يعنى مفيش فايدة ؟

- نعم .

- عندى حل بسيط . .

- . . . .

وجاءت ساعة افتتاح المهرجان ، وجاء الفرسان شبان صغار وشابات . . الواحد لايزيد عن ستين كيلوجراما . . ورشيق وخفيف وفارس المنظر والحركة . . وطلبوا منى أن أركب وراء الفارس الصغير وأتشبث بملابسه . . هل هذا معقول ؟

وأنقذنى الصداع وظهور بعض قطرات العرق على وجهى ، واستنادى إلى واحد جالس إلى جوارى . . وجاء التشخيص الطبى بأننى أغمى على من الرعب والكسوف . وكان قرار الطبيب أن يتركونى وحدى فى الفندق . . وحدى أتفرج على السباق والمهرجان على الشاشة . .

ودق جرس التليفون : آلو . . أيوه أنا . . مش فاهم . . مش فاهم . . بكل سرور تتفضل . . بعد ساعة .

ووضعت سماعة التليفون وعاودنى الذهول . ولم أفهم ، وبعد ساعة جاءنى فارس صغير . . يبدو طفلا ولكنه شاب فى العشرين من عمره ومعه سرج حصان . . وقد عرض أمامى كيف يمكن ركوب الخيل والإمساك باللجام . . وكيف أتوازن على ظهر الحصان . . ولكن لماذا ؟ لأنه لابد أن أتعلم ركوب الخيل . . لأن هذا عيب . لايمكن السكوت عليه . .

وبعد ساعة انتقلت إلى أحد الاصطبلات الجميلة الأنيقة النظيفة . . وطلبوا منى أن أركب حصانا واقفا . وأتوا بسلم صغير وصعدت السلم وركبت على ظهر الحصان . . ولم يكد الحصان يتأكد من أن الفارس الذى على ظهره يعادل فى وزنه اثنين من الفرسان الصغار . . وأن هذا شىء غريب شاذ . . فما كان من الحصان إلا أن ارتفع عن سطح الأرض لأجد نفسى فى الهواء . ثم أسقط على الأرض المغطاة بنشارة الخشب . . ووجدت رأسى تحت رأس الحصان الذى منعه الأدب والشهامة من أن يغرس حوافره فى بطنى عقابا على اعتدائى عليه . . وإهانتى له . . فليس هذا الحصان النبيل حمارا أو بغلا . . ولا هو يجر العربات . . وركوبى على ظهره بهذا الشكل امتهان له . . ولا أعرف كيف أعتذر له . . ولكن الحصان عاقبنى . ومن الضرورى أن انهض وأنفض نشارة الخشب عن ملابسى وأعود إلى الفندق لأكتشف بعض الجروح والرضوض فى أماكن مختلفة من جسمى . .

ووقفت أمام المرآة أرى هذه الجروح . . وارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى أقرب مستشفى وطلبت كشفا بالأشعة على كل

عظامى . . وأن أرى هذه الصور بعد ذلك وأعرضها على طبيب فى مستشفى آخر . . اليوم وليس غدا . .

وأدخلونى فى أنبوبة كبيرة . . والأنبوبة باردة جدا وأنا عريان ملط . . وأجهزة لها أصوات غريبة تلتقط لى صورا . . والأنبوبة تتقلب وأنا أدور معها ، مرة على وجهى . . ومرة على ظهرى . . ومرة على قفاى . . والأنبوبة باردة جدا . . وأنا أطلب أن أخرج . ولكن لا أحد يسمعنى . . فأنا وحدى فى غرفة مظلمة . . وصوتى لا يسمعه أحد وسط ضجيج الكاميرات . . وأغمض عينى . . وأحاول أن أفكر فى أى شىء . . كل شىء مستحيل . . فأنا أرتجف من البرد . . ومن الغيظ . . ومن اليأس فى أن أخرج من الأنبوبة . . ولا أعرف كيف أنقذنى النوم . . أو الإغماء . ووجدتنى عاريا أمام الممرضات . . ووجدتنى أدخل فى ملابسى وأنا أرتعش وألعن كل الحيوانات ابتداء من الحمار وانتهاء بالحصان والإنسان . .

وتحت اللحاف والبطاطين فى غرفتى فى الفندق مددت يدى إلى التليفون أطلب مشروبات ساخنة . . وجاء الجرسون طويلا عريضا ووجدنى ملفوفا فى البطاطين وعلى رأسى طاقية صوف والتكييف مغلق فى الغرفة . . نظرت إليه وقد وجدت شكله غريبا مخيفا : أنت اسمك إيه ؟

قال : فارس .

قلت : إيه ؟!

قال : فارس .

قلت : فارس ؟ تانى !! امشى اطلع بره . . بره يا ابن الـ . .

صديقى . . محيى عرفان

لى صديق لا تعرفه . . وليس من الضرورى . . اسمه محيى عرفان . . ولكن لأنه نموذج لملايين الناس ، فمن المهم أن تعرفه . هو رجل نحيف جدا لدرجة أن يجعلك تشعر بأنه من الممكن أن ينكسر قطعتين أو ثلاثا فى أى وقت . . وإذا خرج فأنت على يقين من أنه لن يعود . . وإذا جلس فمن الممكن ألا يقف وحده . . وإنما سوف يتساقط على الأرض ؛ لأنك لاتعرف كيف هو مشبوك بعضه فى بعض . . الذراعان والساقان . . ولكن محيى يكذب كل هذه التخوفات ، فهو رشيق الحركة خفيف الوزن متين البناء . . قوى .

فى مرة أخذته للقاء الشيخ الشعراوى . . نظر إليه الشيخ الشعراوى طويلا ثم استأنف الكلام . . وبعد ذلك نظر إليه الشيخ الشعراوى وأحس أنه غير قادر على الكلام مادام محيى عرفان هذا جالسا أمامه . . لماذا ؟ لا أعرف . . ولذلك سأله الشيخ : أنت تعبان لا قدر الله ؟

قال : أبدا . .

ـ طيب سيادتك مبسوط ما شاء الله ؟

ـ أبدا . .

- جنابك قرفان والعياذ بالله ؟

- أبدا . .

- ألا قل لي . . أنت يا ابني زعلان مني والعياذ بالله ؟

- أبدا . .

- أمال سيادتك بتبص لي كده زي ما تكون عاوز تخنقني؟! . . أنا عملت لك حاجة يا ابني؟! . . أنا أخذت منك حاجة؟! . . حد قال لك يا ابني إني عاوز أستلف منك ولا حاجة؟! . .

- أبدا . .

- هل أحد أرغمك على إنك تيجي وتسمع كلامي؟! . . إذا كان مش عاجبك كلامي تقدر تمشي . .

- وأمشي ليه ؟

- يا تمشي أنت يا أمشي أنا !

- ليه ؟

- يا أخي مش عارف أتكلم وأنت بتبحلق لي بالشكل ده . . طيب تقدر تغمض لحد ما أخلص كلامي . .

- أه ممكن . . (وأغمض عينيه) .

ومضى الشيخ الشعراوي في حديثه . . ثم شعر بقلق وقرف وضيق ، فاتجه إليه يقول : إنت يا أخينا . . إنت يا اللي نايم . .

- نايم ؟ أنا مش نايم . .

- إيه اللي جرى يا ابني . . أنت بتشخر وأنت صاحي . .

- أيوه أنا كده . .

- إذا كنت بتشخر وأنت صاحي . . أمال وأنت نايم بتعمل إيه؟ . . وإلى لقاء آخر إن شاء الله . .

وأقفل الشيخ الشعراوي المصحف ، وتركه على المقعد ، وانسحب خارجا ، وأسند محيي عرفان ظهره إلى أحد أعمدة المسجد . . ونام بمنتهى العمق . . وكما هي العادة فإنه يحدث عددا من الأصوات الغريبة . . هل هي مجموعة من الضفادع والصراصير والديوك التي على رقبتها السكينة ؟ . . كل ذلك يخرج من حنجرته . . آه لو سمعها الشيخ الشعراوي . . ولكن لم يسمعها والحمد لله . .

سألت الشيخ الشعراوي عن الذي ضايقه من نظرات وعبرات وزفرات صديقي محيي عرفان ، قال : يا أخي . . الرجل ده بيبص لك كأنه جالس على خازوق . . تعبان . . قرفان . . مرغم على الجلوس . . وعلى ذلك يجب أن أنهي كلامي وأخرج في ستين داهية . . شيء عجيب . . إذا كان هذا شعوره ؛ فما الذي أتى به؟! . . إنني بالضبط مستعد أن أبعد عن هذا النوع من الناس إلى أي كوكب آخر . .

وسمعت من الشيخ الشعراوي أنه جاء مرة إلى المسجد مبكرا . . فأسرع صديقي محيي عرفان إلى الجلوس إليه . .

وسكت الشيخ الشعراوي ليقول : والله لقد كانت تجربة عظيمة . . حمدت الله عليها . . فلم أكن أتصور أنني أملك كل هذه الطاقة العظيمة من الصبر على المكاره . . فقد سألني صاحبك هذا وقال لي : أحب أن أسمع نبذة عن حياتك

الأولى . .

فترددت وقلت له . . وفى كل مرة أبدأ فى حكاية أو شرح آية أو حديث نبوى يقول لى : ما علينا من ده . . احكى لنا كيف كان أبوك وأمك وأخوتك . . وأبدأ فى الحكاية فيقول : سيبك من الكلام الفارغ ده ، سمعناه فى التليفزيون . . كلمنى عن نفسك . عن أحوالك . . وأكلمه عن نفسى وعن أحوالى . . فإذا به يعارضنى ويقول لى : لا مؤاخذة يا سيدنا ، أنت رجل تحب الصراحة . . وبمنتهى الصراحة هذا كلام فارغ . . وأنت يجب أن تكف ، فالناس قرفت من سيرتك . . كلمنى عن أحب الأغانى إليك . . بلاش الأغانى . . أحب المجلات إليك . . وإذا كان عندك استعداد أن تشترك فيها . . تشتريها يعنى . . مش تكتب فيها . . قلت إيه؟ . .

فما كان من الشيخ الشعراوى إلا أن نهض واقفا يقول : لا إله إلا الله والعياذ بالله . . واستعنت بالله عليك وعلى الذى أتى بك إلى هنا . . ولو لم أكن مؤمنا لتركت لك هذه الدنيا متمنيا ألا أراك فى الآخرة . . ولو دخلت الجنة لتركتها وألقيت بنفسى على أبواب جهنم . . إنت إيه ؟ . . أنا سألتك ما إذا كنت جالسا على خازوق . . آسف يا ابنى . . أنت الخازوق نفسه . . منك لله يا أنيس يا منصور !

أردت تقديم صورة لصديقى محيى عرفان . . حتى إذا قابلته فى الطريق ، أو جلست إليه ، أن تحترس من النظر إليه . . أو نظره إليك . . ولقد أعذر من أنذر . . والله على ما أقوله شهيد !

صديقنا :
مصطفى حسين

ولم أقل : صديقى أنا وحدى . . فهو صديق لكل الناس . . الذين يعرفونه والذين لايعرفونه . . وهو صديق الذين لايعرفونه أكثر . . وتستطيع أن تقوم بهذه التجربة البسيطة . . تستطيع أن تقابل مصطفى حسين وتأخذه بالحضن وتبوسه من هنا ومن هناك ، ومن هنا ومن هناك . . وتضع يدك فى جيبه وتخرج علبة السجائر ويشعلها لك ويطلب القهوة . . ثم تتركه وتمشى . . ولو سأله أى واحد بعد ذلك : صاحبك ده يا مصطفى ؟

ـ لا ما عرفوش . .

ـ أمال إيه البوس والأحضان دى . .

ـ أنا عارف ؟! . .

ـ طيب إيه رأيك إنه كان زميلك فى الكلية . .

ـ والله؟ سنة كام ؟

ـ يا أخى ده كان دفعتك سنة بسنة . .

ـ شىء غريب . . أنا نسيته خالص . .

ـ طيب إيه رأيك إنه ما كانش زميلك . . أخوه هو اللى كان زميلك . .

ـ وأنا بأشبه عليه .. آه كده ..

ـ طيب إيه رأيك إن مالوش أخ .. وإنه كان فاكرك الشاويش عوضين .. اللى كان شاويش فى الكلية الحربية ..

ـ والله شىء غريب قوى! فعلا أنا لاحظت إنه كان يحيينى تحية عسكرية .. ولما أخذنى بالحضن كانت عضلاته قوية جدا ..

ـ طيب إيه رأيك إنه ولا كان زميلك ولا جارك ولا كان فى الكلية الحربية ..

ـ أمال إيه ؟

ـ ده المحرر الجديد فى مجلة (كاريكاتير) ..

ـ الله ده أنا أول مرة أشوفه ..

ـ أنت تعرف إنه خدك بالحضن كده ليه .. لأننا قلنا له : إنك المهندس يحيى زيدان رئيس مجلس إدارة مجلة (كاريكاتير) ..

ـ أمال لما حيشوف يحيى ، حيقول إن ده مصطفى حسين . والله فكرة ..

ـ أقول لك الحقيقة ..

ـ الحقنى الله يخليك ..

ـ إحنا قلنا له : إنك أخو ليلى علوى ..

ـ علشان كده راح بوسنى من هنا وهنا .. وباين عليه كان عاوز يبوسنى فى بقى .. الله يخرب بيته !

ـ لأنك أنت من ريحة الحبايب ..

ـ بالذمة! وهو مين الجدع ده ..

ـ والله ما أعرف ..

ـ ما تعرفش هوه مين ؟

ـ والله أول مرة أشوفه هنا ..

ـ طيب ييجى معانا يتعشى علشان نعرفه أكتر ..

هذا من الممكن أن يحدث فى أى وقت .. ألم أقل لك : إن مصطفى حسين أكثر الناس حماسا وأحضانا وقبلات للذين لايعرفهم ..

جانب آخر من شخصية مصطفى حسين ، أشهر رسام كاريكاتير فى العالم العربى ، وهو أحسن واحد يعطى مواعيد دقيقة : الساعة التاسعة و٣٥ دقيقة .. أو الحادية عشرة إلا عشرة دقائق .. ثم لايجىء .. ولايهمه أن يكون الموعد مع خفير أو وزير .. فهو فنان يؤمن بالمساواة بين كل الناس .. الصغير والكبير .. والذى أعطاه موعدا والذى لم يعطه .. وهو دائم الاعتذار لكل الناس .. لأنه مؤمن إيمانا تاما بأنه على موعد مع كل الناس .. وأنه لم ولن يجىء فى موعده .. أو لن يجىء على الإطلاق .. لأنه نسى أو راحت عليه نومة .. وتستطيع أن تقوم بتجربة عندما ترى مصطفى حسين ، وهو أن تقف له ثم لاتمد يدك لمصافحته فيبادرك قائلا : أنا عارف إنك زعلان منى .. أنا آسف جدا .. والله أصل اللى حصل إيه ...

ويحكى قصة بايخة عن عدم الحضور فى الموعد المتفق عليه .. هذا الموعد هو الذى اختاره بمنتهى الدقة ، وهو الذى حرص بمنتهى الأمانة والصدق على عدم الحضور .. وأسهل من الحضور وعدم

الحضور أن يقدم لك الاعتذار . .

ولذلك فمصطفى حسين عنده خادم قد ملأ جيوبه بكروت مطبوع عليها كلمة : (مصطفى حسين ، يعتذر ويأسف ولن يعود إلى ذلك مرة أخرى) . .

ويقوم الخادم بتوزيعها على حفلات الأفراح والمآتم . . ويندهش الناس لهذا الأسلوب الغريب فى الاعتذار . .

وفى إحدى المرات أمسك الناس بهذا الخادم وضربوه . . فقد كانوا ينتظرون المأذون . . وكان المأذون بالصدفة البحتة اسمه مصطفى حسين !!

ولم ينقذ الخادم من الموت المؤكد إلا المهندس يحيى زيدان ، الذى أعطاهم العنوان الصحيح لبيت مصطفى حسين . فالمهندس يحيى زيدان دقيق جدا . . وطبعا كان يقصد أن يذهبوا إلى مصطفى حسين فى بيته ويضربوه ، حتى يصحو من النوم ويحضر الاجتماع الأسبوعى للرسامين والمحررين بمجلة «كاريكاتير» !

حكاية
صديق سعودى !

إذا حكمت عليك الظروف وذهبت إلى السعودية فى رمضان ، فإياك أن تكون قد ذهبت لعمل أو لحل مشكلة أو الالتقاء برجال الأعمال أو الوزراء أو الأمراء . . فالناس فى رمضان إما نائمون أو يصلون . . فهم ينامون بين مواعيد الصلوات . . وهذه عاداتهم وتقاليدهم . . وأنت عندما تذهب إلى السعودية فليس من شأنك أن تغير عادات الناس لكى تتفق مع تشريفك لبلادهم ، وإنما أحسن لك أن تذهب إلى مكة للصلاة ، أو تذهب إلى المدينة للصلاة والراحة بين الصلوات . . أما إذا ذهبت إلى جدة أو الرياض فقواعد الحياة تختلف تماما . .

ولكن نفرض أنك تريد أن تصلى وأن تتعبد وأن تقضى بعض الأمور . . يعنى زيارة وتجارة . . لا بأس . . لابد أن تعرف جدول حياة الناس . . طبعا مادام الناس قد تسحروا ونهضوا من السحور إلى صلاة الفجر فلابد أن يناموا بعد ذلك . . من الفجر حتى صلاة الظهر . . أما موظفو الدولة فيحرصون على الذهاب إلى مكاتبهم فى ساعة متأخرة قبل الظهر بساعة أو ساعتين ، وبعد الظهر يميلون إلى النوم بساعة أو ساعتين قبل المغرب . . وإذا جاء وقت الإفطار أكلوا بلحتين وصلوا . . وبعد ذلك يشربون الشاى ثم

يتناولون الإفطار ، وهى عادة أفضل من عاداتنا فى شهر رمضان . فنحن لا نكاد نسمع الأذان حتى نشرب البارد ، وبعد ذلك الساخن . . وبعد ذلك الشوربة ، ويجىء الأكل حسب الحروف الأبجدية . . الأرز واللحم . . أو المكرونة واللحم ، والسلطات ، والطرشى . . والخضار . . وبعد ذلك السمك . . ومباشرة تأكل الحلو : قطايف وكنافة . . وشاى وكعك . . ثم نفقد النطق تماما ، ونجلس متراصين أشبه بالنائمين أمام التليفزيون ، ولو كان فى استطاعتنا أن نحرك القنوات بأصابع أرجلنا لفعلنا . . وأؤكد لك أن أحدا منا لايفرق بين الفوازير وألف ليلة . . وبين (من الذى لايحب فاطمة) و(الحفار) . . ولا بين شيرين سيف النصر وجيهان نصر وفادية عبد الغنى ودلال عبد العزيز . . والسبب : من هذه الكمية الهائلة من الأطعمة التى حشرناها وكبسناها فى المعدة ، وهو ما لا يفعله السعوديون . .

ولكن أنا قابلت عددا من رجال الأعمال فى مكاتبهم فى الساعة العاشرة صباحا . . فى غاية الحيوية والنشاط . . رغم حرارة الجو فى جدة وبرودته فى الرياض . . وهم يعتمدون على ساعات من النوم قبل الإفطار وبعده . . وبعد الإفطار يحلو الكلام والنوم أيضا . . بعد الإفطار مباشرة . . وليس قبل النوم مباشرة . .

قررت أنا وبعض الأصدقاء أن نكون فى غاية الرذالة ، فذهبنا إلى صديق نعرف أنه يحب النوم . . ولم نكد ندق الباب ويسألنا الخادم : من نحن . . حتى ظهر صديقنا ، وبدلا من أن يقبلنا فإنه انحنى على أيدينا يقبلها .

وعرفنا السبب . . إنه يريدنا أن نعود من حيث جئنا ، لكنه

عندما رأى أن بيننا واحدا لايعرفه ، لم يجرؤ أن يطردنا . .

والرجل يصعب على الكافر . . يكاد يبكى . . يكاد يقع على الأرض . . ولم ينطق بكلمة ، ولكننا طلبنا من الخادم الشاى بالنعناع . . وبعد ذلك القهوة العربية . . وإن كان لديهم شىء من الحلوى . . وقلت : إننا أسرعنا إلى هنا قبل أن نكمل طعامنا لكى ندركه قبل أن ينام !

وجاء الخادم يهمس فى أذنى . . ونهضت . . فقد أعلن أن السيدة صاحبة البيت وزوجة صديقنا هذا تريدنى بسرعة ، وذهبت فوجدتها تتساقط على الأرض من الضحك ، وقالت : أنا عارفة كويس قوى إنك جئت لكى تمنعه من النوم وتحرجه . . وتضحك بعد ذلك . . أنا أبوس إيدك ، سيبوه ينام لأنه جاء من أمريكا أمس ، وأنت تعرف ماذا يفعله فارق التوقيت . . فى عرضك . . سيبوه . . لأنه سوف يقع على الأرض نائما . . حدث ذلك أكثر من مرة .

فقلت لها : حاضر . . بس معنا صديق جاء هو الآخر من أمريكا ، ويريد أن يشترى منه بضاعة قيمتها مليون ريال . .

- اسمع ، أنا عارفة أنك بتضحك . . وإنت عارف إن مليون ريال لاتساوى عنده ساعة من النوم . . فعنده ملايين كثيرة . .

وخرجنا وتركناه نائما على المقعد . . وحاولنا أن نوقظه فلم نستطع . . نائما نوما عميقا . . وضحكنا .

وسمعت دقا على باب غرفتى فى الفندق . . وأدهشنى ذلك . . ونظرت فى الساعة فكانت الثالثة صباحا . . ونظرت من العين

السحرية للباب ؛ فوجدت صديقي هذا جاء يوقظني . . انتقاما من مضايقته حتى لا ينام . . وعدت إلى الفراش ونمت . . ولا أعرف إن كان راح يدق الباب حتى الصباح . . لا أعرف . ولكن وجدت تحت الباب ورقة صغيرة بإمضائه يقول فيها : لما شعرت بالتعب والرغبة في النوم خشيت أن أقود سيارتي إلى البيت فاستأجرت الغرفة المجاورة لك . . ونمت . . أرجو إخطار زوجتي بذلك .

ووجدت رسالة صوتية في التليفون تقول : لما وجدت زوجي قد تعذر عليه أن يعود إلى البيت . وأنه استأجر الغرفة المجاورة لك . خفت عليه فاستأجرت الغرفة المجاورة له . . فلا تنزعج !

المشكلة أنني لا أعرف أين غرفته وأين غرفة زوجته . . فقد كان في نيتي أن أدق الباب حتى ينكسر على دماغه . وطار النوم . وحملت حقائبي وعدت إلى القاهرة وبدأت الرسائل الصوتية في تليفوني ، فقفزت واقفا عندما سمعت صوته يقول لي : أنا في غرفة رقم كذا في هيلتون القاهرة . . هذا للعلم وليس للإزعاج !

يوم ذبحنا بقرة

لأسباب صحية وجمالية ، تستخدم السيدات في البدو بول الناقة أثناء فترة الحمل للاستحمام وغسل البشرة والشعر أيضا . . ويؤكد العلماء أن البول يوجد به هرمونات تقوى البشرة والشعر . . لاشك في ذلك !

وكانت بلقيس ملكة سبأ تستحم في بول الحمارة أثناء الحمل لنفس السبب . . وكانت تضيف إلى هذا البول اللبن الساخن والبخور . . ثم ظهرت نساء في البادية يستخدمن لبن الناقة للاستحمام ؛ لأنه يؤدي إلى نعومة البشرة .

وكانت المفاجأة الكبرى عندما ظهرت الجروح والقروح على ركاب السفينة «رع - ٢» التي بنيت من ورق البردي بالقرب من أهرامات الجيزة . . بناها البحار والمكتشف النرويجي «ثورهايردال» ليثبت أن الفراعنة عبروا الأطلنطي ؛ وأنهم اكتشفوا أمريكا قبل كولمبوس . . كولمبوس سنة ١٤٩٢ ؛ وكان يقصد أن يكتشف الهند لا أمريكا .

خرجت السفينة «رع - ٢» من ميناء صافي بالمغرب . . ولم يمض سوى بضعة أيام لتعود السفينة إلى الشاطئ ، فلم تستطع أن تقاوم

ضغط الموج والريح . . ولكنها مضت مئات الكيلومترات .

وكانت السفينة مثل سفينة نوح ، بها الأبيض والأسود والأصفر . . المسلم والمسيحى واليهودى ، والأمريكى والروسى ولما شكا ركاب السفينة من أثر الملوحة والشمس على جلودهم العارية ، طلب إليهم الطبيب الروسى الوحيد أن يتبولوا جميعا بعضهم على بعض . . لأن هذا العلاج الوحيد . . وكان علاجا مؤكدا !

وبعض الجماعات ترى أن هذا البول مقدس ، إذا كان مصدره مقدسا . . فالهنود الذين يعبدون البقرة - وليس الثور - يرون أنها أم الشعب الهندى ومنقذته من الجوع ، ولذلك فهم يدينون لها بالولاء والامتنان والحياء ، ولذلك لايذبحونها ولايستحلون ذلك . ويصدرونها إلى البلاد الإسلامية والمسيحية ليأكلوها هناك بعيدا عنهم . . أما الثور فهو الحيوان الذى يجر العربات والمحراث ويطفح الدم . . ويسمحون بذبحه فى الهند . . والمرأة الهندية تتبرك ببول البقرة وبرازها . . وتستحم به إذا استطاعت ، وتضعه فى شعرها بدلا من زيت جوز الهند ، بركة وتقربا وصحة وعافية وجمالا !

وبعض الشيعة يتبركون بماء حمام الأغاخان . . فإذا استحم رجوه وباسوا الأرض تحت رجليه ألا يلقى بهذا الماء فى الصرف الصحى ؛ لأنهم سوف يضعونه فى زجاجات ويبعثونه إلى الأتباع فى كل مكان . . بركة وصحة . . وقطرة للعين . . وعلاجا للمغص . . ولايهم ما الذى فعله الأغاخان الأب الروحى فى هذا الماء . . فكل ما يجيء منه وما يخرج منه مقدس !

ثم إنهم قبل ذلك يضعونه فى الميزان ، ويضعوا فى الكفة الأخرى الذهب والماس . . ولذلك ليس من قبيل الصدفة أن يحرص الأغاخان على أن يأكل ويشرب وأن يكون له كرش . . لأن التخن له ثمن من ذهب كل سنة !

فإذا تصورت أن أحدا لمس البقرة المقدسة . . بلاش لمسها ، وإنما داسها بسيارته من غير قصد . سوف تنقلب الدنيا على دماغ من فعل ذلك ، هو وسفارته ودولته . .

أما إذا حدث ما حدث فى سفارة مصر فى نيودلهى - وأنا أحكى هذه الحكاية لأول مرة - فلم يجرؤ أى أحد دبلوماسى أو سياسى أن يحكى هذه القصة لفظاعتها وبشاعتها - فسوف تكون كارثة على الشعبين وقطيعة سنوات . .

فقد حدث من قبل هذه الأيام تماما من كذا سنة . . خرج بواب السفارة ولاحظ أن الشارع خال من المشاة . . وذهب إلى إحدى الأبقار وقدم لها أعشابا . . فنهضت البقرة وسارت وراءه وظلت تسير حتى دخلت باب السفارة ، وفى داخل السفارة ربطوها ، وأناموها على الأرض .

وتنبه البواب ورجال أمن السفارة إلى أن فى السفارة مواطنين هنودا رجالا ونساء . . وانتظروا حتى خرجوا وعادوا إلى بيوتهم . . وهجموا على البقرة وذبحوها . . تصورا . . وسلخوها . . ثم علقوها كالجزارين تماما . . وراحوا يقطعونها . . ويتضاحكون .

وتشاء الصدفة أن يسأل السفير : إن كانت قد جاءت برقيات شفرية فى موضوع هام ، وتساءل السفير أن أحدا لايرد على التليفون ، فقال له موظف الشفرة : عندهم عيد يا أفندم . . كل سنة وأنت طيب . .

- وأنت طيب . .

- عندهم كوارع ولحمة رأس وكبدة . . وهيصة جامدة قوى .

- اشتروها ؟!

أبدا . . ذبحوا بقرة من البقر الدايخ اللى ماشى فى الشوارع هنا . .

- بتقول إيه؟!! . . يا نهار أسود وزى الطين . . أنا جاى لك . .

ونزل السفير ببعض ملابسه . . واتجه إلى السفارة . . وأمر بدفن البقرة فى حديقة السفارة . . ومسح أى أثر لدمها على الأرض .

وصدر قرار من وزارة الخارجية المصرية بسحب كل الموظفين الذين اشتركوا فى هذه المذبحة التى كان من المؤكد أن تؤدى إلى أكبر أزمة دبلوماسية فى تاريخ الدبلوماسية المصرية الهندية ، أو حتى الدبلوماسية فى العالم . .

وافتعل السفير ضرورة أن يأخذ الهنود أجازة أسبوعا ؛ لأنه لابد من إجراء تعديلات على غرف السفارة ، ونقل العفش من هنا إلى هنا . . وغاب الهنود فى الوقت الذى أعاد السفير دفن البقرة وإلقاء المواد الكيماوية عليها حتى تتحلل . . ثم إعادة زرع الحديقة وتخطيطها وتبخيرها حتى تختفى رائحة اللحم والدم . . !

صاحبة القداسة : البقرة !

المثل الهندى يقول : هناك نوعان من الحيوانات : الحيوانات . . والذين يأكلون لحم البقر . . وهناك نوعان من البشر . . الذين لايأكلون لحم البقرة . . والذين لا يأكلون اللحم !

والحمد لله . . أنا من وجهة نظر الهنود إنسان لأننى لا آكل اللحم !

وقد عمت الفرحة كل بلاد الهند (ألف مليون نسمة) لأن البقر الإنجليزى أصيب بالجنون . . هو مجنون ، ومن يأكله يصبح مجنونا . . ورأى الهنود الذين يقدسون الأبقار أن هذه لعنة من السماء ، وأن الجنون عقوبة يستحقها الذين يأكلون لحم البقر . . وأن هذه فرصة للتوبة النهائية والامتناع عن أكل لحم البقر . . ألا يأكلوا اللحم بكل أنواعه ، حتى لو أدى ذلك إلى خراب بيوت الجزارين والمطاعم وأصحاب المزارع ومصانع الجلود فى بريطانيا وأوروبا .

وأنت لايمكن أن تتصور كيف أن البقرة حيوان مقدس فى الهند إلا إذا ذهبت هناك . . فسوف يلفت نظرك عشرات الأبقار الإناث تمشى فى دلع ودلال فى كل مكان . وفى استطاعتها أن تنام فى الطريق ولا يقترب منها أحد ، وإنما السيارات تدور حولها وتحاول أن تجعلها تنهض دون أن يلمسها أحد . . فقط أن ينادى عليها أو يتوسل إليها . . وقد تنهض أو لا تنهض . . فقد اعتادت من مئات

السنين إذا نامت ألا تقوم، وإذا قامت ألا يجعلها أحد تنام . . وب استطاعتها أن تدخل أى محل أو أى فندق . . ولايجرؤ أى إنسا أن يلمسها . . فقط أن يشير بيديه من بعيد . . وأن يحاول أن يمنعها باعتراض طريقها دون أن يلمسها . . فإذا لم تستطع ، وقررت البقر لأى سبب أن تنام فى أجمل مكان فى الفندق فلن يعترضها أحد . . بل إن بعض السفرجية سوف ينتهز هذه الفرصة ويصلى ويدعو لها بالعمر الطويل . . لقد منحته هذه البركة !!

وقد حدث أن جاء دبلوماسى أجنبى إلى بلاد الهند . . ولم يعرف بالضبط إلى أى حد هى مقدسة ، فصدمها بسيارته . . وانقلب الشارع . . يريدون أن يقتلوه . وحاول الهرب . ولحسن حظه أنه كان قريبا من سفارته ، وهجم الناس على السفارة ، فما كان من السفارة إلا أن اعتذرت رسميا ، وعاد الدبلوماسى إلى بلاده فى اليوم التالى . . فقد ارتكب معصية لايمكن اغتفارها !!

والهنود يشربون لبن البقرة . . أما الثور ـ الذكر ـ هو الذى يدور فى الساقية ويجر المحراث ثم يذبحونه فى النهاية ، وبعد موته لمن يريد أن يأكله . . أى أحد . فالثور يلقى كل أنواع العذاب والهوان والاحتقار .

أما الأبقار الصغيرة والكبيرة فهم يصدرونها إلى الدول الإسلامية والمسيحية . . يدفعونها إلى باكستان الإسلامية أو الفلبين المسيحية . . ولا يضايق الهنود إلا المسلمون الذين يذبحون الأبقار ، وأحيانا يجاهرون بذلك . . وكثيرا ما أدى ذلك إلى المعارك والمذابح بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين الذين يستبيحون مقدسات الشعب الهندى . .

وفى الهند من يقدسون كل الحيوانات من كل نوع ، ولا يذبحونها ولا يأكلونها . . وهناك من يقدس النمل . . ويضع له

الطعام فى أركان البيوت . . إنهم ضد القضاء على حياة أى كائن حى . . يستوى فى ذلك النمل والنحل والبقر .

هناك أنواع من السمك اسمها «البقر» . . حتى هذا السمك لا يأكلونه ؛ لأن اسمه البقر !!!!

أذكر أننى على سبيل الدعابة طلبت فى أحد المطاعم الهندية فى نيودلهى : أى لحم بقرى مسلوق أولا . . ثم مشوى بعد ذلك . . بعد تقطيعه على شكل سمك البقر !!

واضح من هذه العبارة أننى أداعب الجرسون الهندى . . وذهب الجرسون فى غاية الأدب . . ولم يعد . . ولم يجئ واحد ثان . . وحاولت أن ألفت نظر أى أحد . . ولكن أحدًا لايلتفت . . حاولت أن أقول : إننى أداعبه . . ولكن أحدًا ليس لديه أى استعداد . . ولا قدموا ماء . . وكانوا يمرون إلى جوارى كأننى شبح . . فلم أجد مفرا من الخروج من المطعم . . وخرجت . .

وحكيت هذه القصة للسفير المصرى . . فمد يده إلى ورقة على مكتبه ، وقدمها لى ، فوجدت فيها احتجاجا من إدارة المطعم على هذه الإهانة البالغة . . ولابد من اعتذار .

ونظرت إلى وجه السفير فلم أجد إلا تفسيرا واحدا : أن أعتذر شخصيا ، أو أترك البلد فورا !!

واعتذرت . . وخرجت من المطعم فى ضيق شديد . . ولم يكن فى نيتى أن أصطدم ببقرة عابرة ، فوجدت السائق قد انحنى . . فانحنيت أنا أيضا قائلا : آسف يا ست !!

من غير لحم .. ولا بقر

هناك حقيقة علمية بسيطة جدا : وهى أن الناس جبناء أكثر مما نتصور .. إذا تعلق الأمر بصحتهم وفلوسهم ومراكزهم .

وقد اعتمدت أنا على هذه الحقيقة كثيرا جدا .. وجربتها ونجحت التجربة !

أذكر أننى كنت فى «تنزانيا» ، وجاء واحد صاحبى يزورنى ، وكان يدخن سيجارا له رائحة كريهة ، وأنا مكسوف أن أقول له : اطلع برد ..

وفجأة رأيت ذبابة كبيرة فى الغرفة . فأقفلت النافذة بسرعة وقلت له : اننى قرأت خبرا غريبا فى الصحف المصرية : إن ذبابة «تسى تسى» التى إذا لسعت واحدا ظل نائما حتى يموت .. هذه الذبابة ظهرت فجأة فى القاهرة .

ثم رحت أبحث عن الصحيفة المصرية المزعومة عندما رأيت هذه الذبابة العادية فى الغرفة . فما كان من صديقى الطويل العريض إلا أن هرب من الغرفة دون أن يفكر فى صحة هذا الخبر .

وأقفلت وراءه الباب ، وفتحت النافذة لكى أنام ، فقد انتصف الليل !

ومرة ثانية كنا فى «الكونغو» فى مرافقة قوات الطوارئ المصرية بقيادة الفريق الشاذلى . وقد ذهبنا لمساندة الرئيس السكران على طول «لومومبا» .. وكان البلجيكيون قد غادروا البلاد وتركوها لأهلها .. ولم نجد إلا غرفة واحدة ملحقة بإحدى الكنائس .. وفى الغرفة سرير واحد .. ومفاتيح النور لانعرف أين هى ، يعنى لابد أن ننام والأضواء مفتوحة على الآخر .. والذباب والناموس والصراصير فى كل مكان ..

وبسرعة قفز اثنان من الصحفيين المصريين وناما على السرير ..

ولم أجد إلا مكانا على الأرض . ففرشت الأرض بالصحف ، وكان صوت الصراصير على الورق كصوت الدبابات فوق الكبارى . ولم أعرف رغم التعب أن أنام . فناديت أحد الزميلين النائمين على السرير وسألته : هل اللحم الذى أكلناه بالأمس كان لحم قرد ؟

واندهشا . ولكنهما استمرا فى النوم ، فذهبت إليهما أوقظهما وأقول لهما : إننى أشعر بشىء غريب ..

ورحت أهرش وأقفز على الأرض كالقرد تماما .. فلما رأيانى كالقرد ، أو سوف أكون قردا .. هربا من الغرفة وهما يقولان : يا نهار أسود أنت بقيت قرد ؟

وأغلقت الباب ، وخلعت الجزمة وحطمت لمبات النور . ونمت !

ومنذ أيام كنت فى السعودية . وكنا أربعة نتناول غداءنا معا . أما أنا فنباتى لا آكل اللحوم .. وأما الثانى فهو من الهنود الذين يقدسون البقر ولا يأكلون اللحوم أيضا . وأما الثالث فهو لا يأكل إلا لحم الطيور .. وأما الرابع فهو الذى ضايقنى جدا .. إنه لا يكف

عن الكلام . . وفى نفس الوقت يدخن سيجارا لاينطفىء أبدا . . ثم لايدع فرصة لأحد أن يفتح فمه ، وكل حكاياته عن زوجته ، وكيف خانته وكيف طلقها . وأن كل الزوجات خائنات . . وطلب من كل الموجودين أن يراقبوا سلوك زوجاتهم ، وتضايقنا .

وكان لاينقذنا منه إلا أن التليفون يرن ويذهب ليرد ويقول : ياسيدى أنا اسمى «جون فورد» . . وليس «فوكس» . .

ثم يعود إلى التليفون . . ويصرخ : مش أنا . .

وإذا عاد وجد الجرسون قد سحب مقعده وأعطاه لواحد آخر . . وينهال شتيمة للجرسون . . ليعود إلى التليفون ويقول : أنا لابد أن أتحدث إلى المدير . . هذه هى المرة السابعة . . أنت بتطلبنى وأنا أؤكد لك أن المطلوب ليس أنا . .

ثم يعود ليجد المقعد قد أخذه أحد الموجودين بالمطعم . .

ويسأله إيه الحكاية ؟

– هذه هى المرة العاشرة . .

التليفون يطلبنى ويسألنى : إن كنت أنا «جون فوكس» . . فأقول له : لا . . ثم إن زوجتى ماتت فى ستين داهية . . ويؤكد لى أنها فى انتظارى فى الاستعلامات . . وذهبت إلى الاستعلامات ووجدت سيدة زنجية . . واعتذرت لها واعتذرت أيضا . . حتى اسمها لم يكن من أسرة «فوكس» . . فأنا لا أفهم كيف أتوا بهذا الموظف الذى لايعرف الإنجليزية . .

وتساءل الضيوف : إيه الحكاية؟ !

ووجدت الفرصة المناسبة لكى أنفرد بالجلوس فى هدوء . فقلت : إنه عائد لتوه من بريطانيا . . والذى ترونه هو نوع من جنون البقر . .

ـ يعنى إيه ؟

ـ يعنى أنه لا يأكل إلا لحم البقر ، وهو يتخيل أن أحدا قد طلبه . . ويتخيل أن أحدا يطارده ويخطف منه مقعده والطعام . . وهذه أخطر مراحل المرض ؛ لأنه من الممكن أن يعض أى أحد . .

فنهضوا جميعا وتركونى وحدى . .

والحقيقة بسيطة جدا : إننى طلبت من عامل التليفون المصرى أن يطلبه من حين إلى حين بأى اسم . . واتفقت مع الجرسون المصرى أن يسحب مقعده كلما ذهب إلى التليفون . .

وضاق السيد «جون فورد» وقرر أن يذهب إلى أى فندق آخر . .

واكتشفت أن الحياة بعد «جون فورد» هادئة ، فليس فيها لحم ولا بقر !

تحذير لعموم المصريين

سوف أنقل لك بعض العبارات وعليك أنت أن تخمن فى أى عصر جاءت هذه الكلمات التى تقول : إن الناس فقدوا الثقة فى الأمن . . الفلاح لايذهب إلى الأرض . . لايزرع ولايقلع . . وهناك لصوص وقطاع طرق . . والذين كانوا فقراء أصبحوا أغنياء ، والأغنياء صاروا فقراء وانتشرت الأمراض . والناس فى عزلة بعضهم عن بعض ، إذا مات أحد ، فلن يذهب للفقراء أحد . . وإذا تزوج أحد ، فلن يذهب للتهنئة أحد . فجأة أحس الناس أنهم يعيشون بعضهم عن بعض ، ولم يجدوا سببا قويا للجلوس معا . . وحتى الموتى يلقونهم فى النيل لتأكلهم الأسماك ، بل إن التماسيح تطفو ميتة على الماء لابسبب مرض أجسامها ولكن بسبب التخمة . . فالموتى كثيرون والمقبرة هى النيل نفسه . . واللص صاحب ثروة ، والأغنياء يتسولون . وأصبحت عقود الذهب والفيروز فى أعناق الخادمات ، والسيدات عاريات الصدر والكتفين . . أما المهندسون الذين كانوا يعملون فى بناء السفن ، فهم عمال فى الشوارع والمقابر . . والشعب لايؤدى الضرائب . . وخزينة الدولة خالية ، والحزن عام . . والغم عام . . والكثير من الناس يقول : ياليتنى مت قبل هذا . .

ثم اقرأ هذه العبارة التى لايكتبها إلا ساخر كبير مثل برناردشو : إن المرأة الفقيرة التى لم تر وجهها إلا على سطح الماء ، أصبحت عندها مرآة فخمة ، وأما المرأة التى كانت عندها مرآة فهى تخشى أن تنظر لوجهها فى الماء . .

والأطفال يقولون : جابونا لماذا؟ ما كان يجب أن نولد . . إنها غلطة آبائنا وأمهاتنا . .

وأصبح الشك فى كل شىء . . فى الدين وفى الخلق . . وفى الله . . وفى الخير وفى الأمل من إصلاح الناس . .

والذين كانوا يتفرجون على الآلات الموسيقية لا يطيقون رؤيتها أو الاستماع إليها . . أما الذين لم يكونوا يملكون أو يعرفون العزف أو يتذوقون الموسيقى . . فهم الذين يرقصون ويغنون بلا موهبة . . إنهم يملكون . . إنهم أغنياء . وماداموا كذلك ، فمن حقهم أن يفعلوا أى شىء وكل شىء !

لن نعرف من الذى قال ذلك . . أين قاله ولماذا ؟

قال ذلك رجل حكيم عاش فى مصر فى عهد الملك بيبى الثانى ، أى من حوالى ٤٥ قرنا . . فهذا الملك حكم مصر وهو فى السادسة من عمره ، وظل كاتما على أنفاسها ٩٤ عاما . وهذه السنوات كانت كافية لانهيار مصر مائتى سنة بعد ذلك . . فقد أفلت العيار من الأيدى . . وتفككت مصر . . واستولى عليها اللصوص وقطاع الطرق . . ولما صارت مصر ضعيفة هجمت عليها القبائل من ليبيا . . لقد ضعفت مصر فهانت على نفسها وعلى الناس . .

وفى هذا الانهيار والانحلال وحكم اللصوص وقطاع الطرق، وعصابات اللصوص وعصابات الأغنياء للفتك بكل ما فى أيدى الفقراء .. لم يبق إلا أن يتفق الناس وأن يدركوا هذا الذى فى أيديهم والذى راح والذى ضاع ..

جاء ذلك فى كتاب فرعونى اسمه (إنذار نبى) .. ولم نعرف من هو هذا الحكيم الذى شخص أمراض مصر، وكتب لها الدواء ..

وقد أجمع المؤرخون على أن هذه الكارثة التى أصابت الأسرة السادسة القديمة كتلك التى أصابت روسيا القيصرية .. كان لابد من الثورة عليها .. وثورة المصريين هى أول ثورة فى التاريخ على الظلم والقهر والفساد وضعف الملك (العيل) الجالس على العرش .. لقد عاش عيلا ومات عيلا .. ولكن بعد أن أمات مصر إلا قليلا .. وهذا القليل هو الذى استرد لها الكثير الذى نهبه اللصوص والأجانب .

والمعنى : أن الشعوب لا تموت .. الملوك يموتون والحكومات والمافيات .. ورجال الدين .. ولكن الشعب لا يموت .. وإنما هو يتوارث الفقر والغضب ويتوارث الفساد والسخط، ويتوارث الاستسلام والرفض .. مائة سنة .. مائتا سنة .. ثم تنفجر ينابيع الغضب على كل ما كان .. ويسترد الشعب حقوقه وإرادته وقدرته على أن يقول لأى شىء : كن .. فيكون .

وأمامنا تاريخ البشرية : انهيار ونهوض .. استسلام وتمرد .. أمراض وعافية .. كهنة وأطباء .. مفسدون ومصلحون .. توظيف للأموال وترشيد للأموال ..

وإذا كانت الشعوب فى حالة بأسها، كلما تقدم منها طبيب وطلب إليها أن تفتح فمها وتخرج لسانها، فإنها تخرج لسانها على طول .. احتقارا للطب واستخفافا بالأطباء . هذا ممكن .. سنة .. عشرون .. مائة .. مائتان .

ولكن سوف يجىء دور الطبيب ليخرج هو لسانه لهذه الملايين المريضة .. المتواكلة .. البليدة .. فقد جاء موعد الدواء، وجاء أوان الشفاء .. عشرون .. مائة .. مائتان من السنين .. هذه حال الدنيا .. فالفلك دوار .. يدور بالمرض وبالصحة، وباللصوص وبالشرفاء .. فلا خوف على الشعوب .. فكما أن المرض والصحة على رقاب الأفراد، فهو على رقاب الملايين أيضا .. يموت الأفراد من المرض أو بلا مرض .. ولكن الشعوب لا تموت .. إنها تتوالد .. تتوارث .. تستسلم ثم تقاوم .. وتقوم وتنهض وتستدرك ما فاتها .. فلا يأس ولكن صبر جميل ..

من أيـــن يـأتى بهذا الكلام ؟!

فى مصر نكتة تقول : واحد صعيدى نزل من القطار وراح يصرخ : عاوز واحد يهودى أقتله . . فقيل له : ليه؟ فأجاب : لأن اليهود هم اللى أذوا المسيح . . فقيل له : ولكن دى حكاية قديمة جداً . . فأجاب : ولكن لم أسمع بها إلا إمبارح !

حدث لى ذلك فقد سمعت بالصدفة مطربة اسمها بدرية ويدلعونها ويقولون : بدارى . . وأعجبنى صوتها الشعبى الجميل ، وطول نفسها وحسن أدائها . واندهشت جدا كيف أن الإذاعة لاتردد أغانيها ليلاً ونهاراً ؟

وفوجئت بالموسيقار محمد عبد الوهاب يقول لى : تعرف بدرية دى عندها كام سنة الآن ؟ فقلت : لا . . فأجاب : خمسون عاما وهى التى غنت فى أفراح نصف سكان الإسكندرية !

واعتذرت للقراء وحكيت النكتة السابقة . . وقلت : ولكن لم أسمع عنها إلا أمس .

واتصلت بى بدرية السيد وشكرتنى . وقلت لها : ولكن أنا تأخرت فى سماعك ، وأطالب بأن أسمع أغانيك أكثر فى القاهرة !

مرة أخرى كتبت هنا عن شاعر مجهول . وأعجبنى كلامه وشاعريته وتراكيبه البلاغية والجمالية الجديدة . وتساءلت : يا ابن

الإيه . . من أين يأتى بهذا الكلام . . وكيف أنه لايرقى مكانا رفيعا فى بلاده؟! وفى السعودية شعراء شبان جدد لهم كلام بديع . ثم نشرت فى هذا المكان القصيدة الوحيدة التى قرأتها له . ودعوت القراء إلى تأمل هذا الكلام الجديد فى اللغة العربية الحديثة . والشاعر المجهول اسمه : عبد الرحمن بن مساعد !

وبعد شهور من هذا الاكتشاف : فوجئت بمن يحدثنى فى التليفون فى القاهرة . ويقول : إن الشاعر نفسه يريد أن يتحدث إليك . . وتحدث الشاعر ولكنه كان مستعجلا يريد أن يشكرنى . وفسرت هذا الاستعجال بأنه نوع من الخجل ، فهو يريد أن يفرغ من هذه المهمة الأخلاقية بأن يشكر من كتب عنه ، وأعجب به ولايعرفه معرفة تامة ، ولكنى أريد أن أعرف منه وعنه أكثر . . وقال : إن شاء الله نلتقى .

وفى أوائل حياتى الصحفية ، فوجئت بمجموعة قصص صدرت بعنوان «أرخص ليالى» والعنوان كما ترى به خطأ نحوى . فيجب أن يكون «أرخص ليال» والمؤلف اسمه يوسف إدريس ولا أعرفه ، وأعجبتنى هذه القصص . أدهشتنى بهرتنى . والذى بهرنى أن بعض القصص تجيء فى نصف صفحة أو صفحة ونصف الصفحة ، ولكنها قصة جميلة . مركزة . مكثفة . كاملة الشروط كأنها قطعة الماس !

وقلت هذا الكلام وأكثر ، وأحسست أننى أزف إلى القراء موهبة صاعدة لأديب مجهول . وكان مجهولا لى .

وكلمنى يوسف إدريس فى التليفون وشكرنى ، وقال : لابد أن نلتقى . وأنا أعرف أنك تقف أمام محل «البن البرازيلى» ، فى شارع سليمان باشا .

وحتى أعرفه ، قال : إنه سوف يمسك منديلاً أزرق ، ويقف أمام المحل ويلوح لكل سيارة فورد صغيرة سوداء ، وفعلا وجدت شابا أبيض فى أحمر . . ومعه منديل أزرق يلوح به ، وتوقفت ونزلت وتعانقنا لنصبح أصدقاء بعد ذلك . . وظل يوسف إدريس من أحسن الذين كتبوا القصة القصيرة فى الأدب العربى الحديث .

وفى يوم اخترت أحسن عشر قصص ، ظهرت فى سنة ١٩٥٢ ، ولم أشأ أن أختار قصة ليوسف السباعى ، فما كان من يوسف السباعى إلا أن هاجمنى وشتمنى . . ورددت عليه رداً أعنف : وعاد فشتمنى وعدت أشتمه هو والذين جعلوه يقرأ ويكتب وينشر ولايزال على قيد الحياة رغم سخافة ما يقول : وفى الحقيقة لم يكن سخيفاً ما قال : ولكنه الغضب !

وكلمنى يوسف السباعى : وقال : أظن أنت بايخ ، وأنا أبوخ منك . . هاها . . هاها . .

وكان يوسف السباعى ظريفا لطيفا . . وابن نكتة ، ثم قال لى : مش كفاية بقى . . مش فاضل غير إنك تشتم أبويا ، وأنا أشتم اللى خلفوك . . هاها . . هاها . . ولابد أن نلتقى ، وأن أضربك فى بطنك . . فإذا فعلت ذلك ، فأنا يوسف السباعى . . هاها . . هاها . .

ولم أفكر كيف يتم هذا اللقاء . . ولاشغلت بالى بذلك . . إنها مهمة يوسف السباعى وهو الذى يختار الوقت والمكان المناسبين ليضربنى فى بطنى .

وأمام فيلا أم كلثوم وقفت أتحدث مع البواب قبل أن أدخل . . عندما فوجئت بواحد يرتطم بى ، ويقول لى : أنت أعمى .

وبعد أن ضربنى فى بطنى تلاشينا فى مصافحة وعناق إنه يوسف السباعى هاها . . هاها !

ارحمنى ..
لا أريد أن أسمعك !

نظرت إلى السقف سعيدا . . وإلى ما وراء السقف أشكر الله على الليلة الهادئة الناعمة التى أمضيتها . . عندما دق الباب . . وكانت الدقات هادئة وارتفعت وتلاحقت واستعجلت أن أقفز من السرير لأسأل عن السبب . وقال الرجل : أنت مطلوب فى البوليس!

فقد شكتنى جارتى فى الفندق أننى فى الساعة الحادية عشرة مساء فتحت الحنفية وبعدها السيفون مما أزعجها . يعنى هذه الأصوات ممنوعة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . واعتذرت !

وسمعت من أحد أقاربى أنه كان يعيش فى مدينة زيورخ بسويسرا وقد استأذن من البوليس فى أن يسهر هو وأصدقاؤه حتى الحادية عشرة مساء ، لأن لديه مناسبة عائلية سعيدة .

وفى نهاية السهرة خرج الأصدقاء شاكرين . وفى الصباح استدعاه البوليس لأن أحد جيرانه قد شكا منه لأنه ظل يسمع الموسيقى حتى منتصف الليل . هذا الجار كان أحد المدعوين !

أما الآن فالضوضاء فى كل مكان وفى كل بيت . وليس فى إمكان أى إنسان أن يمنع الجار عن الجار . . وفى الأفراح يشكو كبار السن من الطبل والزمر الذى يخرم الأذن ويحطم الأعصاب .

ومهما حاول الضيوف أن يشيروا إلى الفرق الموسيقية أن تهدئ اللعب ، فإن العريس والعروس وأصدقاءهما يرفضون ذلك !

لقد أدمنوا الضوضاء . . وإدمان الضوضاء أقسى من إدمان المخدرات التى يتم تعاطيها بلا ضوضاء . . ولا شىء يدل على رقى الإنسان إلا حبه للهدوء .

وسجل الأطباء أمراضا كثيرة سببها الضوضاء : تسوس الأسنان وارتفاع الضغط وزيادة الكوليسترول . . ثم سرطان الجلد !

وقد جاء إلى القاهرة من أربعين عاما الطبيب العالمى د . روزن للأنف والأذن والحنجرة . . وقد عرف سبب الصحة والعافية وسلامة الإنسان والقلب ونعومة البشرة عند سكان أواسط أفريقيا . وكان السبب الوحيد هو الهدوء .

وكما اعتادوا على الهدوء اعتدنا نحن على الضوضاء لدرجة أنه لو اختفت فجأة لأوجعتنا آذاننا . وأذكر أننى ذهبت إلى إحدى غرف انعدام الصوت فى قاعدة إطلاق سفن الفضاء الأمريكية فكدت أقع على الأرض . . كأننى كنت أتوكأ على «ترابزين» من الضوضاء أو كأن السقف قد سقط من تحتى فجأة . . أو كأننى كنت أسبح ، وابتعلت الأرض ماء النهر . . فارتطمت بالقاع !

ومن أروع ما قاله الشاعر كامل الشناوى أنه ذهب إلى أحد المقاهى فلم يكد الناس يرونه حتى سكتوا مرة واحدة فأحس أن العمارة كلها سوف تقع !

وفى القانون المصرى كل المواد التى تمنع الضوضاء . . ضوضاء الجيران والميكروفونات والورش وأجهزة التنبيه . . والمشكلة دائما

هى : من الذى ينفذ القانون؟! ومن الذى إذا قال سمعه أحد - إن أحدا لن يسمعه بسبب ضوضاء الذين يحاولون تطبيق القانون والذين يحطمونه بالشواكيش والميكروفونات !

ونحن نندهش جدا جدا عندما نذهب إلى السودان - مثلا - ونجد صعوبة فى سماع ما يقولون لأنهم يتكلمون بمنتهى الهدوء والصوت المنخفض . . فليسوا فى حاجة إلى أن يرفعوا أصواتهم مثلنا . . لأنه لا توجد عندهم ضوضاء . . ونحن نسمى ذلك «بلادة» . . والحقيقة أنها ليست كذلك . . إنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يصرخوا مثلنا لكى نسمع بعضنا البعض . . وأكثر من ذلك أن البيوت الحديثة جدرانها رقيقة . . فلم تعد هناك «خصوصية» فأنت مسموع عند جارك ، وجارك مسموع عندك أيضا . . ولاتوجد فواصل تمنع ضوضاءه الموسيقية وخناقاته الزوجية .

إننا عاجزون عن مقاومة أسوأ أنواع التلوث : الضوضاء !

أيها العرب : محلك سر !

بداية النهضة فى الشرق الأوسط فى مصر ، مع بداية النهضة فى الشرق الأقصى فى اليابان ، فى وقت واحد .

كان رفاعة الطهطاوى فى باريس فرأى «عربة الرش» فى ميدان الكونكورد ترش الميدان فى ساعتين بينما نحن فى مصر نرش الميدان من الصباح إلى المساء مستخدمين الجرادل ! وعندما رأى اليابانيون فى ميناء «طوكيو» سفينة حربية أمريكية عليها مدافع ورجال يرتدون زيا أبيض موحدا .

وكان ذلك فى منتصف القرن الماضى .

وتعلمت اليابان وأقفلت على نفسها الأبواب والنوافذ تعلم نفسها وتطور أدواتها دون ملل ، حتى طلعت على العالم فى أوائل هذا القرن بكل شىء جديد فى أدوات الحياة والموت والعلاج والتعليم .

وظلت اليابان من يومها تتقدم وتتطور وتهدد وتتفوق على كل الدول التى تعلمت فى مدارسها . . حتى عندما ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية ثم احتلوها ، ظلت تتقدم وتتقدم وتشترى المصانع والشركات الأمريكية .

أما ألمانيا فكانت متطورة ومتقدمة على كل شعوب الدنيا من مئات السنين . . وهدمها الحلفاء ومسحوها وأسكنوا أهلها الكهوف . . ثم أصبحت ألمانيا عملاقا جبارا أقوى من كل الدول التى احتلتها وهدمتها . . وصارت اليوم أكبر دولة أوروبية . . وأصبحت اللغة الألمانية هى الأولى فى أوروبا فعدد الناطقين بها يقترب من المائة مليون .

ولكن - ولابد من هذه الكلمة - فالأمريكان أحسوا أنهم تخلفوا عن اليابان . . وألمانيا أحست أنها تخلفت عن أمريكا . . واليابان لاتنطق ولاتقول شيئا وإنما تتطور وتصعد إلى الكواكب - وتحتل الأسواق ويشعر الأمريكان بوجع فى البطن والألمان بمغص لأن اليابان ماضية فى التفوق على الجميع .

وفى تقرير «٧٠ صفحة» للسيد وزير البحث العلمى فى ألمانيا يقول : إن بلادنا تخلفت فى مجالات التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا المعلومات . . وإننا يجب أن نستدرك ما فات !

هذه هى ألمانيا «المرسيدس» و«سميس» و«باير» و«بتهوفن» .

واكتشف الألمان أنهم متفوقون ويتقدمون فى التكنولوجيا الصناعية - أى صناعة الأجهزة المتطورة جدا . وأن ألمانيا رقم «١» فى العالم . . ولكن فى التكنولوجيا الخاصة بالطب والوراثة وصناعة الأدوية وصناعة أدوات المعلومات ، هم ليسوا رقم «١» ولا حتى رقم «٢» . . إنهم يجيئون بعد أمريكا واليابان . . فما هى الغلطة ؟

الغلطة : أن المؤسسات الصناعية والعلمية فى ألمانيا اختصرت فى الأموال التى رصدتها للأبحاث العلمية . . ولم تختصر فى الأيدى العاملة .

والغلطة الثانية : أن علماء ألمانيا لأنهم أساتذة فى الجامعات فقد أغرقتهم الأبحاث النظرية عن التفكير فى تطبيقها عمليا أو تجاريا .

أما العلاج فهو سهل جدا : أن تضاعف المؤسسات الكبرى ميزانية البحث العلمى وأن تلفت نظر العلماء إلى الجانب العملى من أبحاثهم العلمية البحتة .

وأهم من ذلك كله أن العلماء الألمان قرروا أن ألمانيا سوف تقف على المستوى الرفيع فى مدى خمس سنوات وأنها سوف تستعيد مكانها فى الصف الأول وفى المقدمة !

فأين نحن كل العرب من كل ذلك ؟

الجواب : محلك سر ؟

الآن هناك !

بعد أن اكتشف العلماء أن هناك ثلاثة كواكب مثل الأرض تدور حول نجوم مثل الشمس وأنها تبعد ٤٠ سنة ضوئية (السنة الضوئية عبارة عن واحد وأمامه ١٣ صفراً من الكيلومترات) . . يعنى لو كان عندنا أسانسير بين هذه الكواكب وكان هذا الأسانسير ينطلق بسرعة الضوء التى هى ٣٥٠ ألف كيلو فى الثانية ، فسوف يصلها بعد أربعين سنة . . يعنى لو كان هناك خط تليفونى بيننا وبين هذه الكواكب وقلنا : ألو . . فسوف نتلقى : ألو أخرى فى نهاية القرن الواحد والعشرين !

والآن نحن جادون فى البحث عن سكان لهذه الكواكب . . هل هى حشرات جبارة ؟ . . هل هى ديناصورات ؟

هل هى كانت مثلنا أو أعقل أو أحط ؟ . . نحن الآن أقرب إلى تصديق كل ذلك .

نحن كالذى يبحث عن قطة سوداء فى غرفة مظلمة . . نسمعها ولا نراها . نحن كالذى يبحث عن إبرة فى جبل من الرمال الناعمة . . نحن كالذى يبحث عن زلطة ملونة على شاطىء المحيط . . فكلما رأينا شيئا عجيباً يلمع فى السماء بعيداً عنا ، ظننا أن أحد هناك يشعل سيجارة .

فنحن نعيش عند الطرف الجنوبى لمجموعة من النجوم كأنها بقعة من اللبن فى السماء . . هذه البقعة اسمها (الطريق اللبنى) بها ألف مليون نجمة مثل الشمس . وحول كل نجمة ألوف ملايين الملايين من الكواكب مثل الأرض . . وفى الكون ألف مليون مليون مثل هذا الطريق اللبنى . . احسبها أنت : كم عدد الكواكب التى مثل الأرض فى هذا الكون !

وليس من المعقول أن يكون الإنسان هو الكائن العاقل الوحيد . . وإذا قلنا نحن ذلك ، لكان شأننا مثل الفئران التى تقول : إنها الكائنات الوحيدة فى الكون !

إن أعظم حادث فلكى فى هذا القرن هو اكتشاف اثنين من علماء الفلك السويسريين أن هناك كوكباً مثل الأرض يبعد عنا أربعين سنة ضوئية . . واكتشاف اثنين من العلماء الأمريكان لكوكبين آخرين أكبر من الأرض !

أما لماذا لاتكون هذه الكائنات مثل الإنسان ؟ الجواب على ذلك أن فى الكون خلايا عضوية . . خلايا بها حياة . . هذه الخلايا تتعرض لتفاعلات كيماوية وفيضانات إشعاعية ولملايين السنين . . وهذه تؤدى إلى تغير فى مكونات الخلايا ، كما يفعل الإنسان فى الهندسة الوراثية . . وتكون النتيجة أن تظهر كائنات لها أشكال وأحجام لاندرى عنها أى شىء . . ولكن بالعقل والعلم نحن على يقين من وجودها هناك . . المشكلة هى كيفية الوصول إليها . . أو نبلغها أننا هنا . . ونحن سعداء بأننا الآن فى الطريق الصحيح إلى ذلك . . ولايهمنا كثيراً أن يكون هذا التعرف بجيراننا خطرا علينا ، إننا نريد أن نعرف . . ولانريد أن نكون وحدنا فى هذا الكون .

لعقله
وليس لكرشه !

لابد أنك تعرف اثنين أو ثلاثة يحبون الأطعمة الدسمة ولايهمهم كلام الدكاترة ، وأكثرهم يذهب إلى المستشفيات بسبب وجع القلب واحتراق المعدة وزيادة الوزن . . إلا واحداً شهيراً هو المستشار الألمانى هلموت كول ، إنه كما ترى طويل عريض ثقيل الوزن . ولكنه لايريد أن ينقص وزنه لأى سبب وخصوصا إذا كان السبب هو أن يكف عن أكل اللحوم والزبدة والكبدة والحلويات .

وفى العام الماضى ذهب المستشار الألمانى إلى إحدى المصحات فى النمسا . وقالوا له : لابد أن تنقص وزنك ثلاثين كيلو جراماً وإلا . .

وإلا تصلبت شرايينه وتحجر شريانه التاجى ووقف عقله عن التفكير . فأطاع الأطباء شهراً يأكل المسلوق ويمشى ويشرب الشاى الأخضر بلا سكر ثم عاد إلى الأطباق المليئة باللحم والدسم . ويندهش كول من نصائح الشعب الألمانى له ويقول : شىء غريب حقاً . . إننى لا أتدخل فى خصوصيات المواطنين . . ثم إنهم اختارونى لعقلى وليس لكرشى . . وأنا سعيد هكذا . فلماذا تضايقهم سعادتى !

وفى يوم دعا السيدة مرجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا إلى عشاء فى بيته . وقال لها : إن هذا الطعام صنع يدى وحياة عينى

فقالت : إنه رائع !

ولكن فى مذكراتها وصفت هذه الوليمة بأنها تحتاج إلى معدة خنزير !

ولايشاركه هذه الشهية المفتوحة إلا الرئيس الأمريكى كلينتون فعندما يستضيفه كلينتون يذهب به إلى مطعم «فيلو مينا» الشهير فى واشنطون . وفى هذا المطعم يقدمون كميات كبيرة من الطعام . وكلاهما سعيد بهذه الكميات الكبيرة . كول لأن هذه هى عادته ، أما كلينتون فلأنه لايجد هذه الحرية فى البيت الأبيض ، فزوجته تمنعه من ذلك .

وفى العام الماضى أصدر المستشار كول مع زوجته كتاباً عن (رحلة غذائية فى بطن ألمانيا) أو على الأصح : فى بطن كول. والأفضل أن يكون عنوان الكتاب (كول الأكول) .

ويبدأ كول وزوجته هانالوره كل فصل فى الكتاب بحكاية من الحكايات التى وقعت لهما بسبب هذا الطعام أو الإسراف فيه. وقد ظهر المستشار الأكول فى التليفزيون وهو يأكل بشهية مفتوحة جداً . . وقال : إن هذا إعلان عن الكتاب . وبعد أن فرغ من الطعام مد يده إلى جيوبه وأخرج بعض الشيكولاتة وراح يأكلها على الشاشة !

ولكن لماذا هذه الفضيحة له ؟ ولماذا يضايق الشعب الألمانى الذى يرى أن مستشاره هو أسوأ إعلان عن الأطعمة الألمانية ؟

السبب أن هذا الكتاب قد ألفه مع زوجته لصالح إحدى الجمعيات الخيرية . . فهو يريده أن ينتشر !

وقد طلب منه الناشر الألمانى أن يكتب مقدمة فيها نوادره وحكاياته مع رؤساء العالم من أجل ترجمته إلى اللغات الأخرى .

ويقول كول : عندى حكاية مع كل رئيس دولة . هذه الحكاية هى وحدها كافية لانتشاره فى كل بلاد العالم .

وقد طلب المستشار كول من الناشر أن يستحضر له طعاماً من كل دولة لكى يلتقط له صورة وهو يبتلع طعام هذه الدول وأن يكون ذلك فى التليفزيون .

أما الصورة التى هو حريص عليها جداً فهى عندما أكل أصابعه مع الأرز فى اليابان والصين . لأنه لم يستطع أن يستخدم العصا الصغيرة . . وعندما شرب الملوخية فى مصر !

الحمد لله الذى هدانا !

سألت : كيف الحال اليوم ؟

قالوا : الحمد لله . ربنا يزيد عدد المسلمين وبدلا من أن يكونوا مليارا واحدا يصبحون مليارين . . إنه على كل شىء قدير .

وعدت أسأل أوضح : هل هناك زحام حول الكعبة . . واختلفت الآراء . فواحد قال : إن الناس كانوا حول الكعبة غير قادرين على الحركة تماما كأننا فى الحج . وقال واحد : بل العمرة ليلة القدر كانت أكثر من الحج .

يعنى زحام فى أى وقت . ولكن يمكن دائما أن يجد الإنسان مكانا بين الأقدام والأكتاف والتلاحم . ومن المناكب التى تزغدك من الأمام والخلف ولا تستطيع أن تقول : بم . . ولا يصح أن تقول ، إنه الطواف والناس كثيرون وليس بينك وبين أحد عداوة . . فنحن نضغط على بعضنا البعض ولا يصح ولا معنى من أن نشكو أو حتى نتوجع . . فكل شىء بثوابه ؟

وكنت أنزل فى فندق هيلتون المطل على الكعبة . طبعا زحام . . ولكن هناك أماكن حول الكعبة تتسع لمئات آخرين . . أما الطواف . . فوق فى الدور الأول والثانى فذلك شاق أيضا . . لأن الدائرة أوسع جدا . . ثم إن هناك أناسا قد استراحوا فناموا . ومن الذى لايتمنى أن ينام وأن يستسلم للراحة الجميلة التى لايعرف

من أين تجىء إليه . . إنها تجىء من كل مكان . . من مجرد النظر إلى الكعبة . . من مجرد الاستسلام للمعانى التى لا أول لها ولا آخر . . من هواء نقى . . من الضياء التى هى جرعات من الأشعة الصافية تغسل وتداوى . . كيف ؟ لا سؤال . ولا جواب على هذا السؤال . فهذا شعور غامر من كل اتجاه وفى كل اتجاه .

وقد أجلت الذهاب إلى الكعبة التى أراها أمام عينى . . وأرى أيضا مساحات يمكن أن أشغل فيها موطأ قدم . . وأجلت . . ولما وجدت الناس تستريح إلى الكعبة من كل مكان خشيت ألا أجد مكانا للصلاة وبعد ذلك السعى والطواف .

ونزلت من الدور الثالث عشر . . ووقفت على السلالم المتحركة وهبطت ووجدت نفسى فى المساحة الشاسعة أمام المسجد الحرام . وحاولت أن أخترق الصفوف وأن أخبط هذا وأعتذر أول الأمر . . ثم أرتطم بذاك ولا اعتذر ولكن الطريق طويل والناس سدوا أمامى كل سبيل إلى أن أتحرك . . فتراجعت وتراجعت ولازلت أتراجع حتى لم أجد مكانا أمام الفندق . . فالناس - والحمد لله - قد غطوا كل مساحات الأرض وسلالم الفندق .

ووجدت أحد الأصدقاء يسحبنى ، واستسلمت له . . وصعدت الدرج إلى الدور الرابع من الفندق . . ففى الدور الرابع يوجد مصلى للرجال . . وفى الدور الخامس مصلى للسيدات . . وحتى فى الدور الرابع وجدتنى فى آخر صف وحمدت الله أن وجدت لى مكانا فى الفندق لكى اتجه منه إلى الكعبة وأصلى .

وبعد الصلاة وانصراف بعض الناس ، قيل لى : إن هذا هو أنسب وقت لأداء العمرة . . وليس صحيحا أن الناس قد

انصرفوا . . وأن الزحام قد خف . . وإنما حدث أن بعض الناس قد فرغوا لأعمالهم ولكن الباقين قد زحفوا يحتلون أماكنهم ويزحفون على المسجد ويتزاحمون حول الكعبة .

آه يا عينى . . لقد خبطتنى عصا فكادت تفقأ عينى واحتبست الكلمات فى حلقى . . فعندما نظرت وجدت صاحب العصا أعمى وكدت أنكفئ ولما نظرت إلى الأرض وجدت رجلا يزحف على ركبتيه . . إنه مشلول .

ولم أستطع أن أقول لسيدة حملت صغيرها على كتفها : إن الذى فعله طفلها على ملابسها وملابس الآخرين يجعلها تحتاج إلى وضوء . . وقلت فى نفسى : ولكنها لاتستطيع أن تفعل شيئا لو أرادت . . لاتستطيع أن تخرج . . لاتستطيع أن تعطى ابنها لأى أحد . . بل لاتستطيع أن تسد فمه وهو يبكى وهو يصرخ وهو يقول مالا يعرف . . فربك غفور لها رحيم بها وبنا .

وعندما أتممت الطواف والسعى سمعت من يقول : الحمد لله كانت خفيفة جدا . . وكان كل شىء ميسرا !

إذن كل هذا الذى حدث لنا وأصابنا وأوجعنا وتضايقنا فى الزحام لم يكن شيئا . وإنما المهم أن كل شىء قد تم . . وأن الثواب على قدر المشقة . . فالناس كلهم راضون سعداء . . وكل واحد يقول : مبروك . . وكل واحد يقول : الحمد لله . . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله !

الدبابير تدافع عن القهوة !

إذا كنت من الذين يشربون القهوة كل يوم ، فأنت واحد من أربعة آلاف مليون . . وإذا كنت تشرب الشاى فأنت واحد من ثلاثة آلاف مليون . . وإذا كنت مثلى تشرب القهوة والشاى فأنت واحد من ألفى مليون نسمة . . أما الذين لا مزاج لهم فلا يشربون لا القهوة ولا الشاى ، فهم بضعة ملايين !

والقهوة شراب ينعش . . والذى ينعش هو مادة «الكافيين» الموجودة فى القهوة وفى الشاى أيضا . وفى القرن الثالث عشر لاحظ أحد الرعاة فى الحبشة أن الماعز إذا أكلت من نبات أخضر يرتفع عن الأرض ثلاثة أمتار ، فإنها تظل طول الوقت تجرى وترقص ولا تنام . إنها شجرة البن . . وأول من تعاطاها الرهبان حتى لاينامو .

ولما اكتشفوا القهوة ، أقاموا لها محلات خاصة هى المقاهى . وقد ازدحم الناس فى المقاهى ، وانشغلوا عن العمل .

وقد أغلقت المقاهى فى مكة المكرمة سنة ١٥١١ . وفى القاهرة سنة ١٥٣٤ وفى استنبول سنة ١٥٥٤ . وفى إيطاليا سنة ١٦٦٠ . والملك تشارلز الثانى أغلق ثلاثة آلاف مقهى سنة ١٦٧٥ .

وكانوا فى ذلك الوقت إذا وصفوا سيدة بأنها منحلة يقولون : إنها من هذا النوع الذى يشرب القهوة والشاى مرتين فى اليوم !

وأصبحت القهوة مزاجا وكيفا وإدمانا وتجارة رابحة جدا .. والبن ينمو فى المناطق عند خط عرض ٢٠ شمال وجنوب خط الاستواء وفى أفريقيا وأمريكا .. وفى درجة حرارة عشرين مئوية . ولو تركوا شجرة البن ترتفع كما تريد لبلغت أربعة أو خمسة أمتار .. ولكنهم يحرصون على أن يجعلوها قصيرة حتى يمكن قطف ثمارها . والثمرة حبتان تلتصقان معا .

وهناك أنواع من القهوة : قهوة سادة بحب الهال ـ يسمونه «الهيل» فى كل البلاد العربية ـ والقهوة السادة .. والقهوة باللبن والقهوة بالكريم .. وفى كوبا يطحنون البن والسكر معا .. ومن النادر أن تجد قهوة خالية من السكر !

وهناك خطر يهدد الفنجان الذى فى يدك ، هذا الخطر جاء من أفريقيا وينتقل الآن إلى كل الدنيا . فهناك حشرة صغيرة جدا تضع بيضها فى حبات البن . فإذا فقس هذا البيض خرجت منه حشرات ضئيلة تتغذى على حبات البن . فإذا هى خاوية تماما . وهذه الحشرة الصغيرة جدا قد أهلكت ألوف الأفدنة .. وأفسدت ملايين الأطنان من البن . وسوف يؤدى ذلك إلى ارتفاع سعر البن أو اتجاه الناس إلى الشاى .. أو تزييف البن فى كل مكان !

والعلاج عادة يكون برش شجيرات البن بالمواد الكيماوية التى تخنق هذه الحشرة ، وعيب المبيدات الحشرية أنها تقتل الحشرات . وتتسلل إلى البن .. ثم إلى الإنسان الذى يجد المبيدات فى الماء والهواء واللبن واللحم والخضروات !!

ولكن العلماء الإنجليز اهتدوا إلى علاج تقليدى آخر : علاج بيولوجى بدلا من العلاج الكيماوى . وهو أنهم يطلقون نوعا خاصا

من الدبابير .. هذه الدبابير تأكل بيض هذه الحشرة .. أو تأكل الحشرات نفسها .. أو تضع بيضا فوق بيض هذه الحشرة .. فإذا فقس بيض الدبابير أكل بيض الحشرة .

وقد جرب الإنسان ذلك الأسلوب مع بداية استعماره لأستراليا .. فقد توحشت الفئران وراحت تأكل الطيور وتهاجم الحيوانات والأطفال فأتوا لها بالقطط التى تقضى عليها ، ولكن القطط نفسها توحشت فراحت تأكل الأرانب والطيور والأطفال فأتوا لها بالكلاب التى توحشت وصارت تطارد الذئاب وتهاجم الأبقار والجواميس والإنسان .

وفى الهند عندما صارت جلود الثعابين «موضة» لصنع شنط السيدات وأحذيتهن اصطادوها وصدروها بمئات الألوف .. ولكن الثعابين كانت تأكل الفئران التى كانت تأكل القمح . فلما اختفت الثعابين اختفى القمح . فعاد الهنود يحرمون قتل الثعابين التى تأكل الفئران التى كانت تأكل القمح !

فالإنسان أحدث خللا فى التوازن فى عناصر البيئة . ولذلك عاد إلى تحقيق هذا التوازن . فإذا كانت الفئران ضارة فالثعابين تأكلها .. وإذا كانت الثعابين ضارة فإن بيعها أكثر ضررا .

وسوف تستخدم الدبابير حتى يظهر لها ضرر آخر ، حينئذ سوف نقضى على الدبابير ونترك الحشرات تأكل البن ، لأن هذا أهون كثيرا من ضرر آخر !

عينى فى عينك !

العين هى أعقد عضو فى جسم الإنسان بعد المخ طبعا . فالعين مكونة من مليون جزء . . والعين هى أكثر أعضاء الجسم تعرضا للإرهاق . فعالمنا كله بصرى . . أى نعتمد فيه على العين لكى نراه . . لكى نأكل ونعمل ونقرأ ونمشى ونجرى ونحب ونكره ولكى نقتل أيضا !

والأطباء يكتشفون الكثير من الأمراض بالنظر إلى العين وإلى قاع العين : يكتشفون أمراض السكر والخلل فى الغدة الدرقية . . وضغط الدم والضعف العام .

وهناك طرق كثيرة لإراحة العين من الإرهاق اليومى .

فالطبيب الصينى ينصحك بأن تطبق عينيك كل ساعتين . . وذلك بأن تجلس إلى مكتبك وتغمض عينيك وتتخيل بأنك تنظر إلى حائط أسود أو رمادى . . وينصحك أيضاً بأن تضع قطرة . . أو دموعاً صناعية لمعالجة الجفاف .

والطبيب الأوروبى والأمريكى يطلب إليك أن تكف عن القراءة كل ست ساعات . وألا تشاهد التليفزيون إلا بعيداً عن الفيض الإشعاعى الذى يضر بالعين ، ومن الممكن أن يضر بالكرات البيضاء والحمراء أيضا .

والشاعر القديم يقول :

عيناك قد دلتا عينى .

على أشياء لولاهما ماكنت تبديها .

فالعين تعرف من عينى محدثها .

إن كان من حزبها أو من أعاديها .

والعين : نافذة الروح . .

ومن عادة المرأة إذا أرادت أن تعرف شيئا أن تنظر إلى عينيك أو إذا أرادت أن تتأكد من شيء قالت لك : لابد أن أرى ذلك فى عينيك .

ومن عادة المرأة أن تنظر إلى عينى الرجل أو المرأة الأخرى فإذا حاول الرجل أن يفعل مثلها اندهشت وقالت له : فيه إيه . . أنت بتبص لى كده ليه ؟

مع أنها تفعل ذلك . ولكنها لم تعتد من الرجل ذلك !

وفى البلاد قليلة الضوء لايجعلون للنوافذ (شيشا) خشبيا حتى ينفذ الضوء . . وإنما يكتفون بالزجاج أو الستائر الرقيقة . . ولذلك تغير لون العين فى دول الشمال فصارت زرقاء . . لأن اللون الأزرق يسمح بمرور كثير من الضوء . . بينما فى البلاد التى فيها ضوء شديد يستخدمون الشيش والستائر الغامقة حتى لايدخل الضوء . . وكذلك تحول لون العين إلي اللون البنى أو الأسود حتى يؤدى هذا اللون إلى منع دخول الضوء الكثير إلى العين .

وقد أدى الضوء الصناعى فى كل مكان والأشعة فوق البنفسجية والتليفزيون وأجهزة الكومبيوتر إلى أن وضع ألف مليون نسمة نظارات طبية وعدسات ملتصقة .

وهناك أغذية لتقوية العيون أو لمنعها من الانهيار . معظم هذه الأطعمة هي مركبات فيتامين «أ» . . ومعظم فيتامينات العين هي نفسها فيتامينات النشاط الجنسي . . لأن الجنس مرتبط بالعين أيضا . فعالمنا كله بصري . مرئي يدخل إلينا عن طريق العين . . حتى الذي لانراه نتخيله .

والشاعر القديم قال :

والأذن تعشق قبل العين أحياناً .

وهذا صحيح فالذي نسمعه نتخيل صورته . . ونقع في غرام الصورة قبل أن نرى صاحبها . . أو صاحبتها !

ونصف الشعر في وصف العينين والنصف الثاني في وصف الشفتين والساقين والقمر والليل والحسود والعذول !

قال العقاد وفي منتهى القسوة والكراهية للمرأة :

زرقـة عينيك لا صفـاء
فيهـا ، ولكنـه فضـاء !
حمرة خديـك لا حيـاء
فيهـا ، ولكنـه اشتهـاء !
قوامك الرمح ، لا اعتدال
فيـه ، ولكنـه اعتـداء !

فيه شفاء للناس !

هذه الأبيات للشاعر السعودي اللطيف العفيف أيضا : الأمير عبد الرحمن بن مساعد بن عبد العزيز يهاجم في لهجة عامية واحدة من إياهن تعانق رجلا وعينها على رجل آخر :

«تحضنه . . لأجل تضحك اللي وراه وما همها لو شافها ، غايته أسمى كثيرا من العتاب ومن الغضب .

تحضنه . .

وفي بالها ذاك اللي أعطاها الرقم

في ليله كان النهار فيها بقايا سكرته وللأسف أنه نسي يكتب لها كم غرفته . . تحضنه . .

وفي يدها ساعة ذهب كان اشتراها البارحة لأجل تعرف . . كما مساحة غرفته» !!

أي كلام عن أثر عسل النحل أو رحيق الملكات ليس مبالغا فيه . فهذا العسل هو خلاصة عمليات كيماوية بارعة تقوم بها النحلة عندما تمتص رحيق الزهور وتفرز ذلك في الخلية بعد تصنيعه وتثبيته في بيوت من الشمع . . ويقال : إن النحل أقام في جسد أسد متعفن . . فالأسد ميت والنحل حي . وسموم العفونة لم تتسلل إلى العسل ، وهي حقيقة علمية أيضا! وأجدادنا من الفراعنة استخدموه كمرهم . . واستخدموه بدلا من القطرة للعين . . ووضعوه على الجروح . . وأنا شخصيا قد جربت ذلك ،

فكثيرا ما احترقت يدى بسبب ماء ساخن سقط عليها سهوا . وبسرعة غطيتها بعسل النحل لمدة دقائق . وذهب الالتهاب تماما وفعل ذلك كثيرون ويمكنك أن تضع العسل على أية جروح وأية التهابات فى الجسم . . وحتى فى اللثة واستخدام العسل الساخن مع الليمون هو أحسن علاج لالتهاب الحلق . . كل ذلك ليس سحرا ولا خرافة ولكنه حقيقة !

وقد انتشر استخدام العسل بسبب أثره المؤكد فى علاج التهاب المفاصل وضيق التنفس ، والعسل يحتوى على عدد كبير من الفيتامينات والأملاح والأحماض .

والنحل يقدم للأنثى الوحيدة فى الخلية رحيقا خاصاً - هو رحيق الملكة - هذا الرحيق يجعل الأنثى يكبر حجمها وتعيش خمس سنوات . . بينما النحل الذى يقدم لها هذا الطعام ولا يذوقه يعيش خمسة أسابيع فقط !

وهذه الملكة بسبب الرحيق السحرى تبيض أكثر من ثلاثة ملايين بيضة فى حياتها كلها! وإذا كانت شركات التجميل تضع عسل النحل فى كل مواد التجميل ، فإن الفراعنة قد عرفوا ذلك . . واستخدموه أيضا فى التحنيط لأنه يعزل الجسم تماما عن العفونة ، وكذلك فعل الروس عند تحنيط الزعيم لينين . . والذين يشتغلون بتربية الخيول يخلطون الحبوب التى تأكلها الخيول بعسل النحل . . فالعسل يعزل الحبوب عن التراب . . وفى نفس الوقت يتسلل إلى داخلها غذاء غنيا للخيول .

وكانت الملكة بلقيس ملكة سبأ تستحم بلبن الناقة والحمارة . . ثم تضع فى اللبن المواد العطرية وبعد ذلك تدهن كل جسمها بعسل النحل !

وهذا ما كانت تفعله إليزابيث تايلور وجوان كولنز وصوفيا لورين ومارلين مونرو . فقد كانت كل واحدة منهن تعتزل الناس يوما من كل أسبوع لتغطى جسمها بعسل النحل ساعات . . ثم تستحم فى ماء دافىء . وإن كان الأطباء ينصحون الحمام الساخن أولا لكى تتفتح المسام وبعد ذلك حمام أو غطاء عسل النحل .

وفى مذكرات الممثلة البريطانية جوان كولنز تقول : إنها استخدمت رحيق الملكة غطاء لوجهها . . وأنها أنفقت أكثر من مليون جنيه على هذا الرحيق الذى جعل بشرتها ما تزال شابة حتى اليوم .

والذين يشتغلون بتربية النحل لايصابون بأية آلام فى المفاصل ولا يصابون بالذبحة ، والسبب هو أنهم يتعرضون عن عمد للعسل النحل . وهذه المادة السامة التى فى ذيل «النحل الشغال» هى علاج من آلام الروماتزم . . ولذلك تقوم شركات الأدوية العالمية بجمع هذه المادة وإعادة استخدامها لحقن مرضى السكر والروماتيزم والقلب وآلام الأسنان والمغص الكلوى .

ولما تعرض النحل لذبابة «تسى تسى» فى أفريقيا التى تطارده وتأكله قام العلماء بتركيب «هوائيات» على ظهر النحل لمعرفة أماكن الذباب القاتل وكم تستغرق عملية القضاء على النحل .

وإذا كان الإنسان قد قضى عليه التلوث فالنحل أيضا . . فالنحل يعيش على رحيق الزهور التى تغطت بالمبيدات الحشرية السامة . . وكان النحل أول الضحايا . . ولم تنتقل هذه السموم إلى الإنسان وإنما نقلته حيوانات أخرى : الأبقار والجواميس فى لحمها وألبانها !

سيزيف من لبنان !

فى أساطير الإغريق أن البطل عوليس ذهب فى مغامرات حول العالم .. وغاب طويلا . . عشرين عاما . وترك زوجته الجميلة بنيلوبة فتكاثر على بابها وتحت شباكها عشرات من الشباب يقولون لها : سيبك منه . . وهل معقول أن تضيعى شبابك من أجل رجل مجنون مثل زوجك !

ولكنها كانت على يقين من أنه سوف يعود سالماً مخلصاً ، كما أنها هى مخلصة له . وكل يوم تقول لهم حكاية ورواية . . وأخيراً اهتدت إلى حيلة قالت لهم : إننى أصنع بلوفر وإذا اكتمل البلوفر فسوف أختار من بينكم رجلاً !

وكانت ما تصنعه بالليل تفكه بالنهار ، ولم يكمل البلوفر عشرين عاماً ، حتى جاء زوجها وانقض على هؤلاء الشبان !

والقصة تدل على صبر الزوجة وإخلاصها . . وتدل أيضا على الإصرار فى أن تمضى فى صنع البلوفر ليلاً ونهاراً دون ملل أو كلل !

وكذلك فعل الشعب اللبنانى فى مواجهة الدمار والخراب . . فالذى يهدمونه ليلاً يعودون إلى بنائه نهارًا وهم مصرون على الهدم والبناء معًا !

وهناك قصة أخرى تقول : إن قضاة الإغريق حكموا على البطل سيزيف بأن يدفع أمامه حجرًا إلى أعلى الجبل . فإذا بلغ القمة انحدر الحجر إلى السفح ، فعاد سيزيف إلى رفعه مرة أخرى إلى القمة . . وإلى الأبد !

ولم يشعر البطل بأن هذا العذاب سخيف وممل . بل إنه أراد أن يغيظ من عاقبوه ، وكان يؤدى هذه العقوبة رافع الرأس واضح الابتسام . . كأنه أراد أن يقول : إن الذى يقوم به ليس سجنًا مع الشغل والنفاذ . وإنما هى رياضة الصعود والهبوط . يريد أن يقول لهم : إنهم أرادوه عقابًا ، أما هو فأراده رياضة . . أرادوا أن يحطموا رأسه ، فرفعه إلى أعلى . . أرادوا أن يكسروا ساقيه وقدميه ، فازداد رشاقة وحيوية فلا انتهت العقوبة ولاسيزيف عرف اليأس !

وكذلك فعل الشعب اللبناني . . فالمحلات التجارية التى تهدمها القنابل أو الصواريخ ليلا ، يقومون ببنائها نهارًا . . أو يعرضون سلعهم فوق الخرائب المجاورة لها . . وكأن الحرب لم تفعل شيئا . . إنهم لم يغلقوا دكانا ، ولكنهم فتحوا واحدًا آخر إلى جواره . . ربما التقى الذى يبنى والذى يهدم على منتهى واحد . . أو فى دكان واحد . . فإذا جاء الليل ذهب صاحب الدكان لينام تحت الأرض ، وذهب الرجل الآخر إلى سلاحه يهدم الخرائب مرة أخرى . . فإذا طلع النهار عاد التاجر إلى مكان مجاور وعاد المخرب إلى نفس المكان يحول الحجارة إلى تراب وهباب بعد ذلك !

شىء عجيب أن تجد اللبنانيين الذين تحطمت واجهاتهم الزجاجية ، يعودون إلى شراء واجهات أخرى ومن الزجاج أيضا . . إنهم يرفضون الدمار ويرفضون الخراب ويرفضون الموت . . إنهم يواجهون القنابل بواجهات من زجاج ، ويواجهون الصواريخ بإرادة من حديد !

وليس بيننا أحد لم يحزن على الذى أصاب لبنان بأيدى أبنائها تجار السلاح والمخدرات والخونة والمرتزقة . ولكن يسعدنا جميعًا أن يعود لبنان إلى ما كان عليه من جمال ودلال . . إلى المقاهى

الصغيرة البديعة . . وإلى أندية الليل الباهرة . وإلى البيوت اللبنانية الدافئة . . فليس فى شرقنا العربى أحد مثل أهل لبنان فى الذوق واللطف والكلام الحلو .

وأذكر أننى كنت أختلف مع الناشرين اللبنانيين الذين زوروا كتبى وسرقونى . . وتختلف وتهدد بأن تذهب إلى القضاء . . وتختلف على ألف أو ألفين من الليرات . ولكن فى الليل يقيم الناشر عشاء يدعو إليه أجمل وألطف الناس ويتكلف العشاء عشرة آلاف ليرة . كيف ؟ إنه كناشر مصاص للدماء ، ولكن كصاحب بيت أو كإنسان فى غاية الذوق والكرم والكلام الحلو . كلامه وكلام زوجته وأولاده !

والله وحشنا لبنان الجميل الفخم اللذيذ . . فلبنان ليس له نظير فى الشرق بل وأجمل من كثير من بلاد الغرب . . وليس بيتنا من لايحمل أجمل الذكريات وأبدعها وأبقاها .

إن سيزيف اللبنانى قادر على أن يحقق المعجزات . . وقد بدأ فى ذلك . . وكلها سنوات وتعود إلى أجمل ما صنع الله وما صنع الإنسان أيضا !

التى هى أقوى من
العواصف والزلازل !

حاول أن تتخيل عاصفة تجتاح الأشجار والبيوت ويرتفع الموج وزلزالا بعد ذلك . . انظر إلى البيوت . . إلى الأشجار . . إلى المياه . . إلى الحرائق . . كلها معا تتعاون على إبادة كل شىء فى كل الاتجاهات . . فإذا وجدت بيتا واحدا يهتز ولايقع ، وشجرة تتلوى ولاتنكسر وتظل واقفة فى مكانها استعدادا لعاصفة أخرى ، وسيول وأمواج وحرائق لها ألسنة ولها عيون . . إنها مؤامرة جبارة على القضاء على هذا البيت وهذه الشجرة .

إذا استحضرت هذه الصورة أمامك . . فالذى تراه هو الأميرة ديانا . . الفتاة الصغيرة الحلوة بنت الأكابر لا بها ولا عليها . . تقدم لها حاكم المستقبل الذى هو حلم ملايين الفتيات وقال لها : أريدك زوجا لى !

أختها قد رفضته . . أما هى فقبلت وأقبلت على الأمير تحبه . وتنجب له ولدين . وقد أدى ذلك إلى حقد الأسرة المالكة منها . . رجالا ونساء على البنت المقعوصة التى حولت الحكم البريطانى إلى ولديها .

وفى الأسرة المالكة البريطانية كل شىء يبدأ هكذا : يجب أن تفعل هذا وألا تفعل . . وأن تخرج وألا تخرج . . وأن تبتسم وألا

تفعل ذلك . . ولابد أن تدخل فى هذا الإطار الحديدى الحجرى . إنهم قد اعتادوا على ذلك . . وهى لم تستطع ولن تستطيع . . هذا قرارها !

وتوالت الإهانات عليها .

أول إهانة أن زوجها أخبرها بأنه لم يكن فى نيته أن يتزوجها . وإنما التى اقترحت هذا الزواج صديقته كاميلا ! إن لم يكن هذا خنجرا مسموما للكبرياء وأنوثة امرأة ، فهو إطلاق رصاص عشوائى على كل مشاعرها !

الإهانة الثانية أنها وجدت فى غرفة الأمير أشياء كثيرة تبدأ بحرف C الذى هو الحرف الأول من اسم الأمير . . واسم كاميلا أيضا ولم ينكر الأمير ذلك .

والمعنى أن ديانا يجب أن تقبل وجود امرأة أخرى فى حياته . وفى مقابلتها التليفزيونية القنبلة مع الصحفى الباكستانى مارتن بشير قالت : إن حياتنا الزوجية كانت من ثلاثة . . إنها حياة مزدحمة !

واتهمها الأمير كثيرا بأنها جاهلة . . وهى بالفعل كذلك . . ولكنها ليست غبية !

فالذكاء من الممكن أن تكسبه بسرعة . ثم إن الذكاء ليس من الصفات الهامة ، فكثير من الحيوانات عندها ذكاء . . ولكن الذى عمره ملايين السنين فهو غريزة الأنثى !

وجاءت الإهانة الثالثة وهى أن «ترمرم» فى الأكل . . ثم تنهض من أفخم الموائد وتفرغ ما فى جوفها . فوصفها الأمير بأنها بقرة مريضة على مسمع من كل الناس ، أما أنها مريضة فهذا صحيح . ومرضها اسمه «بوليميا» . . أى مرض الجوع الدائم والشراهة . . فهى تأكل كثيرا وبسرعة تذهب إلى دورة المياه . إنها حالة عصبية مرضية تصيب الذين عندهم إحباط وفشل !

والإهانة الرابعة أنه اعترف فى التليفزيون بأنه يخونها وخانها وسوف يخونها ! ووجدت الأميرة ديانا نفسها وحيدة فى الدنيا إلا من كاميرات الصحف والتليفزيون فى الدنيا وحب الناس لها وكراهيتهم للأمير وأخته وأمه وخاله وعمته وجدته . . أما هذه الفتاة الأنيقة ديانا فهى رمز الشباب المتمرد والمرأة الجريحة والرغبة فى الانتقام . ومن الذى لايريد أن ينتقم ، ولكن ما أقل الناس القادرين على ذلك !

واضطربت وتلخبطت حياة الأميرة الجميلة . . ولو رأيت الأميرة فى المقابلة التليفزيونية لتعاطفت معها . أنا فعلت ذلك ، لقد رأيت أنها مظلومة وأن القصر قد جنى عليها والخبط كيانها وأصابها بما هو دون الجنون . . فهى وحدها تفكر لنفسها وتدافع عن كرامتها وأنوثتها وأمومتها . . وإذا كانت هى الأخرى قد اعترفت بأنها خانت زوجها ، فلم تفعل ذلك إلا ردا على إهانة الزوج لها .

وانقسم الشعب الإنجليزى والرأى العام العالمى كله نصفين ، أقل من النصف مع الأمير والباقى مع الأميرة الصغيرة فى السن والتجربة ، والمتمردة على القيود الذهبية .

هل تتوقف هذه المعركة بين برود الأمير ونيران الأميرة؟ لن تتوقف إلا بالطلاق . والأميرة غلطانة والأمير غلطان ، ولكن الأميرة أقوى وأشجع وأصلب عودا وأطول لسانا ، وهى إن لم تكن ملكة بعد ذلك فمن المؤكد أنها المصدر الرئيسى لانتشار الصحف الصفراء فى بريطانيا التى تعيش على مصائب الناس !

أنا لا أسد ولا فأر

أنا من مواليد برج الأسد حسب التوقيت الشمسى الأوروبى .

ومواليد سنة الفأر حسب الأبراج الصينية . والفأر مجرد رمز وليس وصفا لمواليد هذه السنة .

أما الأسد فلا أجد بينه وبينى أية صفة ، فالأسد منظر وبس . فلا هو صياد ولا هو زوج صيد ولا أب . وإنما هو يعيش على الذى تصطاده اللبؤة : فهى التى تأتى له بالطعام هو وأولاده . . ولايكاد يراها أتت بالفريسة حتى يزأر ويجرى كم خطوة ويقف إلى جوار الفريسة كأنه هو الذى اصطادها . . ثم إن اللبؤة إذا ولدت فإنها تخاف منه على أولادها . لأنه من الممكن أن يأكلها بسبب الغيرة لاهتمام اللبؤة بالصغار أكثر من اهتمامها به . . أو لأنه ليس على يقين إن كانوا أولاده .

والأسد لا يأكل الجيف - أى لحوم الحيوانات التى ماتت - وحتى لو كاد يموت جوعاً !

ومن هذه النهاية أختلف مع سيادته ، فأنا نباتى لا آكل اللحوم ، ثم إننى لست بلطجياً ، منظرًا وبس .

ثم إننى أعرف عدداً كبيرًا من مواليد برج الأسد ، ولسنا متشابهين فى أشياء كثيرة .

بل إن التوائم من مواليد البرج الواحد مختلفون . . فأنا أعرف التوأم مصطفى أمين وعلى أمين وهما من برج الحوت ومن مواليد برج القط الصينى .

وأعرف التوأم الوزيرين : توفيق عبد الفتاح وزكريا توفيق : وقد ولدت معهما فى نفس اليوم ١٨ أغسطس وبيننا تشابه ولكن الاختلافات كثيرة بينى وبين التوأم .

والذين ولدت معهم فى برج الأسد : نابليون ومصطفى كامل وكاسترو .

وقد ولدت مع الرئيس كاسترو فى نفس اليوم والساعة ، وقد رأيته فى سنة ١٩٦٤ فى هافانا أثناء انعقاد مؤتمر القارات الثلاث . وقال له المرحوم يوسف السباعى : إننى لا أدخن ولا أشرب القهوة .

فانزعج كاسترو واستشعر إهانة بالغة له وللبرج الذى ولد فيه . . ولم يستطع أن يطردنى من البرج ولا من بلاده . ولكنه أشار بيده وقال كلمة أسبانية لم أسمعها بوضوح . وبسرعة جاء كوب من القهوة السكر زيادة . فهم فى كوبا يطحنون البن والسكر معًا . . ثم بسيجارة ماركة تشرشل . . وشدنى من ذراعى وقال لى : كده يا جاهل !

أما هذا الذى هو (كده) . . فهو أن آتى بسيجار وأغمسه فى القهوة . . ثم أقضم بأسنانى الجانب الذى تبلل وأقذف به إلى الأرض . . ثم قال هكذا : حتى الصباح .

وشربت القهوة ، فلم أعرف النوم وأخذت نفسين من السيجار وظللت أسعل أحمر العينين حتى غادرنا كوبا عائدين إلى موسكو . . وكان يوما فى لون البن الأسود ، وفى يدى السيجار يمزق الحنجرة والصدر .

طبعا لم أر نابليون ولكن أعرف الكثير عن عاداته . . وهو رجل حربى عبقرى . وأنا لم ألمس حتى هذه اللحظة بندقية أو مسدسا ، والمرة الوحيدة التى أمسكت فيها بندقية رش انطلقت واحدة ونفذت من باطن اليد إلى ظاهرها . . وكانت معجزة ، فالرصاصة

لم تمس عصبا وإلا كان الشلل قد أصابنى - هذا ما قاله لى الدكتور الكبير محمد عبد الوهاب فى مركز الأشعة !

أما الذين ولدوا معى فى سنة الفأر فهم الأدباء : شكسبير وتولستوى وجيل فرن ، والأديبتان شارلوت برونتيه ومورج صاند وكريم أغاخان ، والأمير تشارلز ولى العهد ، والممثلون مارلون براندو وموريس شيفاليه ودوريس داى وسيدنى بواتييه ، ومصمم الأزياء إيف سان لوران ، وعبقرى الموسيقى موتسارت .

ولم أر من كل هؤلاء رأى العين إلا الأمير تشارلز ، رأيته فى جنازة إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل . . رجلاً مهزومًا مقهورًا مفضوحًا من زوجته الأميرة ديانا وحاولت أن أعقد مقارنة بينى وبينه لم أجد وجها واحدًا للشبه . . وإن كنت من السهل أن أجد بينى وبين الأدباء العظماء .

وكنت أكتب الأبراج عندما عملت رئيسا لتحرير مجلات «الجيل» و«هى» و«آخر ساعة» و«أكتوبر» ، فأنا أعلم أن الناس يتفاءلون ويقرءون الأبراج ، عادة كل واحد يقرأ برجه هو وبعد ذلك يقرأ برج الذين يحبهم . . ولكنه لايقرأ بقية الأبراج ، ولذلك كنت أكتب هذه الأبراج بلهجة متفائلة فالناس يحبون ذلك .

وأحيانًا كنت أترجمها وأحيانا كنت أخترعها . . ثم أعيد (تقنيط) الأبراج فأجعل أولها آخرها وآخرها أولها - ولا أحد يدرى!

وعندما توليت رئاسة تحرير مجلة آخر ساعة أدخلت عليها تعديلات وتجديدات كثيرة وأتيت بواحد صاحبى اسمه العبقرى الفلكى نسبت إليه قدرات لا أساس لها من الصحة ، وكان الهدف هو أن ألفت النظر إلى ما سوف يكتبه فى مجلة آخر ساعة وحدث .

وعندما أصدرت مجلة أكتوبر أتيت بواحد فلكى أطلقت عليه اسم دكتور شندى هندى وكتب وبعد ذلك كتبت أنا وغيرى كل الأبراج وتناولناها وتناوبناها والناس سعداء بما يقرءون .

وفى يوم اندهشت من دقة الأبراج عندما قرأت برجى فى إحدى المرات . فقد كان البرج دقيقا جداً . . ونسيت شيئين : إننى أنا الذى كتبت البرج ، وإننى كتبت بالضبط ما حدث لى !

وأمس قرأت برجى فى عدد من المجلات العالمية فوجدت اتفاقا بينها جميعاً : تقول مجلة (إل) الفرنسية : إننى سوف أقابل فى هذا اليوم شخصًا عزيزًا لى . وسوف أكون سعيداً .

وجاء فى مجلة (أنا بلا) الإيطالية : لاتضيع هذه الفرصة . فهذا اللقاء هام جداً لك . ولايحدث إلا نادرا ، اجعل هذا اللقاء منتظمًا .

وجاء فى مجلة (اشترن) الألمانية : هذا ما كنت تتمناه كثيرًا . فأرنا اليوم ما الذى سوف تفعله اليوم وغدًا بعد أن تحقق لك هذا الأمل . مستقبلك بين أصابعك الآن .

وجاء فى مجلة (دومنيكا) الإيطالية أيضا : هنيئا لك . . أنت أسعد الناس فهذا الشخص الذى تقابله هذا الأسبوع هو أعز الناس عليك .

وفى المجلات العربية قرأت : لاتندم على أنك قابلت هذا الشخص . أنت مضطر أن تقابله كثيرًا فتعال على نفسك وآهى علقة تفوت ولا حد يموت !

تفسير كل ذلك : إننى هذا اليوم واليوم الذى قبله لم أخرج من البيت . وانفردت بنفسى فى مكتبى فلم أقابل إلا واحدا هو : أنيس منصور . . أما أننى أتمنى أن أجلس إليه كثيرًا ، فهذا ما أريد . . وأن أتأمل حالى وما الذى يمكن أن أفعله . . فعندى مشروعات أدبية كثيرة . ولم أتقدم ولم أتأخر . . فأنا أخوض نفسى

وسط الزحام . . فحولى كثير من الأفكار والآراء المتضاربة . . وأ
فى زحام وأتخبط . . وأريد أن ينقشع هذا الضباب . . وأن أر
أوضح وأسمع أعمق . . وأن تكون المسافة بينى وبين نفس
أقرب . . هذا كل ما أريده . . وبعد ذلك أعرف ما الذى سوف أقا
على كتابته . هذا كل ما حدث هذا الأسبوع . والمعنى وا
عندى أنا ولا أعرف إن كان هذا المعنى يوافق الذين ولدوا معى ف
نفس البرج . . ولكن أنا الذى فسرت هذا البرج على هواى . .
أنه صادف هوى من نفسى .

وقرأت فى مجلة (كوزموبوليتان) الأمريكية : قم . . انهض .
افتح النوافذ . . فتحت النوافذ . . تستطيع الآن أن تقرر إذا ألقي
بنفسك من النافذة تصل إلى الأرض سالما . . نصيحتى : لاتضي
هذه الفرصة . . ألق بنفسك من النافذة لأنك إنسان متردد لا
تستحق هذه الحياة . وقد أتيحت لك فرص كثيرة . . وبرجك
برج السعد والشهرة والفلوس والقوة . إذا لم تكن تعرف ذلك فأن
لاتستحق هذه الحياة !

وأحسست أننى لا أستحق وفتحت النافذة وجعلت أتفرج على
المشاة والسيارات ، فالنافذة فى الدور الأرضى . . فالحياة تستاهل أ
تعجبك وأن تعيشها وأن تقرأ عنها هذه الأبراج وتتسلى وتأخذ منها
ما يعجبك . . فالنجوم فى السماء لاتعرف عنى أكثر منى ، ولاتضع
حبل المشنقة فى عنقى . فأنا الذى أفعل ذلك بما أقول وبما لا أقول .

وقرأت برجى فى مجلة (جورج) أحدث مجلة كاريكاتير فى
العالم ، البرج يقول : اقفل المجلة . . أنت لاتصدقنى . . ولذلك فإذا
لم أصدر لواحد مثلك !

صدقت . وشكرًا .

يعنى إيه ؟!

الكون الذى نعرف عندما نشأ من ١٤ ألف مليون سنة ، و كان على شكل مادة تنفجر وتتأثر بسرعة ٣٥٠ ألف كيلومتر فى الثانية - وهى سرعة الضوء - وكانت ذرات من التراب ومن الغازات . . وتتباعد ثم تتجمع بسبب الجاذبية ثم تبرد . . وتدور حول نفسها على شكل مساحات هائلة من السحب الغازية . . وتبرد وتبرد . . وتتكون منها المادة وتتجمع وتتجاذب وتدور حول نفسها فالكون كله «فى فلك يسبحون» ولانعرف كيف ظهرت الخلية الحية ، لا أحد يعرف ولكنها ظهرت وعاشت رغم الحرارة العالية والبرودة الشديدة . . ورغم عمرها القديم . . ومن هذه الخلايا كانت الحياة حياة كل شىء على كوكب الأرض وعلى كواكب أخرى لانعرفها .

يعنى إيه ؟ يعنى كيف تستطيع هذه الخلايا الدقيقة الجديدة أن تحتفظ بالحياة رغم كل هذه الظروف الكونية القاتلة ؟ لا إجابة عند أحد . ولكنها عاشت .

بل إن الأمراض التى تظهر على كوكبنا من حين إلى آخر ليست إلا خلايا حية تتساقط علينا مع الشهب التى تصطدم بالأرض يوميا . فهذه الشهب تدخل الغلاف الأرضى وتتحطم وتتناثر . . وفى الجو المعتدل الحرارة والرطوبة «تتوالد» هذه الميكروبات والفيروسات ومنها ملايين ملايين الفيروسات والميكروبات وتلاحق الإنسان وتصيبه بأمراض جديدة لانعرفها فى كل تاريخه ، يعنى إيه ؟

يعنى أن الكون حولنا هو أكبر مصنع خلقه الله لميلاد الكواكب . والنجوم . . وهو فى نفس الوقت أكبر مقابر خلقها الله للنجوم والكواكب التى تموت . فالكون من ١٤ ألف مليون سنة كائن ينفجر ويتباعد . . ويتمدد . . فكل الأدلة العلمية تقول : إن الكون بدأ يتقلص ويتساقط بعضه على بعضه وتتكون منه كتل كبيرة شديدة الكثافة . وسوف تتقلص بفعل الجاذبية حتى يعود الكون كما بدأ وقد بدأ الكون على شكل حبة صغيرة . فى حجم السمسمة . ومن هذه السمسمة التى انفجرت توالد هذا الكون الذى نعرفه ، يعنى إيه ؟

يعنى أننا لانعرف إلا كونا واحدا . . وقد اكتشفنا أخيرا أن هناك نجوما أقدم من الكون تماما كما تقول : إنك اكتشفت أن أحد أولادك أكبر منك سنا!! إذن هو ليس ابنك وإنما هو ابن واحد آخر أكبر منك . . أى أن هذه النجوم هى بقايا كون آخر . يعنى إيه ؟

يعنى أن هناك كون آخر أقدم . . أو أكوانا أخرى أقدم . . كم عددها ؟ ربما مليون أو مليون مليون . . فكل هذه الأكوان تضج بالحياة والموت والنار والنور والغازات ودور حضانة للنجوم . . ومقابر لنجوم أخرى . . وكلها ترمى كوكب الأرض والكواكب الأخرى التى نعرفها والتى لانعرفها بخلايا حية . . أمراض جديدة . . بذور للحياة وبذور للموت أيضا .

وبين توازن البناء والهدم ، الكون والفناء ، الصحة والمرض ، يتبقى هذا التوازن فى حياتنا . . وفى الكون كله . . يعنى إيه ؟

يعنى أن الذى نعرفه قليل ، والذى نريد أن نعرفه كثير . وقد تجد إجابة عن كثير من الأسئلة . وتبقى ملايين الأسئلة لا جواب لها . فما معنى هذه الأسئلة ؟ لماذا خلق الله الكون؟ وما الحكمة؟

لا جواب عندنا . فالله لم يطلعنا إلا على القليل جدا جدا جدا من علمه وحكمته !

أصبحت العدالة ترى !

كثيرا ما تتقدم بلدوزرات الحكومة وتهدم بيوتا وتسوى الحدائق بالأراضى ، لماذا ؟! رذالة وسخافة وسلطة غاشمة! ولا يستطيع المواطن أن يفعل أى شىء ، وإذا ذهب إلى القضاء فقد ينصفه . ولكن بعد سنوات .

ولكن حدث فى قرية «مارينا» أن قررت وزارة التعمير هدم إحدى الفيلات ، ولكن القضاء أوقف الهدم . وبقيت الفيلا خاوية على عروشها . . وكل الفيلات وراءها وحولها تحف معمارية إلا هذه الفيلا . ولكنى رأيتها أروع ما فى قرية مارينا . لأنها أكبر دليل على أن فى مصر قضاة عادلين . وعلى أن الوزارة ظالمة والشعب مظلوم . ولكن لا خوف على المظلوم مادام القضاء عادلا قويا .

ولذلك أرى أن تبقى الفيلا على ما هى عليه . لتكون رمزا باقيا على العدالة !

وقد حدث فى القرن الثامن عشر فى ألمانيا أن أقام الإمبراطور فريدريش الأكبر قصرا فى مدينة «بوتسدام» . وأطلق على القصر اسما فرنسيا هو «سان سوسى» أى بلا هموم ، بلا قلق . . وأطلقوا على الإمبراطور : فيلسوف سان سوسى وأراد توسيع حدائق القصر فاعترضه رجل غلبان يملك بيتا بالقرب من القصر . ولما قرر فريدريش الأكبر هدم هذا البيت ذهب الرجل إلى القضاء وحكم له القضاء ضد الإمبراطور فقرر الإمبراطور أن يبقى البيت كما هو دليلا على أنه لا حد أكبر من القانون . فاتسعت حديقة القصر ولكنها دارت حول البيت . . وقد بقى البيت كما هو والقصر كما هو . . وانهدم القصر بعد ذلك ، وبقى البيت !

وقد لاحظت أن «مجمع المحاكم» المواجه لصحيفة «الأهرام» قد ارتسم على جداره تمثال العدالة وهى تمسك الميزان بيدها . وهو أول تمثال للعدالة فى العالم كله لاتضع فيه العدالة منديلا على عينيها حتى لاترى المتقاضين فلا تفرق بين غنى وفقير . . قوى وضعيف . . ظالم ومظلوم .

هل نسى الفنان أن يضع المنديل على عينى العدالة ؟ هل أراد أن يلف المنديل حول خصر العدالة . . يريد أن يقول : إنها الآن ترقص على إيقاع أى قانون . . قانون الأقوى والأغنى ؟ هل أراد أن يتنبأ بأن القاضى أو العدالة تحكم بين الناس وهى تراهم وتعرفهم ومع ذلك لايهمها ذلك ؟ هل معنى ذلك أن القاعدة المشهورة التى تقول : إن القاضى لايحكم بعلمه ، لم تعد قاعدة . . لأن القاضى يحكم بعلمه وبفلوس المتقاضين ؟

لا أعرف . . ولكن هذا هو الحال على جدار أحد مجمعات المحاكم فى مصر . هل هى غلطة فنان أو نبوءة قانونية سياسية اجتماعية . . بداية انحراف وانحلال وانهيار ؟! لقد مات الفنان ولم يقل شيئا ولا قال شيئا عن ذلك . إن لم تصدقنى فاذهب وتفرج لترى هذا العجب العجاب !

والعجيب أن القضاة فى هذا المجمع لم يعترضوا أو لعلهم لم يروا هذا النقش البارز على جدار المبنى الكبير . أو أنهم رأوه ولم يستنكروه !

إذن يجب أن يبقى هذا النقش البارز دليلا على أنه خطر يهدد العدالة فى مصر . وأن هذا الخطر لم ينكره ولم يستنكره أحد . . لا القاضى ولا المتقاضى ولا الفنان ! ثم هو دليل على أن فى مصر حرية ، وأن هذه الحرية مكفولة للجميع . فهذا رأى فنان ، أو غلطة فنان . ولكن من حق الفنان أن يعبر ، وأن يخطئ أيضا !

لعله كل ذلك . . أو شىء من ذلك !

الذى يصلح لحمارك يصلح لك أيضا !

قبل أن أنسى أرجو أن تحتفظ بالاسم والتليفون والفاكس الآتى : د . شريف أحمد شريف مستشار التدريب بالغرفة التجارية والصناعية بجدة : تليفون ٦٤٧٣٠٢٦ فاكس : ٦٤٨٤٤٨٦ . ولكن لماذا ؟

لأنهم سوف يعقدون ندوة عالمية طبية يناقشون فيها فائدة البرسيم لصحة الإنسان ـ بذور البرسيم وأوراقه أيضا . فقد ثبت طبيا وعلميا أن البرسيم يشفى من أوجاع المفاصل وينقص الكوليسترول ويعالج القرحة .

وقد استخدمه الصينيون من ألوف السنين ، وكانت حكمتهم : إن ما يصلح لحمارك يصلح لك . انظر إلى الحمير والخيول تجدها فى غاية الصحة والعافية واللياقة الجسمية .

وكان الهنود يستخدمون البرسيم فى علاج قرحة المعدة .

وكان العرب يضعون البرسيم أمام الخيول لتكون أشد قوة وأسرع جريا . . والعرب نقلوا البرسيم إلى أسبانيا . ونقله الأسبان إلى أمريكا .

وقد نشرت مجلة «لانست» البريطانية عظيمة الاحترام أن الذين اعتادوا على تناول البرسيم قد نقص الكوليسترول عندهم فى الدم ، نقص الترسيب الدهنى فى شعيراتهم . وإذا قالت هذه المجلة المحترمة شيئا فهو قانون عند الأطباء فى العالم كله .

وقد روى لنا د . شريف أحمد شريف أن البرسيم قد أدى إلى نقص كمية السكر فى دمه . وأنه الآن فى غاية الصحة والعافية !

والناس عادة يفزعون من البرسيم لأنه طعام الحمير، وليس الفزع من البرسيم، ولكن من الحمير. وكان من الممكن أن يكون البرسيم علاجاً في مصر من أربعين عاماً. فقد قدمه أحد محلات العصير في القاهرة. وأقبل عليه الناس. ويبدو أن المصريين قد خجلوا من أنفسهم.. ثم امتنعوا عنه نهائياً بسبب نكتة. وكل شيء في مصر يبدأ بالنكتة وينتهي بها. وانتهى البرسيم عصيراً في مصر. فقد أطلقت أنا نكتة وتداولها الناس. فقد قلت وقتها: إننا يجب أن نقول لشارب البرسيم بدلاً من هنيئاً.. نقول له: نهيقاً!

ولكن الذين عرفوا قيمة البرسيم في تغيير رائحة الفم وفي القضاء على الفطريات في الأمعاء والذين يستخدمونه في مستحضرات التجميل لايعرفون اللغة العربية والتلاعب بالألفاظ والحروف، ولذلك استمروا في الاستفادة منه. ويدعوننا الآن إلى ذلك.

وقد اتفقت الغرفة التجارية السعودية في جدة مع الأستاذ عصام رفعت رئيس تحرير الأهرام الاقتصادي أن ينظم لها ندوة عالمية رفيعة المستوى من علماء مصر والسعودية لدراسة هذا الحدث العلمي الخطير الذي أهملناه واحتقرناه لأن البرسيم طعام الحمير، مع أن الحمار يشاركنا في أشياء كثيرة، ونتمنى نحن أن نشاركه في أشياء أخرى!

وقد أطلعني د. شريف أحمد شريف على بحث طبي انتهى بطريقة زراعة البرسيم في البيت.. في البلكونة وفوق السطوح.. وأن البرسيم أهم جداً من كل ما في الحديقة. إن الحمار والحصان وحيوانات أخرى قد اهتدت بالغريزة الصحيحة إلى هذا الطعام الغني بالفيتامينات ولم تسعفها لغتها لكي تقنع الإنسان بأن ينزل عن ظهور الحمير وينحني احتراماً لها.. فليس أصلح من طعام هذه الحيوانات، طعاماً للإنسان. إن لم يكن هذا اعتذاراً للإهانة والبهدلة المستمرة للحمار، فهي حفلة تكريم له لايعرفها إلا المصابون بالتهاب المفاصل والمعدة والسكر والكوليسترول والعقم!

لاتنفعل: أنت ولاحاجة!

أكد لنا علماء الفلك أن الكرة الأرضية وما عليها من حضارة إنسانية ومعارك من أجل الفلوس والسلطة ليست إلا حروباً دامية على ذرة رمل ملقاة في استاد القاهرة؛ يعني أن الكرة الأرضية بالنسبة لهذا الكون الذي نعرفه هي بهذا الحجم. ونحن بهذا الوزن.. يعني أن نختشي على دمنا ونتواضع لأننا لا نساوي شيئاً في هذا الكون.. وأنه من الممكن القضاء علينا وبسهولة وفي أي وقت. أما القضاء علينا فليس أسهل منه.. كأن نقترب من الشمس أكثر فيختفي كل شيء على الأرض وتتبخر المياه من المحيطات والأنهار. وتصبح الأرض مثل القمر والمريخ كرة من الموت.. مقبرة للإنسانية.

وقد جربنا شيئاً من ذلك من حوالي أربعين مليون سنة عندما سقط على الكرة الأرضية أحد النيازك - أي الكتل الحجرية الكبيرة المشتعلة - فماتت كل الديناصورات وغيرها من الحيوانات الكبرى التي احتلت سطح الأرض حوالي ٦٠ مليون سنة!

أو تتطوح الكرة الأرضية بعيداً عن الشمس فتتجمد فيها المياه والحياة وتصبح الكرة الأرضية كرة من الجليد. وتنتهي كل هذه الدوشة الإعلامية والتلوث الهوائي والصوتي والضوئي. ويجيء الجليد أكفاناً على جثث ألوف الملايين من البشر والحيوانات

وأضعاف أضعافها من النباتات . . ولاتبقى إلا الميكروبات تأكل بعضها البعض !

وكأننا لانزال فى حاجة إلى من يقول لنا : يا أيها التافهون اسكتوا ، فقد أشار علماء الفلك إلى أن هناك أكوانا أخرى غير هذا الكون الذى نعرفه . . ألوف الأكوان أو ملايين الأكوان . . يعنى ينتهى الاحتقار : بدلا من أن نكون ذرة فى استاد القاهرة أصبحنا ذرة ملقاة على جميع الاستادات التى فى الدنيا بشرط أن نضع هذه الملاعب الواحد إلى جوار الآخر !!

يعنى إيه ؟ يعنى أرجوك بعد قراءة السطور السابقة تدلنى من فضلك أين أنت شخصياً من هذه الذرة ؟ وأين رئيسك ورئيس رئيسك وأين أساتذتنا وحكماؤنا وعلماؤنا . . وقضايانا فى كل هذا الكون الهائل ؟ وإذا أجبت عن هذا السؤال - أقصد جرؤت أو أى أحد غيرك - فأرجو أن تكتب الرد وتلقيه فى أى صندوق زبالة لأننى لست مستعداً أن أسمع منك كلامًا لا معنى له . . فإن كان كلامك مثل كلامى ؛ فقد عرفته مقدمًا . . ووفر على نفسك الورق والحبر . . فأنا وأنت ندرى بالضبط تفاهة عالمنا ودنيانا من أول ما أقام الإنسان بيتًا من القش إلى أن أقام مدينة تدور حول الأرض . يعنى إيه ؟

يعنى : أنت وأنا ونحن ولا حاجة فى هذا الكون . . ولا هذا الكون خاصة بين هذه الأكوان التى لا أول لها ولا آخر ولا بداية ولا نهاية !

رافضات مرفوضات !

عايشت عدداً من الأديبات المرفوضات ، التى تحولن إلى رافضات ، رفضهن المجتمع ، فرفضن المجتمع . وفرضن عليه ما لا يحب ولا يرضى من المعانى والعبارات . ولم ينتصر أحد . ولكن عاش الأدب . فالأدب أطول عمراً من الأديب والقارئ الرافض أو العاشق . .

فى الخمسينات تحمست للأديبة الفرنسية «فرانسوا ساجان» ، وكتبت كثيرا عن روايتها الأولى «مرحبًا أيها الحزن» . .

وعرفت الأديبة الإيطالية «داشيا مريانى» وروايتها الأولى «زمن الوسوسة» ، ودعوت إلى قراءتها وإلى الإعجاب والرفق بها !

وعرفت أديبة إسرائيل «يا عيل ديان» ، وروايتها الأولى «وجه جديد فى المرآة» ، وهى تحفة أدبية وفى غاية الجرأة . .

وعرفت الأديبة الإنجليزية «شيلا ديلانى» وروايتها الأولى «طعم العسل» . . وصفقت لها ودعوت كل فتاة وفتى أن يقرأ ويتأمل ويحب - لا أن يكره ويرفض . .

وعرفت أديبة لبنان «ليلى بعلبكى» ، وروايتها الأولى «أنا أحيا» . . الرواية طويلة جداً وفيها جرأة وعبارات خشنة . لايهم . ولكنه رأيها . . فهى قررت أن تلعن المجتمع الذى لعنها !

وعرفت أديبة سوريا «غادة السمان» ، وكتابها الأول : «عيناك قدرى» . . وفى الكتاب جرأة فى التعبير واختيار المعانى . . وفيه جمال وقوة ورفض لخوف الناس ، قبل أن يرفضوها . .

وعرفت «إلزه مورانته» وهى الروائية الإيطالية الشهيرة ، وزوجة الروائى الإيطالى «ألبرتو مورافيا» . . كما كانت «داشيا ماديانى» زوجته الثانية . . وعرفت روايتها الأولى «الجزيرة» وكانت عندها مشكلة أكبر منها . . فزوجها أكبر وأشهر ولكنها أديبة ممتازة . وتريد أن تفلت من جاذبية زوجها وشعبيته . . وفى الوقت نفسه تريد أن تكون وحدها شيئا ، حتى لو أدى ذلك إلى أن ترفض زوجها ، وتدعو الناس إلى ذلك . . فكانت هى الجزيرة التى يحيطها الرفض من كل مكان . . وعاشت وماتت أصعب من الرفض - رفضها هى للناس ورفض الناس لها !

وعرفت الأديبة «جاذبية صدقى» . . إنها مرفوضة لجرأتها . فليس فى زمانها أن تكتب المرأة وأن تطلع على الناس بكشف خفايا الرجل والمرأة . . فالكلام عن الذى لا يقال . ولكنها كأديبة هى طبيبة أيضا . ولم نعرف مريضا لم يكشف عن صدره وبطنه لطبيبه . .

ومهمة الأديبة أعمق من الطبيبة . . إنها تكشف ما تحت الجلد . . وقفت «جاذبية صدقى» تقول وتقول . . والرجال يستنكرون والنساء أيضا ولكنها لم تتوقف ورأت بحسها أنه لابد أن تقول المرأة وأن تقول . . وألا تنتظر الرجل حتى يجود عليها بالمعانى : وأن يكشف لها أعماق الرجل والمرأة . . أو أعماقهما معا . . وبدلا من أن يقرأ النقاد قصص «جاذبية صدقى» ، وأن يضعوها فى الإطار التاريخى اللائق بها . . كانوا يقرءون حتى يجدوا تعبيرًا جارحًا أو معنى فاضحًا ، ثم يرفضون ذلك . . ويرفضون أيضا . .

مع أن أحدًا لم يرفض أديبات أكبر وأشهر مثل : «مورج صاند» الإنجليزية ، والفرنسيات «كوليت ، وساروت ، ودى بوفوار» ، والبلجيكية «جوريس» وغيرهن . ولكن «جاذبية صدقى» وغيرها أثرن الرفض ومضين رافضات مرفوضات - المهم أنهن مضين .

وعرفت «نوال السعداوى» الطبيبة الأديبة . . وقد ظهر فى مصر أطباء أدباء وشعراء . . فلم يكن غريبا أن تصبح طبيبة أديبة .

فعندها كل أدوات العمل الأدبى . عبارة وفهم وقدرة على التحليل والتعبير . وانتقلت من إلقاء النار على مشاعر الناس إلى استفزاز الناس مستخدمة العبارة الجارحة والمعانى غير المألوفة . . إنها تريد أن توقظ الناس . المهم أن ينزعوا الغطاء عن عقولهم ويلقوها . .

المهم أن يفتحوا عيونهم وعقولهم ، وأن يقولوا شيئا . فقالوا : الله يلعنك !

وظهرت فى مصر «جويس منصور» ، ابنة التاجر اليهودى الكبير «داود عدس» . . ولكن زوجها رجل أعمال اسمه «أنيس منصور» - صدفة عجيبة ! وكانت شاعرة جنسيتها بريطانية وتكتب بالفرنسية . وكان قلمها بلا غطاء يشيع النار فى كل اتجاه . . ديوانها اسمه «صرخات» . وهى صرخات جسد معذب وروح أكثر عذابا . .

ولما ضاقت «جويس» بالناس وهى الفرنسية البريطانية الحرة المتمردة اتجهت إلى السياسة . واختارت أن تكون عضوا فى الحزب الشيوعى ، الذى يرفض كل شىء . . فبدلا من أن يرفضها الناس ، رفضت هى الناس متربعة على مذهب سياسى واقتصادى ، يؤمن به نصف الكرة الأرضية . . ماتت «جويس منصور» وعاشت صرخاتها تدوى فى كل مدارس الأدب !

عيب : إنهن بناتى !

لم أتمكن من أن أشرح له ، أن معلوماتى عن الخيول قليلة . . وأن المسألة من أولها لآخرها : ذوق . . فأنا أحب الجمال فى الخيول وفى النساء والطبيعة ، فذوقى قد ترقّى نهائيا ، أما معلوماتى فمن الممكن أن تزيد . . فقد كان فى نيتى أن أعتذر له عن هذا الذى طلبه منى ، وهو أن أكون عضو لجنة تحكيم فى اختيار الخيول الجميلة . وكان فى نيتى أن أسأله : كيف يقبل الناس شهادتى ولست خبيرا ، ولا ذا سمعة عالمية فى فهم الخيول ودراستها ، ومعرفة مواطن الجمال فيها . .

وقررت ألا أذهب دون اعتذار ، لأن صديقى هذا لايمكن أن يكون جادا . وإنما هو فقط رجل مجامل يريد استدراجى إلى مشاهدة الخيول الجميلة . فإن كان هذا ما أراد ، فلا مانع . ولن أترك هذه الفرصة . . وذهبت ووجدته فى انتظارى . وقبل أن أقول كلمة واحدة قال : المهم أنك جئت . ويمكن تسوية كل شىء آخر . فسألته عن المقصود بكل شىء . وفاجأنى بأن أكون عضو لجنة تحكيم «أهلية» . يعنى لجنة تحكيم من الأصدقاء ، وهم يتفرجون دن أن يدرى بهم أحد . وأنهم قد رصدوا جائزة أخرى غير الجائزة الرسمية .

فإن كان هذا هو المطلوب فلا مانع !

وقبل أن أكمل الحكاية أحب أن أقدم لك صديقى هذا . إنه أحد علماء الحشرات فى ألمانيا . وقد تخصص فى موضوع غريب جدا وهو «الفأر الليبى» . وقبل أن تتساءل : ولماذا «الليبى» ؟

أقول لك : إن الاختيار لم يكن قراره ، وإنما قرار مؤسسة الأدوية التى تنفق على هذه الدراسة . وقد ذهب صديقى هذا إلى حدود مصر وليبيا . وأمسك بمئات الفئران مختلفة الأشكال والأحجام والألوان . . وبعض هذه الفئران كان يسكن بالقرب من الألغام ، التى وضعها الحلفاء والألمان ، لتكون عائقا لتقدم الدبابات والمصفحات من الجانبين فى الحرب العالمية الثانية .

وكان هذا هو الجانب الأخطر فى البحث . ويقال : إن مؤسسة الأدوية الألمانية قد أعطته بعض الخرائط ، لكى يتسلل بين الألغام آمنًا مطمئنًا . وقالوا : إن عددا من الفئران قد اختارت هذه الأماكن ، للتزاوج لبعدها عن الناس . . أما التزاوج فيتم بين الفئران المصرية والليبية ليلا . ويمكنه إذا سار فى الليل أن يرى بريق عيونها . . وهنا يلقى شباكه عليها . . وقد فعل . . وتجمع له المئات . .

فما الموضوع ؟!

الموضوع أنه لسبب ليس معروفا ، فإن الفئران الليبية تهاجر إلى مصر ، تماما كما تلقى الفئران بنفسها بالملايين فى بحر السويد . لماذا ؟! لا أحد يعرف . ومطلوب من صديقى هذا أن يدرس وأن يحلل ، وأن يعرف ، وأن يطلع على عالم القوارض بنظرية جديدة ، تفسر ذلك السلوك العجيب . ودرس وحلل وكانت له نظرية شديدة التعقيد ، وهو التفسير الوحيد الذى اهتدى إليه . نظريته تقول : إن ذكر الفئران الليبى يعتدى على الأنثى بعنف حتى يسيل دمها ، فإذا سال فإنه يواقعها مواقعة الأزواج . . ويفضل لو أنها ميتة ! ولذلك تهرب الأنثى إلى الفأر المصرى الذى هو ألطف . . والغريب فى الأمر ، أن الأنثى هى التى تعتدى على الفأر الذكر المصرى ، فيهرب منها إلى ليبيا . . والذكور والإناث بين الفئران فى حالة هرب دائم بين مصر وليبيا !

نظرية مضحكة . ولكنها علمية !

وكان لقاؤنا فى ليلة بديعة . . موسيقى . . ووجه حسن . . فلما كان اليوم التالى . . جلست فى الصف الأول . . والتفت إلى صديقى أقول له : كيف تتحرك الخيول فى هذه المسافة الصغيرة . .

فضحك . قلت : لابد أنها خيول أقزام أتيتم بها من بلاد المغول . . إنها أحفاد خيول «جنكيز خان» !

وضحكنا والناس من حولنا . واتجهت إلى الأمام ، عندما أعلنت المذيعة الجميلة جدا عن بداية سباق الجميلات . . ووسط التصفيق الحار والصراخ والهتافات ، لم أستطع إلا أن أصرخ وأقول له : الله يخيبك! أين الخيول ؟! فكان رده : ومن الذى أتى بسيرة الخيول . . أنا لم أقل كلمة واحدة عن الخيول . . أنت الذى قلت الخيول . . أنت مجنون خيول . .

وطلبت تفسيرا ، قال : المسابقة هنا . . أنك تختار أجمل فأر . . ليس هذا فقط ، ، بل أجمل ساقين أيضا . .

ـ للفأر ؟

ـ للفتاة التى تقدم الفأر مربوطا بخيط حريرى وردى . . هذه هى المسابقة . . قلت : فهمت . . أنت تنظر إلى الفأر ، وأنا أنظر إلى الفتيات ، ما رأيك ؟

– يا رجل عيب . يا قليل . .

– ليه عيب ؟!

– إنهن بناتى . . وهذه زوجتى !

– ونظرت إلى الفئران وسباق الفئران ، وإلى الأرض إلى أن تنشق فتبلعنى . . ولكنها خذلتنى !

يكفى : ٤ سعوديين !

كان لابد أن يذهب الرئيس حسنى مبارك إلى السعودية للقاء خادم الحرمين ، وولى العهد الأمير عبد الله ، لكى يصلح ما أفسده الصحفيون ، فقد تعاونوا بلا عقل فى تعكير صفو البلدين بالمبالغات الخارجة ! وقد وضحت الصورة واختفى الضباب ، وعادت العلاقات صافية كاللبن . وكان لابد أن تعود . ففى صالح الدولتين والشعبين ، أن تكون الجسور ذهابا بالمودة والحب ، وإيابا بالمصالح المتبادلة . . ولو كان الأمر بيدى ، لطلبت إلى أربعة من السعوديين ، أن يتحدثوا عن أهمية العلاقة القوية بين البلدين . .

أولهم : الأمير بدر بن عبد العزيز ، الذى قال لى : أنا أحب مصر ، لأننى أحب السعودية . فكل تدعيم لمصر هو أمان للسعودية ، وكل أمان للسعودية ، هو كسب لمصر . . وفى صالح العرب جميعا أن تبقى علاقاتنا حميمة قوية . . وإن كانت هناك دول عربية تضيق بالعلاقات القوية بين مصر والسعودية . وقال لى : إنه من الواجب علينا أن نراجع أنفسنا أولا بأول ، حتى لاتصبح الحبة قبة ، من الأخطاء والكلمات الجارحة !

وثانيهم : د . سليمان فقيه ، صاحب المستشفى العالمى المعروف . فقد تعلم فى مصر وله أساتذة وزملاء ، و٩٠٪ من الأطباء فى مستشفاه من المصريين الذين يحبهم السعوديون ويستريحون إليهم ويرون الشفاء مؤكدا ـ بإذن الله ـ على أيديهم . ليس له شكوى منهم ، ولا شكوى لهم منه . والسعادة والنجاح هواء يشمه الجميع . .

وثالثهم : الشيخ حسين القزاز ، صاحب محلات العدا.. الشهيرة . وهى مزار كل رواد السعودية من السياح والحجاج . هذا الرجل تزوج مصرية وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وهى فى السادسة عشرة . وبدأ من الصفر ، ليكون له تسعة أصفار أمام الواحد وزيادة . . و٩٩٪ من العمال عنده مصريون ، فى غاية الكفاءة والأدب . وهو إن لم يقل شعرا فى مصر وأهلها ، وفى العلاقات بين البلدين ، فهو يؤكد هذه المعانى عمليا . .

ورابعهم : رجل الأعمال على شبكشى ، الذى تعلم فى مصر ، وتزوج فيها وله مشروعات ناجحة بها ، وصديق لمعظم القيادات السياسية والاقتصادية والصحفية أيضا . وكان الشيخ على شبكشى حزينا ، على التردى الذى لا مبرر له ، الذى بلغته العلاقات بين البلدين . .

ولابد أنه ـ كما إننا ـ سعيد بعودة كل شىء إلى ما كان عليه ، ونأمل أن يكون أفضل !

وهناك عشرات الألوف من رجال الأعمال والسياسة ، والاقتصاد ، وأساتذة الجامعات ، قد حزنوا كثيرا وعميقا على أن نتراشق فى مصر ، وفى السعودية بكلمات لاتتناسب إلا مع الأعداء وليس الأشقاء الأصدقاء .

مع أن البلد العربى الوحيد ، الذى لاتشعر فيه بالغربة : هو السعودية كيف تشعر بالغربة فى مكة والمدينة أمام الكعبة ، وقبر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ كيف تشعر بالغربة ولنا ولهم أقارب بمئات الألوف ، وأصدقاء بالمئات . . كيف تشعر بالغربة ، والناس من حولنا يتكلمون اللهجة المصرية فى الشارع ، وفى معظم المحلات التجارية؟ . . كيف تشعر بالغربة وعلى الشاشة الصغيرة ، كل ممثلى مصر ومطربيها ؟ . . كيف نكون غرباء فى بلاد ، ترى الخير فى صداقة مصر ، ونرى الخير فى

محبة السعودية؟ . . سألنى أحد المصريين فى حالة من الفزع ـ ومعه حق ـ : هل نحن بسبيل قطع العلاقة مع السعودية ؟

أعوذ بالله ! إنه معذور فى هذا الخوف . فقد قرأ وسمع ما أحزنه هنا وهناك . فاللهجة حادة . والنقد جارح . كأن شيئا من الأخوة والصداقة والحب والعطاء لم يحدث . هم أعطوا ونحن أيضا . هم وقفوا إلى جوارنا فى أشد الأزمات ونحن أيضا . وعيب علينا وعليهم أن يمسك واحد منا ورقة وقلما ، ويقول : تعالى نتحاسب . ماذا أعطينا وماذا أعطيتم ؟!

إن سياسة قطع العلاقات ، هى أسوأ ما تفعله الدول . هل هناك عداوة أعنف من التى بين أمريكا وروسيا ! بين أمريكا واليابان ، بين ألمانيا والحلفاء ، الذين مسحوها من الخريطة ؟ ولكن لا شىء اسمه قطع العلاقات . وإنما بقاء العلاقات من أجل مزيد من التفاهم وتضييق الخلافات ، والبحث عن سبل جديدة للتفاهم ، لأنه لابد من التفاهم بين الأعداء وبين الأصدقاء أيضا . أما قطع العلاقات ، فهذه آخر خطوة قبل اليأس التام ، عن أى إصلاح ! ولأن الناس فى السعودية وخارجها وفى مصر أيضا لايعرفون بالضبط ، ماذا حدث حتى انحدرت العلاقات إلى هذه الدرجة من السوء ، فنشطت مواهب الناس من اختراع الشائعات والحكايات . هذه الحكايات عن جرائم ارتكبها مصريون انتقاما من السعوديين . ولذلك بادرت مصر بتكذيب ذلك رسميا . وقال لى الأمير بدر بن عبد العزيز : إن هذه الجرائم التى ترددها الشائعات لم تحدث . وإنما هناك دول تروج لمثل هذه الشائعات وتدفعها وتدفع لها ، حتى تظل المياه راكدة عكرة بين الشعبين ! حمدا لله عادت البسمة إلى الوجوه . . وكانت هذه البسمة اعتذارا عن أخطاء الصحافة فى البلدين ، وتراخى الدولة فى توضيح كل ذلك وبسرعة !

يسقط الثالث
يعيش الخامس !

الدنيا اختلفت حول الأميرة «ديانا» وفضيحتها الكبيرة . رأى يقول : شريرة مجنونة ، ورأى يقول : شريرة نعم ، ولكن فى غاية الذكاء ، فقد مسحت الأرض بزوجها ، وأمه وعشيقته وزلزلت عرش بريطانيا . وبهدلت ولديها . . وهى تختار الوقت المناسب لكل فضيحة . . فهى هذه المرة قد اختارت سفر زوجها إلى ألمانيا فى عيد ميلاده ، وكان حديثها الذى جعله يمشى منكس الرأس !

وفى الحديث اعترفت بأنها خانت زوجها والبادى أظلم . لأنه خانها ولايزال يخونها مع الست «كاميلا» المطلقة . . وأنها مريضة بمرض اسمه البوليميا أى «الفجعنة» أى الشراهة الشديدة فى الأكل ثم النهوض بصورة عصبية من المائدة لتفرغ ما فى معدتها فى دورة المياه . . خمس أو ست مرات يوميا . . وكثيرا ما حدث ذلك فى أعظم الحفلات الرسمية ، وتفسير ذلك أنها معذبة ، وأن حياتها فارغة من الحب والحنان ، وأنها تملأ معدتها بالطعام . . وأن «العدو» فى حياتها هو الأسرة المالكة . . فهى ليست لها حماة واحدة بل عشرون واحدة . . إذا عملت شيئا إنسانيا جميلا بلعوا ألسنتهم جميعا . . أما إذا غلطت فإن أطنانا من الطوب يلقونها فوق دماغها . . ويقولون : إنها نصف مجنونة . . أو مجنونة . . عندها عقدة الاضطهاد . . أو مدمرة . . ولا أحد يقف إلى جوارها . . وزوجها يتهمها بالجهل والتفاهة . .

وهى غلطة الزوج الذى تزوج فتاة عمرها ١٩ سنة ، أى نصف عمره . . وهو قد علموه ودربوه على أن يكون ملكا . وهى دربوها على أن تكون مدرسة أطفال . . ثم إن أسرة والدها أعرق من الأسرة المالكة . . ولكن أسرتها ممزقة . . أبوها طلق أمها وتزوج ، وأمها تزوجت . وحياتها كانت مؤلمة . . وصارت مؤلمة مرة أخرى . . فهى فى حاجة أكثر إلى الحب والحنان . ولذلك لجأت إلى رجال آخرين . . هؤلاء الرجال اعترفوا بأنها قد استخدمتهم لإغاظة زوجها . . ولم تحب واحدا منهم . . وهى لاتختار إلا المتزوجين ، لتخريب بيوتهم كما خربت نساء أخريات بيتها ! وقالت فى حديثها مع المذيع الباكستانى «بشير» ، صاحب برنامج «بانوراما» فى هيئة الإذاعة البريطانية : إنها لاتريد الطلاق . . ومعنى ذلك أنها لاتريد أن تترك زوجها ولا تريده أن يتزوج «كاميلا» . ثم إن الكنيسة تمنعه من زواج امرأة مطلقة . . كما منعت عمه «إدوار الثامن» من زواج الأمريكية مسز «سمسون» ، فنزل عن العرش من أجلها . . واليوم تبهدله الصحف البريطانية وتؤكد أنه كان متعاطفا مع الألمان . وللعلم فإن الأسرة المالكة البريطانية ألمانية الأصل !!

وإن كان من السهل تطويع القانون لرغبات الأسرة المالكة . كما حدث ذلك عشرات المرات . ولكن «ديانا» لاتريد أن يكون زوجها الملك «تشارلز الثالث» . . وأن يكون ابنها هو الملك «وليام الخامس»! والناس تغلى فى كل مكان ولكن البرود الملكى كالجليد . . فالملكة «إليزابيث الثانية» ولا هى هنا . . ولا اهتزت لها شعرة بيضاء أو سوداء فى رأسها . . وعلقت على هذه الفضيحة بأنها مسألة داخلية بين زوج وزوجته ، وهو فضحها ، وهى فضحته وفضحت نفسها وبهدلت ولديها . . ولكن لا شأن للنظام الملكى

بذلك . . فقد عرف النظام ملكا مثل «هنرى الثامن» الذى قتل جميع زوجاته ـ فهى غلطة ملك وليست غلطة النظام الملكى !

وكأن شيئا لم يكن . فقد فكرت الملكة فى لقاء الأميرة ، وللاتفاق معها على دور رسمى لمستقبلها ، باعتبارها زوجة ولى العهد ، وقد تكون ملكة أو يكون أحد ولديها ملكا . وطلبت «ديانا» أن تكون سفيرة لبلادها . وقامت بأول دور لها كسفيرة ، فى مهمة تذويب الجليد بين الأرجنتين وبريطانيا ، بسبب حرب جزر فوكلاند ، التى حاولت الأرجنتين استردادها فانتصرت عليها بريطانيا . . وقد استقبلها الرئيس «كارلوس منعم» ، وكان عشاء وكلاما وسلاما . . والصحف الأرجنتينية اعتادت على تقديس المرأة الشجاعة . . ولا يهمها ماضيها . . كذلك فعل شعب الأرجنتين مع «إيفا» زوجة الرئيس «بيرون» . . وسوف يفعلون ما هو أكثر من ذلك مع «ديانا» ، هى التى هزت قلوب مئات الملايين . . لا بالذى قالته ، ولكن بالطريقة التى تحدثت بها . . والدموع فى عينيها !

وإذا كان الأمير «تشارلز» لم ير من «ديانا» إلا أنها «عيله» ، فإنه لو رآها فى البرنامج فسوف يجد أنه أمام امرأة ناضجة وذكية وعفريتة . . وقد تدربت على ألاعيب الأنوثة ، فى تحريك عينيها وشفتيها . . والزوايا التى قدمتها للكاميرا . . وقد اتفقت مع المصور على أن تكون صورها من الأمام لا صور جانبية ، لأن أنفها كبير جداً! وقال المصور : إنها طلبت منه أن يركز على حركات وعلى أماكن من جسمها . . إذاً هى الآن تعرف ما الذى يغرى ، وما الذى يثير وما الذى أثار . . وهى على استعداد لأن تغفر للأمير لو عاد إليها ـ وإن كان من المستحيل أن يعود أو تعود هى !

يعنى إيه ؟

انقسم الشعب البريطانى إلى ربع وثلاثة أرباع . . ربع ضدها ومع الأمير ، والباقى معها هى . . ولكن الأمير هو الأقوى . . فهو ابن الملكة ، وهو ملك الغد لو أراد ! ولا تزال كل الخيوط فى يديه . . وهى تقوم بدور رد الفعل العنيف والدفاع عن نفسها . ولكن هذه العلاقة بينها وبينه انقطعت إلى الأبد . . وإن كان لا أحد يعرف ما الذى سوف تفعله «ديانا» بعد ذلك ، علينا أن ننتظر وأن نتسلى !

من هو المجرم الكيميائى ؟

الكرة الأرضية اهتزت ، عندما رأى الناس بعض الطيور ، تخوض فى أوحال البترول على شاطئ الكويت . وتموت . وسارع العالم إلى إنقاذ هذه الطيور المسكينة . . ولم يتصور الناس أن هذه هى البداية السوداء للعدوان على الكويت . . وأنه بعد نسف آبار البترول ، سوف تنفتح أبواب جهنم بإحراق البترول ، وإطلاق سحب سوداء ، تبقى شهورا فى سماء وأرض الكويت . . ولأنها تحول بين الناس والشمس ، فإن درجة الحرارة تنخفض والرياح الجهنمية تشتد . . ويحار الناس بين برد السماء وجحيم الأرض . . وكل ذلك كان مقدمة للحرب ، التى استخدم فيها العراقيون ، والأمريكان ، والإنجليز مواداً كيماوية! العراقيون استخدموا أسلحة كيماوية وميكروبية ، للقضاء على الشعب الكويتى فى «أم المعارك» . . المعركة التى كانت هدفها القضاء على كل أم وكل ابن . . وانحسرت الحرب . . وسكتت الأسلحة . وبدأت الميكروبات نشاطها فى القوات التى حاربت . . فلاحظ الإنجليز أن جنودهم مرضوا وليس لهم علاج ، ولا أحد عرف لهم تشخيصا ، وأن أطفالا صغارا يولدون ليموتوا بعد أيام . . وأن أطفالا لجنودهم قد ولدوا بلا أذرع ولا سيقان . . وأن أطفالا ولدوا بقلوب أكبر من أجسامهم ، فكان لابد من زرع قلوب أخرى تناسب سن الطفل . .

وبذلك يموت الطفل سليما متناسب الأعضاء! . . ولا أحد يقول فى أميركا شيئا ولا فى بريطانيا . . ولكن زوجات الجنود وعائلاتهم يطالبون بالتحقيق فورا . وأمام الجميع مشكلة غريبة : قوات الإنجليز قد استخدمت مواداً كيماوية لحماية الجنود من الأسلحة الكيماوية . واستخدموا مبيدات كيماوية أيضا لحمايتهم من الأمراض والحشرات . ثم أعطتهم أيضا حبوبا لمنع الصدمات العصبية . وهذه الكميات الوقائية كثيفة ومن الصعب احتمالها . . ثم أضيفت لها الأسلحة الكيماوية والميكروبية التى استخدمها العراقيون . . ويقال : إن الأمريكان أيضا قد استخدموا أسلحة كيماوية ، كالتى استخدموها فى فيتنام للقضاء على العراقيين . ومعنى ذلك أن قوات الحلفاء قد غرقت تماما فى بحار كيماوية وقائية ومرضية . فمن هو الفاعل يا ترى؟! : هل هو الأميركى والبريطانى الذى استخدم السموم للوقاية؟ أو هو العراقى الذى استخدمها للقتل؟ لقد اختلطت المواد الكيماوية فى دماء الجميع ، وأكلت الكريات البيضاء والحمراء ، وشوهت الأجنة فى بطون أمهاتها . . وشوهت الأطفال عند ولادتها ؟!

إن هذا يذكرنا بما حدث بعد انفجار المفاعل النووى فى «أوكرانيا» فى «تشيرنوبل» . فبعد هذا الانفجار تلوث الهواء سنوات وتلوثت الأرض إلى عشرات السنين . ولكن ظهرت النتائج بسرعة فى النباتات ، التى اتخذت أشكالا عجيبة . . وكذلك الحيوانات التى ولدت برءوس وسيقان وعيون كثيرة . . والأطفال الذين كانت لهم ألوان : أزرق وأحمر وأخضر . . والشعر أبيض وعين زرقاء وعين خضراء . . وعين فى الوجه وعين فى القفا . . وسيقان لها شكل سيقان الحيوانات .

لقد أدى انفجار «تشيرنوبل» ، إلى خلل فى تكوين الخلايا . . خلل لا سلطان لأحد عليه ـ على عكس ما يحدث فى تطبيقات «الهندسة الوراثية» عندما يقوم العلماء ـ عن قصد ـ بإعادة ترتيب مكونات الخلايا ، فيؤدى ذلك إلى سرعة نمو النبات أو الحيوان أو قصر عمر المرض . . أو تغيير لون ريش الطيور ، وزيادة وزن ، وطول ، وعرض الأسماك . . أو ظهور القطن الملون أو الفواكه بلا بذور . والخوف من «الهندسة الوراثية» أن يقوم طبيب مجنون ، أو دكتاتور سفاح بتغيير التراكيب الوراثية ، بتخليق وحوش ضارية أو تخليق أقزام . . أو تحويل السود إلى بيض أو البيض إلى سود . . وهذا بالضبط ما تفعله الإشعاعات النووية التى لا سلطان لنا عليها . . فلا سلطان لنا على ماحدث فى جنود الحلفاء فى معركة «عاصفة الصحراء» . . وإن كانت جريمة العدوان على الكويت جريمة مستمرة . . مستمرة النتائج النفسية والجسمية والاقتصادية أيضا . فهى حرب إجرامية من الصعب نسيانها . . أو التهوين من أثرها اليوم وإلى مائة عام قادمة !

أذكر أننى عندما كنت فى «أوكرانيا» قيل لى : أنت الآن على بعد مائة كيلومتر من «تشيرنوبل» !!

ولايمكن أن أصف لك الرعب الذى أصابنى . ولم يهدئ من خوفى أننى رأيت الناس أمامى وورائى فى غاية الصحة والعافية ، وأن الفتيات الصغيرات فى قمة الجمال . .

هل تعلم ماذا فعلت ؟!

أمضيت يوما كاملا لا أشرب ولا آكل . . لا ماء ، ولا سوائل ، ولا فاكهة ، ولا خضراوات . ولو استطعت أن أؤجل تنفسى ٢٤

ساعة لفعلت . . وبسرعة رحت أراجع كل معلوماتى عن المواد التى يتعاطاها الإنسان ، والتى تساعد على النشاط الإشعاعى فى داخله . . ثم إننى نزعت ساعتى ونزعت حزام البنطلون . فالساعة ذهبية والحزام به معدن . . ومن شأن هذه المعادن أن تعكس بقايا الإشعاع من الجو إلى جسمى . . هذه إلى قلبى وذاك إلى معدتى . . وبدلا من أن أعود إلى العاصمة «كييف» فى سيارة فخمة ، ركبت سيارة لورى كلها خشب فى خشب! وكلما تذكرت ذلك تولانى فزع . . فأنا «موسوس» ومعلوماتى عن الأضرار النووية قليلة !

انقضوا على .. مائدة الرحمن !

كنت مكلفا من وزارة الثقافة بمرافقة وفد من الأدباء والفنانين . وشاءت الصدفة أن يكون ذلك فى شهر رمضان الكريم . أكثرهم جاء إلى القاهرة لأول مرة . . ولم يروا رمضان وبهجته والحفاوة به . . والناس طول الليل فى الشوارع . . وينامون طول النهار أو معظمه . ويقدر ما يأكل الناس كثيرا يعملون قليلاً . وعلى الرغم من أنه شهر الصيام ، فإن الطعام الذى نضعه على موائدنا أضعاف أضعاف ما اعتدنا أن نضعه فى غير رمضان . . فعلى المائدة الساخن والبارد والحلو والحريف والطرشى ، واللحم والسمك والفول المدمس والأرز والمكرونة والخبز الطازج . . والقطايف والكنافة وقمر الدين . .

ولما اقترحت على هؤلاء الأدباء أن أدعوهم إلى بيتى ، اعترضوا وأخرج كل واحد ورقة من جيبه .

واحد قال : أريد أن أتناول الكشرى .

وواحد قال : كباب وكفتة . .

وواحد قال : لحمة رأس . .

وواحد قال : كوارع وممبار . .

وكلهم يريدون أن يأكلوا الملوخية والفتة بالخل والثوم . .

ولم يسعفنى المنطق فأقول لهم : إن هذا كله موجود . . ولكنه . .

ووقفت الكلمة فى حلقى : فقد كان فى نيتى أن أقول : إن هذا كله طعام لذيذ . . وأن من يتناول كل هذه الأطعمة فقل عليه : يا رحمن يا رحيم !

وأمام إصرار هؤلاء الضيوف ذهبت إلى أكبر مطعم فى سيدنا الحسين ، حيث تحتفل القاهرة كلها بكل ليالى رمضان . . فالصلاة فى مسجد سيدنا الحسين من أهم طقوس رمضان . . وشراء الخبز والبصل والفجل والجرجير . . أما اللحوم ومشتقاتها : ففى جميع المطاعم . .

وناديت الجرسون وقلت له : نحن عددنا كبير ولنا طلبات مختلفة جدا . . وهؤلاء هم ضيوف الدولة . .

فقال : كل الوفود الرسمية تجىء إلينا . . فلا تشغل بالك . . كم عددهم ؟ .

- عشرة . ولهم مطالب غريبة .

- إن شاء الله يطلبون لبن العصفور . . كل شىء موجود بفضل الله . . وكل سنة وأنتم طيبون .

وأعطيته ورقة بها كل المطالب الغريبة . ولم يكد يراها حتى قال : بسيطة جدا . وسوف نضع إلى جوارها السلاطات والبصل والذى منه . . لاتشغل بالك !

وتركنا المطعم لنتفرج على مسجد سيدنا الحسين رغم الزحام الشديد . . ودخلنا بضع خطوات ثم عدنا لصعوبة الحركة ولاقتراب موعد أذان المغرب والصلاة . .

ولم نكد نقترب من المطعم حتى وجدنا الجرسون قد وضع لنا مجموعة ترابيزات فى قلب الميدان وحولها المقاعد . . وعلى الترابيزات كميات كبيرة من اللحوم والكشرى والطرشى والفتة

وأكواب من سوائل حمراء من الشطة والنعناع أو الجرجير . . وزجاجات من الكوكا وعصير البرتقال وقمر الدين . . وإلى جوارنا ترابيزة وقد تزاحمت فيها الكنافة والقطايف والبسبوسة . .

وخرجت الكاميرات من حقائب الضيوف وراحوا يصورون المائدة . . والموائد المجاورة . . ثم جلسوا يأكلون بأيديهم وبالملاعق . . وينظرون إلى الناس حولهم ويقلدونهم فى تمزيق اللحوم وتناول الفتة والمشروبات . . وهم لا يلاحظون أننى آكل الخبز فقط ـ أى : لا أجد ما أتناوله لأننى لا آكل اللحوم . ولم أذقها فى حياتى . .

وفجأة وجدنا عددا من الناس الطيبين يهجمون على الطعام ويمدون أيديهم . وقد ظنوا أن هذه المائدة من موائد الرحمن . . أى الموائد التى يضعها الناس الطيبون لكل صائم فى رمضان المعظم . . ولم تمض سوى دقائق حتى اختفى الطعام كله . . والضيوف فى دهشة لما حدث . . وأنا لا أجد ما أقوله . . فلم يكن فى حسابى أن يتصور أحد أن هذه مائدة عامة لكل الناس !

وحاولت أن أفسر وأبرر بأن هذه من عادات الناس هنا فى رمضان . . وأنها عادة عربية إسلامية صحيحة . . وأننا عندما كنا فى رمضان فى مكة ونصلى فى الكعبة . نجد أطباق التمر . والناس يقدمونها بعضهم لبعض . . ثم يصلون أولا ، ويفطرون بعد ذلك . . وبعض الناس يأتى معه ببعض (السمبوسك) الذى هو نوع من العجائن محشوة باللحم . .

يعنى ما حدث طبيعى جدا . . فليس هؤلاء الناس الطيبون قد خرجوا عن حدود الأدب واللياقة . . وإنما هو رمضان الكريم مع كل الناس . . والكريم على كل الناس . .

والحقيقة أن الذى حدث لم يقع لأية مائدة أخرى ولكنهم وجدوها كبيرة عريضة طويلة فخمة فظنوا أنها مائدة السيد الرئيس

أو أحد أصحاب الملايين . . أو أنهم تظاهروا بذلك . . لقد اختفى الطعام كأن مليون جرادة قد هبطت فجأة وحملت كل شىء فى أقدامها وطارت بعيدا فلم نرها ولم نرهم ، ولا الطعام ولا الشراب ولا الضيوف . . فقد سقط واحد منهم مغشيا عليه بسبب الشطة أو بسبب الطعام الكثير الذى تناوله أو هو سقط تحت أقدام الصائمين . . وتعالت الأصوات بالألمانية والفرنسية والإيطالية . . ومعناها : نريد الإسعاف . . نريد طبيبا !

الإسعاف ؟ والطبيب ؟ أثناء الإفطار فى شهر رمضان وفى حى سيدنا الحسين ؟! ، حتى لو مات هذا الضيف فكأنه مات يوم القيامة !

يا ناس يا هوه . . دكتور . . يلحق هذا الخواجة ضيف الدولة قبل أن يموت . . من يسمع ومن يرى؟! فساعة البطون لا عيون ولا آذان . . ومن يملأ بطنه ويرى أو يسمع كلمات أجنبية لايدرى لها معنى؟! . .

وتعاونا على حمل الرجل الذى سقط فاقد النطق . ونسأله فلا يرد . . ونحركه فيحرك عينيه . . ونتساءل ماذا أكل ، ماذا شرب؟ يا نهار أسود عليه وعلى الذين أتوا به إلى القاهرة ، ليكون فى رعايتى وعنايتى . . أنا دون العشرين مليونا الذين تضج بهم القاهرة فى رمضان !

وأمضينا الليل كله فى مستشفى قصر العينى . .

وسألت الطبيب : ماذا حدث يا دكتور ؟

ـ لقد تعاونا جميعا على تفريغ الطعام الذى فى معدته ، لقد أكل ما يشبع خمسة من الرجال صائمين . . ثم لاتريده أن يموت . . الحمد لله أنقذناه فى آخر لحظة !

وأردف : وأنت مالك . . أنت أصفر اللون كده ليه ؟

ـ وهل نسيت يا دكتور هذا الذى حدث ؟! ثم إننى لم أجد شيئا أضعه فى فمى !

وأفطرت في الكرملين !

في طريقنا إلى هافانا عاصمة كوبا ، كان لابد أن نتوقف في موسكو . وكان الوفد المصري برياسة المرحوم «يوسف السباعي» ، يضم عددا كبيرًا من الشيوعيين يتقدمهم «خالد محيي الدين» زعيم حزب التقدم . وكنا في رمضان . والجليد شديد كثيف . ودرجة الحرارة تحت الصفر بعشرين درجة . ولم نستعد تماما لهذا النوع من الشتاء . فأحذيتنا عادية جدا . ولذلك كان هناك نوعان من السيرك في مدينة موسكو : السيرك القومي والوفد المصري الذي يتزحلق في الشوارع وعلى الجليد . ويتوقف الروس ليضحكوا ، وربما كانت هذه هي الابتسامة التي أدخلناها على شتاء سنة ١٩٦٤! وكانت حفلة العشاء ـ الإفطار ـ في الكرملين . وكانت الموائد طويلة جدا . وعلى المائدة كل أنواع الشراب على اليمين وعلى الشمال . أما الذي نعرفه فهو الأصفر البرتقالي ـ قمر الدين ـ الذي أتى به الشيوعيون من مصر ليؤكدوا لنا أن الروس يعرفون كل عادات الشعوب ويحترمونها ! أما جاري فسألني : أنت صائم صحيح ؟

قلت له : نعم .

– يعني مفيش كلام تاني ؟

– لا .

– إنت حر .

– هذا مؤكد . .

ونظرنا بعضنا إلى بعض وتساءلنا : إن كان المدفع قد انطلق في القاهرة . فلم يرد أحد . .

وتعالت أصواتنا نسأل عن فروق التوقيت بين القاهرة وموسكو . . ونهض بعضنا وراح يصلي في أي اتجاه لأن أحدا لايعرف القبلة . .

وكانت الدهشة عامة : إن المسلمين يصلون في مركز الإلحاد والمؤامرات في الكرة الأرضية . والعجيب أنهم رغم إسلامهم هذا ، شيوعيون أيضا ! كيف ؟ هذه حكاية طويلة . .

وبعد أن صافح المصلون بعضهم البعض : حرما . . حرما إن شاء الله جميعا !

أشاروا لنا أن نفطر أول وآخر مرة في الكرملين !!

وتساءلنا : إن كان اللحم الذي أمامنا هو لحم الخنزير .

سألني جاري ، قلت له : لحم خنزير . . لحم حمار . . أنا نباتي لا أعرف الفرق بينهما ! وكان الطعام عاديا جدا . . ليس هناك شيء واحد يدل على أننا في رمضان ، حتى قمر الدين ، لم يكن كذلك . . إنما هو برتقال قديم . بعض الزملاء يقولون : إنه فاسد .

وفي الطائرة من موسكو إلى كوبا لكي نحضر (مؤتمر القارات الثلاث) كان لابد أن نمر بالدائرة القطبية الشمالية . وأن نتوقف عند مدينة «مرمنسك» والطائرة كبيرة ونصعد إليها بسلم مرتفع جدا . والطائرة مظلمة ولاتكاد ترتفع في الجو حتى نسمع بلغة إنجليزية ركيكة : يمكنكم أن تناموا . . وتنطفئ الأنوار . .

والكلام كئيب وصوت الطائرة لعين . وأريد أن أشرب . . أن أكل ، فقد انتصف الليل وزيادة . أريد أن أتناول ولو لقمة خبز وقطعة من الجبن . . وأشرت بيدي إلى المضيفة الطويلة جدا .

قلت لها : تتكلمين الإنجليزية فقالت : نييت ـ يعنى لا . .
قلت : الألمانية ؟
– نييت !
– الإيطالية ؟
– نييت .
قلت : يولبلو ـ أى أحبك !
– قالت : نييت
قلت : يولبلو (وأشرت إلى صدرى بما معناه أننى أنا الذى أحبها ، وليست هى التى تحبنى) .
فقالت بالإنجليزية : أنت كذاب !
قلت : هذا صحيح . ممكن أشرب كوبا من الشاى ربنا يخليك ويسترك ويعيدك إلى الأرض سالمة ، ويدخلك الجنة مع المسلمين يا رب يا كريم !
– وأشارت بيديها الاثنتين بما معناه أنها لاتفهم ما أقول . فتركت مقعدى وذهبت وراءها . فوجدتها مع مضيفة أخرى تلعبان الشطرنج . . وأمامهما سندوتشات اللحم والجبن . . فأشرت إلى السندوتشات أن آخذ واحداً فنهضت بسرعة وقد تهلل وجهها وتركت لى مقعدها . وظنت أننى أريد أن أحل مكانها فى لعب الشطرنج . . ووقفت تتفرج . ولم أكن لاعبا بارعا . ولكننى ألعب ومن المؤكد أننى لا أرقى إلى مستوى الروس الذين لايجيدون إلا هذه اللعبة التى تناسب الشيوعيين ، فليس فيها كلام . . ولا زى ولاتغيير ولا سياسة ولا دين ولا أدب !
وقرأت اللوحة التى أمامى وحركت (حصانا) . . ثم حركت فيلا . . وتساقطت الاثنتان من الضحك . ولم أفهم . ونظرتا إلى :

إن كنت على يقين مما فعلت . وأشرت أن هذا قرارى . . فما كان من المضيفة إلا أن مدت يدها إلى رقعة الشطرنج وقالت : كش الملك !
ومات الملك إلى الأبد !
فقلت : نلعب من أول وجديد !
ومنتهى الأمانة ضحكت الفتاتان كما لم تضحكا من سنوات . . أما سبب الضحك فهو أننى لا أعرف كيف أفكر كثيرا إلا فى الحركة الأولى . . ولكن الثانية والثالثة والرابعة فلا أستطيع . ولذلك كان الملك يموت كل خمس دقائق . . وكان موته أبدياً . لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا أعمل جاهدا على إضحاكهما . وفجأة وقفت واحدة كأن عفريتا لدغها وأضاءت كل أنوار الطائرة وأعلنت بالإنجليزية : هذا موعد الإفطار فى موسكو . وكانت الدنيا مظلمة تماما .
ولم أسأل نفسى : إن كان تناول الطعام الآن يبطل صيامى .
وسألتنى إن كنت سأفطر . أو سأواصل الصوم . فوجدت أننى على سفر طويل لا أعرف الليل من النهار . فقررت أن أفطر على طول . .

نساء متوحشات حول عبقري مشلول !

أما العبقرى فهو العالم الفيزيائى «ستيفن هوكنج» ـ ٣٥ سنة ـ فيصفه العلماء بأنه أينشتين هذا الزمان .

أبوه كان سائق تاكسى . ولم يكن طالبا ممتازا . وإنما كان طالبا عنيدا . عنده أفكار غير مفهومه . وكانت متعته أن يصنع العقول الإلكترونية من أجهزة الراديوهات القديمة أو المسروقة . وكانت عنده قدرة فذة على حل المسائل الرياضية من الذاكرة . ولكن هذه القدرة الفذة لم تعد لها أية قيمة بعد اختراع الحاسبات الإلكترونية أو (الحاسوب) كما يقول غير المصريين . .

وهذه البراعة فى الخيال والتهجم على القضايا المعقدة فى الفيزياء والكيمياء والفلك . جعلته أستاذا فى جامعة كمبريدج ـ أصغر أستاذ يجلس على كرسى العبقرى الإنجليزى نيوتن .

وفجأة أصيب بالشلل . شلل من نوع ملعون يجعل صاحبه يعيش سنتين على الأكثر ، ولكنه عاش بعد الإصابة ثلاثين عاما ، تزوج فيها من مدرسة لغة إنجليزية أنجب منها ثلاثة من الأبناء . والشلل هو فى المراكز العصبية الحركية . فلم يعد قادرا على الحركة . ولذلك كان لابد أن تدفعه الزوجة على كرسى ذى مقاعد إلى الجامعة ذهابا وإيابا . ثم أصيب بشلل فى النطق . فلم يعد قادرا على الكلام أيضا .

واستطاع رجل عالم اسمه دافيه ماتسون أن يخترع له جهازا إلكترونيا لتركيب صوته وجعله مسموعا ، صوت بلا حروف ، وكانت زوجته وحدها هى القادرة على تفسير ذلك . .

وزوجته هذه شربت المر أشكالاً وألوانا فى إدارة حياة هذا العبقرى المشلول المتكوم دائماً فى مقعد أو فى سرير . . فكل يوم تحمله وتضعه فى دورة المياه وفى البانيو . . ثم تمضغ له الطعام ساعة وساعتين حتى يتمكن من ابتلاعه ولمدة ٢٦ عاماً . .

وفجأة ظهرت فى حياة العبقرى امرأة أصغر سنا ، لقد استأجرتها الزوجة لكى تساعده . . إنها زوجة الرجل الذى اخترع له الجهاز الإلكترونى للصوت . . وظلت تقترب وتقترب حتى أعلن العبقرى المشلول إنه سوف يطلق زوجته ويتزوج هذه السيدة الشابة . .

ومنذ أيام تم للعبقرى أن يتزوج السيدة الأخرى ، التى هجرت زوجها . . ورفض أولاده أن يحضروا حفلة الزفاف !!

ولكن لماذا ؟

تقول الزوجة الأولى : لأنه الآن أصبح مليونيرا بعد أن أصدر كتابا اسمه «تاريخ موجز للزمن» ، باع منه حتى الآن ٢٥ مليون نسخة . . وكسب من وراء ذلك خمسين مليون جنيه . . فهذه السيدة الثانية أرادت أن ترث نصف هذ المبلغ على الأقل !

وقالت الزوجة الجديدة : إن حياتى كانت بلا معنى . فأردت أن أجعل لها معنى . وأن أكون خادمة لهذا العبقرى ، فهذا عمل إنسانى رفيع المستوى . وكان من الممكن أن أتخذ عشيقا ، كما فعلت زوجته الأولى وأتظاهر أمام الناس بأننى قد ضحيت بحياتى من أجله !

وتقول الزوجة الأولى للزوجة الثانية : أنت لاتعرفين أنواع العذاب والبهدلة التى سوف تواجهك مع هذا العبقرى المليء بالمرارة والحقد على كل الناس وعلى الحيوانات . . لقد قال لى مرة : لاأريد كلابًا فى البيت . . إن لها أربع أرجل وليست لى رجل واحدة . . وهى بأرجلها الأربع تجرى فى الحديقة وأنا بخيالى أرتاد الكون العظيم . . أى انتقام أقسى من ذلك . . ولو كان عندى نصف عقلى وساق واحدة لكلب لأسعدنى ذلك . . وقال لى مرة : وأنت ماذا تفعلين بيديك ورجليك؟ . . إننى لم أعد أحرك إلا إصبعين فقط من أصابعى العشرة !

وقالت الزوجة الجديدة : من أجل هذا كانت حياتى لاتساوى شيئا إلى جوار حياته . . بل حياتى لها معنى واحد . . أن تكون فى خدمة هذا العبقرى المحروم من كل شىء فى هذه الدنيا . . إن حياتى وحدها لاتساوى شيئا ، ولكن عندما أسخرها لحياته ، يكون لها معنى تاريخيا ! وأنا أنقذت العبقرية من براثن الأنانية!

وتقول الزوجة الأولى : ولم يكن هذا رأيك قبل أن تصبح لديه هذه الملايين . . إنك تعشقين سيدين فى وقت واحد : الرجل وفلوسه !

أرجوك أن تصدقنى !

يجب أن يموت كل الأزواج لتعرف الزوجات قيمة هذا الرجل المسكين !

***

أنا لا أكره زوجتى ، وإنما أكره كل النساء بسبب زوجتى !

***

أبونا آدم لم يتزوج حواء ، ولا كان فى نيته ، وإنما هو نام وقام فوجدها إلى جواره !

***

الرجل الذى يتزوج أكثر من مرة ، ليس إلا كارها للزوجة الأولى!

***

هاتوا لى زوجة واحدة لاتشتم زوجها فى غيابه . .

هاتوا لى زوجة واحدة لم تقل : إن زوجها نشف ريقه من أجل أن يصل إلى طرف فستانها . وأنها لم توافق عليه وأن قلبها كان (حاسس) بأنه ليس هو الرجل المناسب !

***

هاتوا لى رجلا واحدا يتحدث عن عيوب زوجته من ورائها . .

هاتوا لى رجلا واحدا يحرج زوجته أمام الناس وكلما سمعها تحكى حكاية أكملها وأخجلها ـ ولا واحد !

***

هاتوا لى زوجة واحدة انفتحت لها (طاقة القدر) ولم تطلب من ربنا أن يختارها إلى جواره ـ أقصد حماتها طبعا !

***

الحياة من غير المرأة أجمل وأهدأ وأروع ـ كلمة حكيمة قالها رجل تزوج سبع مرات !

***

أعرف الرجل الوحيد الذى لم تشتمه زوجته ولا مرة واحدة ـ يرحمه الله ـ فقد مات فى ليلة الدخلة . . فلم يعط زوجته الفرصة لكى تلعن الأيام والليالى التى عاشتها معه !

***

هناك نوعان من جهنم : واحدة فى الآخرة . . وواحدة فى الدنيا : المرأة !

***

المرأة هى (الاسم الحركى) لكل أنواع العذاب والهوان فى الدنيا . .

***

الحمد لله ـ قالها رجل من كل قلبه عندما قتل زوجته ، وألقى السكين الدامية على الأرض وهو يقول : لقد انتظرت عزرائيل طويلا ، فلما نفد صبرى قمت بدور عزرائيل !

***

هاتوا لى زوجة واحدة لم تقل عن زوجها : إنها هى التى خلقته ، وأنها هى التى جعلته بنى آدم . . وأنه كان شريدا فجعلت له بيتا ، وعائلة وأولادا وجعلته محترما بين الناس !

***

عندما نصف المرأة بأنها كالقمر فنحن صادقون . . لأن القمر له وجهان . . واحد تراه والآخر لا تراه إلا عندما تصاب المرأة بالغرور والغيرة !

***

يقول اليابانيون :

أفضل أن تعفو وتنسى ، من أن تكره ولا تنسى !

***

مهما كان الإنسان ضعيفا ، فصداقته أفضل ألف مرة من عداوته !

***

الكراهية سهم يرتد إليك أعنف من انطلاقه وإصابة الآخرين !

***

إذا أردت أن تكون تعيسا ، فاكره شخصا واحدا على الأقل !

***

الكراهية : مادة كاوية تفسد الإناء الذى تضعها فيه ، أكثر من الإناء الذى سوف تنقلها إليه !

***

الصينيون يقولون :

الحياة قصيرة ، فلا وقت عندنا لكراهية أحد !

***

الكراهية هى التلوث المستمر للفكر !

***

الهنود يقولون :

إن أشعة الحب قادرة على قتل ميكروبات الكراهية وفيروسات الحقد وسموم الحسد !

***

صعب جدا أن أكرهك إذا كنا نحن الاثنين نعبد إلها واحدا !

***

نفرض أننى أكرهك وأنك تكرهنى ، وأنه لا أمل فى النسيان . . فمن أجل أى شىء نعيش فى هذه الدنيا ؟!

الذين يريدون أن يذهبـوا إلى الجنة ، يجب أن يكون عندهم وقت لدراسة الطريق إليها !

* * *

إذا كان الدين لايغير السلوك فى الحياة ، أفضل أن تبحث لك عن دين آخر !

* * *

كثير من الناس يقومون «بتفصيل» القيم الروحية على قدر احتياجاتهم !

* * *

أسهل للناس أن يدافعوا عن الدين وأن يموتوا فى سبيله من أن يعيشوا وفقا لمبادئه !

* * *

كيف تطلب من الناس أن يتفقوا على قيم أخلاقية واحدة ، وأنت تعلم أنهم لايتفقون على أى شىء آخر ؟!

* * *

الدين كالموسيقى : أنت لاتدافع عنها ، وإنما تعزفها وتسبح سعيدا فى معانيها !

* * *

إن القيم الروحية التى لاتستحق أن تصدرها إلى الخارج لاتستحق أيضا أن تعيش بها فى الداخل !

* * *

بعض الناس ينظرون إلى الدين على أنه (مظلة واقية) يلجأ إليها عند الهبوط الاضطرارى !

* * *

أعظم حركة انتقال : هى أن تنقل الدين من لسانك إلى يدك !

* * *

الدين ليس مصباحا تحمله فى يدك ، وإنما هو نور فى قلبك !

* * *

الفرفشة تجعلك تنسى الهموم ، الدين هو الذى يجعلك تتغلب عليها !

* * *

الدين كالبنوك : لاتحصل منها على فوائد إلا إذا كانت لك أموال مودعة فيها !

* * *

بعض الناس ينظر إلى الدين على أنه ساق خشبية تساعد على المشى ولاتشعر لا بالبرد ولا الحر ، ولا هى جزء من جسم الإنسان . . الدين يداك وساقاك وقلبك وعقلك معا !

* * *

بعض الناس ينظر إلى الدين كما ينظر إلى الزوجة بإهمال ولا مبالاة ويكتفى بأن يقول لنفسه : إنها هناك والسلام !

التاريخ يسجل ذكاء الإنسان أو افتقاده إلى ذلك !

* * *

صعب أن نتعلم التاريخ ، أصعب أن نستفيد منه !

* * *

أحسن مكان لدراسة التاريخ ومعرفة كيف يرويه الإنسان هو : قاعات المحاكم والسجون !

* * *

لماذا يكرر التاريخ نفسه ؟ لأن الناس فى المرة الأولى لم ينتبهوا إلى ما يقولون وما يقال لهم !

* * *

فى كل التاريخ لم يوجد إلا إنسان واحد استحال الاستغناء عنه : آدم !

* * *

نصف التاريخ : شائعات . . والنصف الثانى : ظلم !

* * *

التاريخ : هو ما حدث لك ولى ولنا جميعا . وكل واحد له تاريخ !

* * *

لاتكذب ، لاتقل تاريخا : قل لى الحقيقة !

* * *

شىء عجيب : التاريخ كلما كان أبعد كان أوضح ، وكلما كان أقرب كان أغمض !

* * *

إذا كانت زوجتك راضية عنك فأنت ملاك لاتفعل إلا الخير . . وإذا كانت ساخطة عليك فأنت إبليس ، وهذا هو التاريخ !

* * *

اكتبه برغباتى . . أمحوه بنزواتى . . أصدقه من خوفى ، أرفضه من غيظى ، وهذا هو التاريخ !

* * *

يطبقه الأقوياء ، يكتبه الأقوياء ـ يمسحه الأقوياء ـ من جدران المقابر الفرعونية ـ هذا هو التاريخ !

* * *

الفهـــرس

في هذا الكتاب

العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى «دانتى» على باب جهنم تقول: «أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة !».. بل هناك أمل فى النجاة ياسيدى !

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإغريقى «هراقليطس»: لولا الصراع ما كان التقدم.. فقد عرف الإنسان الحب والرحمة والسلام وإرادة الحياة والصبر على المرض والعذاب والظلم والقهر..

والعبارة التى كان يكتبها الرومان على أبوابهم: هنا تسكن السعادة ! لأنهم وضعوا إلى جانب هذه العبارة رمزًا للجنس أى أن السعادة جنسية فقط !!

والعبارة التى قالها عالم النفس الألمانى «فرتس برلنز» وهو أحد فلاسفة علم النفس : «إننى أعمل ما يخصنى، وأنت تعمل ما يخصك ولست فى هذه الدنيا لكى أعيش على هواك ، ولا أنت لتعيش على هواى ، أنت ما أنت عليه وأنا ما أنا عليه، فإذا التقينا أو تلاقينا أو توافقنا بالمصادفة فهذا شىء جميل وأما إذا لم يحدث ذلك، فما حيلتى ؟»

فليس الإنسان وحده فى هذه الدنيا . وعلى الرغم من أن الإنسان قد استقام ظهره من مليون سنة وله حياة عائلية من مائة ألف سنة. فلا تزال الأسرة هى الخلايا الضامة فى نسيج التاريخ..

أنيس منصور

هناك أمل





